عطش الصبار



يوسف أبو ريه

عطـــش الصبـــار

يوسف أبو ريه

القسم الأول

الآن واروها التراب، وكان آخر ما سمعته من كلام الدنيا ما قاله لها الشيخ الذي خرج من الفوهة، وأقعى – جامعا قفطانه – أمام العين، يلقنها بما قد يعينها على الدنيا المجهولة المقبلة عليها بتوجس، قال لها الشيخ، وأنصت المشيعون لما قال بقلوب واجفة: يا أمة الله قولي لا إله إلا الله، إن جاءك الحنان المنان فأجيبيه بأحسن لسان، أن سألك عن دينك فقولي ديني الإسلام، وإن سألك عن نبيك فقولي محمد عليه الصلاة والسلام.. يا أمة الله اعلمي أن الموت حق، والصراط والميزان حق.

وقامت النسوة ليجددن بكاءهن، ووقف الرجال المحيطون بالمصطبة حين وقف الشيخ ينفض ذيل قفطانه المفتوح منهيا كلامه بـ"لا إله إلا الله" حبل النجاة من الجب الدامس إلى بهرة النور الحي.

وهي في ظلمتها حاولت القيام مع القائمين غير أن الأرض التي ارتفعت والسقف الذي هبط منعاها، فاستسلمت لنومتها بين الكفن المحاول.

وتشعبت الطرق بالمشيعين.

بنت الحاج الكبيرة سارت مع أخواتهـا، لمـا اسـتقبلت الضوء المشع على أسفلت الطريق قالت للأخوات: المسكينة، حضرت غسلها كأخت لها، وكأن وجهها ورب العزة كالقمر المضيء بين يدي المغسلة.. ولكن ماذا أقول؟ حـين رفعنـا عنها الثوب لم نعثر إلا على واحد فقط هناك، حتى الآخـر.. حتى الآخر كان ضامرا وكأنه لعجوز أهلكها الدهر.

وسألتها أختها: عن أي آخر تتحدثين؟

قالت: الثدي الأيسر الذي وجدنا مكانه فارغا.

وضربت الأخوات صدورهن: آه.. لم نكن نعلم أن ابنـة خالتنا بثدي وحيد وطالبنها بكتمان السر حتى لا تلتقطه الأذن الغريبة.

- ١ -

في ضحى هذا اليوم، وصلت زبيدة أم إبـراهيم بصـحبة زوجها، طرقت باليد الحديد التي تمسـك نصـف الليمونـة، فارتج للطرقة الباب الخشبي القديم، تضـربه الشـمس مـن الصبح حتى آخر النهار، ذلك أن ساحة الطاحونة المواجهـة لا تسمح للظل أن يمتد على جدران الدار.

فتحت سعدية شراعة الباب، ونظرت بنصف وجهها، الذي تكدست على سحنته القبيحة غيـوم سـوداء، تنـذر بمطـر وعواصف، وتجاهلت زبيدة هذه النظرة، ولوت عنقها، لتشمخ بأنفها، وتقول: افتحي.

وتفادت النظر إلى زوجها المشغول بمصافحة الحاج علي الجالس على كرسي مرقع أمام ميزان الحب، والـذي ظهـر جانب من وجهه بين الجلابيب السود للنسـوة المنتظـرات. ظهرت سعدية وراء ضلفة الباب تلملـم جلبابهـا الأحمـر القصير، كان الماء يقطر من عند الكوع، فجففته بخرقة معلقة على سلك الغسيل الممتد عبر الصالة الطويلة، وتقدمت زبيدة في دار أبيها، بجرأة متحدية، وفتحت باب الحجرة الأولـى،

وأدخلت زوجها الذي حيا سعدية بانكسار غير معهود، ودخل الحجرة مطأطئ الرأس، بعد أن ترك الحقائب في المدخل.

جلس على الكنبة المواجهة للباب، يجفف عرقه، ويـروح على وجهه بمنديل أبيض، وجلست زبيدة إلى جواره، تحـت قالب الجير الملون، المعلق على الحائط، ويبدى ولدا وبنتـا يهرعان فوق حشائش خضراء، في مكان مجهول، صـامت، لا يملأ فراغه غير شجرة، تطل منها رأس وحـش، غيـر محدد الملامح، فلا تدري إن كان هـذا الـوحش، ذئبـا، أم ضبعا، أم لبؤة؟

البيت:

كان هذا البيت الصغير جزءا من الدار الكبيـرة للعائلـة، وهذا الحائط الذي لم يفلح الجير في إخفائه أقيم ليحجز الباب الموصل لبقية الدار، التي قسم ثلثاها المتبقيان بين اثنين مـن الأعمام، بعد رحيل العم الكبير، بزوجتيه وأبنائه منهما إلـى الحي الآخر، بجوار سكة الحديد، بعد أن اختلف مع أخويـه، فترك لهما نصيبه في الدار، وإن لـم يتـرك نصـيبه فـي الطاحونة الشرك.

وللبيت ثلاثة أبواب لثلاث حجرات مفتوحة علـى صـالة بعرض متر، يسدها حائط الجيران، وفـي نهايتـه حـوش لا سقف له، أقيم في ركن منه فرن كبير للخبيز، وكـانون، وحجزت منه مساحة صغيرة، أنشئ عليها مطبخ يتدلى على بابه سلك للمبة كهربائية سوده براز الذباب الذي يتكدس فوقه بعد كل مغرب.

وفي هذه المساحة يمرح البط والدجاج، وفـي جوانبهـا حفرت الأرانب مخابئها، وسحبت إلى حوافها أعواد الحشائش الخضراء التي تلقى إليها كل صباح.

ذات يوم بعيد، عاد العم الأكبر محمد من قرية نائية قضى فيها أسبوعا كاملا بين أقارب يحملون لقب العائلة، اكتشـفهم العم صدفة، وعزموا عليه بالزيارة، وهناك أشـاروا عليـه بشراء الثلاثين فدانا التي يعرضها أحد كبار ملاك الناحيـة، وصحبوه إلى هذه الأرض، وحددوا له المساحة، فخضع العم للإغراء، وأمل نفسه أن يكون أخوه إبراهيم – الذي يقضـي دوره في إدارة الطاحونة – قد وفر مبلغا معقولا من الإيراد، على أن يجمع باقي المبلغ، من ثمن حلـي نسـوة العائلـة، فيشتري هذه المساحة الكبيرة له ولأخويه جميعا.

ولما عاد إلى البلد، ذهب إلى أخيه الجالس فـي حجـرة الميزان، وبعد الترحيب، وحمد الله على السـلامة، وبعـض الحكايات عن هؤلاء الأقارب الجدد، والحديث عـن الخيـر العميم الذي يتمرغون فيه، والكرم الذي يفوق الحد، دخل في الموضوع مباشرة، فصاح إبراهيم في وجهه: أرض.. أرض إيه؟

ونفض حجر جلبابه من غبار الدقيق العالق به، وأراد أن يقوم، وتمكن محمد من ذراع أخيه الصـغير الـذي عهـده متعجرفا، لا يقيم لكلامه وزنا: أسمع بس.. أنا أشرف عليها. آخذ المرأتين والأولاد، وأبني لي بيتـا هنـاك علـى رأس الأرض، ورزقتها للكل. وقال الأخ، وهو يعطي له ظهـره: معك فلوس تشتري الأرض.

فرد عليه محمد وهو يقوم ليلاحقه: إيراد الطاحونة.

فاستدار إليه، وهو ينفض كفا بكف، ويمط الشفة السـفلى، وكان على محمد أن يفهم أن أخاه يعترف بأنه لم يوفر شـيئا من الإيراد، ولذعه الآخر برده الجاف: تريدني أن أطعم هذا الجيش (وأشار إلى دار العائلة) على رأسهم زوجتان لك، كل واحدة منهما تجر نصف دستة من العيال، وأوفر من الإيراد.

وبصق على الأرض قائلا: صحيح اللي اختشوا ماتوا.

وأمسك محمد بخناقه. وكال له صفعة قوية، وحجز بينهما الزبائن، وقدم الأب العجوز، بعصاه، خارجا من باب الـدار الكبيرة، تدخل بينهما بهيكله الناشف، لائما محمـد وموبخـا إياه، صائحا بفمه الأهتم: اخزي على دمك. ورفـع محمـد أشياءه من دار العائلة، ورفع أولاده على الحميـر، وسـحب بقرة عجوز، هي نصيبه من ماشية العائلـة، ورحـل إلـى الأرض الفضاء التي اشتراها في الحـي المجـاور للسـكة الحديد، عقب خمس سنوات قضـاها فـي إدارة الطاحونـة، وترك مسكنه، وهو هذا الجزء من الدار، الذي دخلت زبيـدة إحدى حجراته، حيث أسند زوجها ظهره على الأثر البـاقي للحائط الذي دق عليه قالب الجير، حيث يجري على سـطحه الصغيران خوفا من الوحش الرابض بين أغصـان الشـجرة الوحيدة.

البنت الوحيدة:

سحبت زبيدة أم إبراهيم الحقيبة الصغيرة، وبدأت تخـرج من بطنها علب الدواء، وتصفها على أرضية النافذة، ومكـث زوجها فاردا ذراعيه على مساند الكنـب، بعـد أن طـوى

المنديل، وركنه على فخذه، وظل مثبتًا نظـره عبـر بـاب الحجرة، لا ينطق بحرف، وهي بعد الانتهاء مـن تصـفيف العاب، فكت الإشارب المعقود على شعرها، ونفخت هـواء حارا، وتعلقت نظراتها بصورتها حين كانت شابة تدرس في مدرسة المعلمات بالمديرية، ورأت وجها أبيض بلون اللـبن الصابح، ينسدل عليه شعر قصير مموج، يظهر تحت أطرافه قرط صغير به فصان لامعان، وشفتاها المـدهونتان بـأحمر شفاه قاتم، كانتا مضمومتين لتبديا فما محندقا عليـه مسـحة وقار، مرسومة بحساب دقيق، والعينان كانتا حالمتين تنظران إلى لا شيء، ويمتد كتفاها إلى خارج الإطار، يجمعهما ثوب خفيف تزركشه قطع من الدانتلا البيضـاء، تحـيط الصـدر القوي، الذي يبرز خلف نقوش الدانتلا، نفس الثـوب الـذي ارتدته، يوم دخلت على كمال أول مرة، حين قدم مـع أمـه وأخيه الأكبر، يطلبان يدها من أبيها، وكانت قد رأت كمـال مرات عديدة، على رصيف محطة "الزقازيق"، وانتقتها عيناه من بين رفيقاتها، وخفق له قلبها، وظل يلاحقها، وهـو فـي مشواره اليومي إلى مدرسته، وبطريقة مـا، تواعـدا علـى اللقاء، وعرفت أنه يعمل معلما بإحدى مدارس المديرية، وهو

في سبيله إلى الانتقال إلى مدرسـة سـموحة بالإسـكندرية، وطالبته بالتقدم إلى أبيها، وأعطته بيانات كافية عن حالهـا، وعرفته أن لأبيها نصيبا في طاحونة، وفدانين مـن الأرض الزراعية، ودارين واحدة منهما مؤجرة، وحلمت باليوم الذي تنتقل فيه لتعيش في المدينة الواسعة، وتصبح زوجة لأفنـدي حقيقي، ينتشلها من عنف أخيها الوحيد، ولتظل أمها مشـبوبة بها، متعلقة بحبها، يدفعها الشوق لزيارتها في مدينتها البعيدة.

وانتقلت مع زوجها إلى الإسكندرية، وفي الإجازة الكبيرة، تعود برفقته، فتجد أمها – كما اعتادت كل عـام – دهنـت جدران الدار بالجير، وغسلت بياضات الكنب، وأخرجت من دولابها الملاءات المخزونة.

كانت الأم تعيش عيدها الحقيقي حين ترى ابنتها تطـرق عليها بابها المهجور، خاصة بعد انتقال زوجها "إبراهيم" فجأة إلى رحمة ربه الواسعة، وغادرها ابنها الوحيد إلى القـاهرة، بعد أن قضى معها ثلاث سنوات، بـاع فيهـا نصـيبه مـن الأرض الملك، ونصيبه من الدار، وعدة قراريط من ميراثـه في الطاحونة، ولم يقترب من أرض الإصـلاح الزراعـي،

وعاش في العاصمة مع زوجة عزباء، اختارها له صـاحب التاكسي الذي يعمل عليه.

كانت حين تعود زبيدة أم إبراهيم تجلس علـى سـريرها النظيف تحت مصباح الحجرة بالضبط، فتشع على نوره نورا جديدا، ويأتي العم محمد وزوجتاه وأولاده، من حيه البعيـد، ويأتي جدها لأمها – قبل رحيله – وخالتها وخالها من نفـس الحي، ويأتي العم علي المقيم في الجـزء المتبقـي مـن دار العائلة، وتزدحم الحجرة بالزائرين والزائرات، وتتحرك أمها من حجرة إلى حجرة، تنقل صواني الشـاي والقرفـة إلـى الرجال المحيطين بزوجها، القاعد بپيجامته البيضاء النظيفـة بحجرة الكنب التي يفوح منها رائحة الجير الجديد، وتعاونها النسوة والفتيات الصغيرات القاعدات حول الضيفة العزيزة.

وتبدأ تحكي بكبرياء عن الإسكندرية، وهوائهـا الجميـل، وبحرها الصاخب الذي لا يكف عن الهـدير، وذلـك بلكنـة معوجة، تحاول فيها أن تثبت خشونة لهجة أهلهـا بالقيـاس بلهجة أهل المدن، والفتيات الصغيرات حولهـا مبهـورات، لا يبعدن عنها نظراتهن النهمة.

واستمرت هذه الحفاوة، بعد أن سافرت بصحبة زوجهـا إلى ليبيا، حيث قضيا أربع سنوات، مدة الإعارة التي حددتها وزارة التربية والتعليم، ومكنتهم هذه السفرة، من تجديد عفش زواجهما تجديدا كاملا، غير أنهما لـم يبـدلا الشـقة التـي يسكنانها بالدور الأرضي بحي سموحة وعادت بعض فتيات العائلة من زيارة الإسكندرية – ذات صيف – ليحكين عـن الثلاجة الضخمة ذات البابين والتليفزيون الملون الكبير بحجم السينما، والفيديو الذي يسمح للمرء بمشاهدة الأفـلام علـى مزاجه.. والستائر المنسدلة على كل نافذة وباب و.. و.. و.. وماتت أمها في السنة الأخيرة من الإعـارة، ولـم تحضـر وفاتها، واكتفت حين عادت بزيارة مقبرتها، وانتظرت بنـات الخالة اللاتي صحبنها إلى الجبانـة الـدموع الحـارة التـي ستذرفها الابنة الوحيدة، ولكنهن عدن خائبات الرجاء، ورددن فيما بينهن: لقد عهدناها متحجرة الدمع، جامدة القلب.

ونفضن أيديهن منها، وصارت زيارتهن لها – حين تعود – عزيزة، ونادرة، وعاد أخوها يسري بزوجه، بعد أن دفـن ابنه الوحيد بقرافة العاصمة ليعمرا الدار المهجورة.

ونادت زبيدة أم إبراهيم على سعدية المشغولة بعمل دارها لتحضر كوب ماء لتبتلع بعض الحبوب من علـب الـدواء، وردت سعدية من الخارج بصوت مرتج، أتى من فم مدفوس في الصدر، غطت عليه أصوات المـواعين التـي سـقطت بصخب على بلاط الصالة.

المرأة الغريبة:

بعد أن فتحت لهما الباب، سارت سـعدية إلـى الحجـرة الأخيرة، تستر فتحة الصدر، على ثديين معلقـين كجـذري بطاطا ضخمين وفارغين، لم يقرب حلمتيهما فم رضيع، فهي لم تنجب من زوجها الأول الذي قضت معه عامين كـاملين في "ميت غمر" وهو ابن خالتها، يعمل بورشة صيانة، لم يكن يقربها أبدا، حتى لا تتكرر هزائمه، وكـان لا يكـف عـن ضربها، كلما حاول جماعها، وينزل عنها مداريا خجله فوق الوسادة، ويواصل العويل، حتى يتردد أذان الفجر من جـامع الحي، وهي تظل على صمتها، تتحسس خربشاته، وتتوجـع من ألم عظامها، وطلقت منه، وعادت إلى أهلها فـي روض الفرج وسقط عليهم ذات ليلة، رجلها الحالي، كان قادما مـن بلدته، يطلب العمل على واحدة من سيارات أبيها، وقال: إنه

ابن ناس مبسوطين، وأنه غير راض عن أهله؛ لأنه أراد أن يدير الأرض والطاحونة بعد وفاة أبيـه، ووقفـت لـه أمـه بالمرصاد، وادعت أنه لن يفلح في ذلك، والأفضـل لـه أن يعود إلى وظيفته بالطاقة الذرية في أنشاص ولكنه أصر على إدارة أعمال أبيه، وجمعت له أمه رجال العائلة الكبار، جـده وأعمامه وأخواله، وقالوا له لا تضيع فرصتك الأخيرة، يكفي أنك طردت من الجيش، وأوضح أنه كان قد تطوع بـالقوات المسلحة في بداية الثورة، وترقى في الجـيش حتـى صـار رقيبا، وتهجم – ذات يوم – على أحد الضـباط لأنـه سـبه بشتائم مقذعة، ذكر فيها أمه بالفعل البطال.

ورضي أهلها به، وتركوا له التاكسي يعمل عليه، وأسكنوه حجرة واسعة في شقة بالدور الثالث بعابدين، مع أسرة نوبية طيبة، يعمل رجلها موظفا بالتأمينات، وامرأته سـت بيـت، كانت تقضي نهارها مع سعدية بالشقة، وفي كثير من الأيـام تشتري لها الخضار من السوق.

وأحبا أطفالهما، فكان يرى حين يعود كل مساء، يجلب لهم الشيكولاته والبسكويت، ويؤمل نفسه بالولد، الذي يبثه حبـه الأبوي الكامن بصدره، وجاء الولد، أبيض، بعيون زرقـاء،

وبجسد ممتلئ، فكان يشبه عمته زبيدة في لون بشرتها، وفي زرقة عينيها، وملأ عليهما الحجـرة بشـقاوته، وبأصـواته الطفلية العذبة، وافتكره الله، وقبره، بأحد مـدافن القـاهرة، عديمة القلب، وطوت في قلبها، هذه الصفحة الأليمة، وعاشت معه على أمل أن ينجبا ولدا آخر عوضا عن هذا الذي أراده الله إلى جواره، ولكن الآخر لم يجئ أبـدا، وقطـع عليهمـا الأطباء كل أمل، فقالوا: لا يصلح دمك لدمه.

وأكدوا: أن عنقود الرحم ضعيف لا يحمل جنينا.

وقضيا أعوامهما، يكونان الأجنة، التي لا تطيق أكثر من شهرين في جوفها، وتندفق دما أحمر ثقيلا، وحين عاد إلـى "الجزيرة" بلدة زوجها، ملأ شقوق جدران الدار، بأجنة كثيرة، كان أكبرها قد كون العظم واللحم، وظهرت له خلقة صغيرة بحجم صيرة السمك. وارتدت سعدية خلعة قديمة على جلبابهـا الأحمر الذي يبدي أكتافها وصدرها لعين الرجـل الغريـب، وأعادت ترتيب الملاءة التي رفعت عن السـرير، وطـوت اللحاف الذي ظل مبعثرا منذ أن قام زوجها في الفجـر إلـى عربته الـ "بيجو" في مشوار خصوصي إلى الإسماعيلية.

وارتعش قلبها ارتعاشة لطيفة لذكرى الأمس، حيث قام إليها زوجها بعد أن دخن طقم الحشيش، في نسيم الليل، وسط الساحة بآخر الدار، وعلقت جلبابه المرمي على الكرسي الخشب في الشماعة المدقوقة بظهر الباب.

وعادت لتكمل غسيل المواعين، أراحت ردفيها الكبيرين على كرسي الحمام، وانكفأت على سواد الحلة تدعكه بالسلك، ورغاوي الصابون.

وكانت "سعدية" قد جاءت بعد وفاة حماتها، لتعمر مع زوجها الدار، وهو لم يكن يريد العودة إلى بلدته أبدا، وكان يقول: إنهم جميعا لصوص ومتعجرفون، يعاملونني وكأنني "عيل صغير" لا يعرف مصلحته، واضطروني إلى بيع نصيبي من الأرض والدار، وكنت أريد أن يكون لي سيارة ملك أتحرك بها بحرية، ولكنهم جميعا وقفوا في طريقي، وأمي "المجرمة" التي لا تستحق الرحمة، أول من اضطرني لترك البلد، كانت تختلق الأسباب لتعنيفي، واضطرتني إلى مد يدي عليها، وأكسر لها الأبواب والشبابيك، فتطلق الصوات، ليأتي الأعمام، ويحاصروني، واضطر العم علي لضربي بشومة كانت في يده، وحين عادت مرة أخرى

للكلام حول وظيفتي، والخوف من خسـرانها، قلـت لهـا: لا تعيدي علي هذا الكلام.. أريد العيش معك هنا، وتكون لي زوجة تخدمك، وأراعي أرضنا ومصالحنا. وقالت: لا أريدك إلى جانبي. وأجبرتني لأن أقول لها: عينك على أحد الرجال، وتريدين الزواج منه، ليملأ فراش أبي، وهـذا لـن يكـون، وبصقت في وجهي، وصرخت: أنت لا ابنـي ولا أعرفـك، ملعونة البطن اللي شالتك. وأطلقت الصراخ، فجريـت إلـى المطبخ، ورفعت السكين، وجاء الطرق على البـاب، قويـا متدافعا، وفتحت النافذة، وأبرزت السكين من بـين قضـبانها إلى رجال العائلة الذين تزاحموا على البـاب، وقلـت لهـم مهددا: سأذبح من يقترب من الدار، ولكنهم نجحوا في كسـر الباب، واندفعوا متكالبين علي من الخلف، وأمسـكوا بـي، وقالوا لن يكون لك عيش في هذا البلد.

وأجبرت على الرحيل..

ولهذا فقد تقاعس زوجها، حين بلغه خبر وفاة أمه، أنهـى يوم عمله، كالمعتاد، وارتدى البدلة التي دخل بها على سعدية وأمرها بأن ترتدي جلبابهـا الحريـر الأسـود، وطرحتهـا

"الجورجيت" وركن التاكسي في "الجراج"، وقـال للحـارس: يومان وأعود، سأله الحارس: خير؟ قال: خير إن شاء الله.

ولم يرد أخباره بوفاة أمه.

وحضر بعد انقضاء المأتم، وتمنت سعدية أن تكون وحدها سيدة البيت وقالت لنفسها: الحياة هنا رخيصة، وآمنة، يبيـع زوجي نصيبه من ميراث أمه، ويبتاع له عربة يتحرك بهـا بين المراكز والمدن، وأعيد أنا ترتيب هذا البيـت بعـد أن نضيف إليه متاعنا المحدود الذي يملأ فراغ حجـرة وحيـدة بشقة عابدين. واقتنع الزوج في النهاية، وبانتظار إجـراءات الميراث، عمل لدى أصحاب السيارات بالبلـد. مـرة علـى تاكسي أقاليم، ومرة على نقل كبير، يخرج به مـع الفجـر، ويعود إليها آخر النهار، حتى عادت أخته من سفرتها، قامت بالواجب تجاهها، ولم تجعلها تشعر بفقدان أمها، ولكنها ظلت على عجرفتها، تعالي يا سعدية، روحي يا سعدية وهي تطيع، وتقول لنفسها: يا بت يومين، وتمشي.

وعادت بعدها بعام، مريضة، فلزمـت الفـراش، تكـح، وتبصق دما، وسعدية تقوم على خـدمتها، نظافـة الفـرش، والطبيخ، والغسيل، وكانت تتمادى في عجرفتهـا، فتجبرهـا

على غسل بصاقها، وتشكو إلى زوجها ليلا، ويطمئنها: الحال لن يدوم.. غدا يشفيها الله، وترحل إلى الإسكندرية، لتكـون بجوار زوجها.

ولم تسترح هي لبقائها بعيدة عن زوجهـا، فكتبـت إليـه رسالة، ادعت فيها أنها شفيت تماما، وأنها تسـتطيع العـودة لخدمته، في شقتهما التي لم تفرح بأثاثها الجديد، وجاء ليحمل حقائبها، ويعودا إلى شقتهما، وتفرح سعدية باسـتعادة بيـت زوجها، الذي هو في الحقيقة، نصيب أخته عن أمها وأبيها.

وعقل سعدية يقول لها، أو هكذا يقول لها زوجها: سيؤول البيت بكامله لنا، فأختي لا تحتاجه، فقط تحتاج مكانا تنـزل عليه هي وزوجها في الأجازات، وعلينا أن نتحمل خدمتها.

وسعدية لم تمانع في ذلك أبدا، ولكنها لن تجبر على غسل بصاقها، ودمها، فهي تخشى انتقال العدوى إلى صدرها، وكل إنسان فيه ما يكفيه.

وسقط غطاء الحلة من يدها، لما سمعت النداء القادم مـن حجرة الكنب، كان صوت عمتها يطلب كوب الماء، ما زالت على حالها، مريضة، تزدرت الحبات الموصوفة بالروشـتة، ولأن زوجها لن يقوم على خدمتها وحده في المدينة، أعادها

لتخدمها سعدية بينما يظل هو وحيدا يصرمح في الشقة، ويمشي على حل شعره، هذا النجس، الذي لم يكف عن ملاحقة سعدية سواء في هذه الأيام التي اختلى بها، حين أرادت زيارتهما في الصيف، نزلت عمتها إلى السوق تبتاع بعض الأشياء، وتركتها معه، فدخل عليها المطبخ، ودون مقدمات، احتضنها من الخلف، وضمها إلى صدره، شهقت سعدية: يوه.. يادي العيبة.

وهنا، حين جاء بالعمة المريضة، كان يتركها في فراشها، ويختلق الأسباب ليلاحق سعدية في المطبخ أو في الحوش، مدعيا أنه يريد مساعدتها في الطبيخ، ويقول إنه ماهر في صنع الأطباق لأنه قضى فترة عزوبية طويلة، أثناء دراسته، وتفاجأ بأنفاسه على جانب رقبتها، وبملمس جسده على عري ذراعها، وتقول لنفسها: هذا الناقص ماذا يظن بي.

وتزجره، وهو لا يزجر أبدا، ومن يراه هذا "الساهي" بين الناس، لا يظن فيه العيبة، ولم يلفظ لسانها كلمة عما يحاوله معها، لا لزوجها، ولا لعمتها.

وكتمت سره في صدرها.

*   *   *

جففت سعدية يدها في جانبي الجلباب، ودخلـت حجـرة النوم، لتسحب كوبا من "النملية" وملأته بماء الحنفية المدقوقة في حائط الحمام، ودخلت بها حجرة الكنب، فواجهتها نظـرة كمال المستجدية، وحين أرادت أن تدير ظهرهـا للخـروج، سمعت صوته، الضائع يناديها من الخاف، فأعادت النظر إليه بترفع، وقد شحنت وجهها بالرد عما تتوقع سماعه، وسـلك زوره من البلغم، وقال بخجل وتردد: سعدية أرجوك أن تثبتي أنك بنت ناس بصحيح.

وردت متنمرة، وبجرأة لم يعدها فيها، مما حدا بالعمة أن ترفع الكوب عن فمها وتعلقه بيدها لتتابع اللهجة الغريبة التي تتحدث بها زوجة الأخ، قالت سعدية: أنا بنت ناس بصحيح.. أمال أنا بنت كلب!

واستوعب كمال الإجابة العنيفة، واستطرد: حاشا لله.. أنا أقصد بحق أثقلنا عليك، ولكن ماذا أفعل؟ عمتـك مريضـة، ولا تستطيع خدمة نفسها، وأنا لا أستطيع القيام بهذا الـدور، فهناك أتركها وحدها، وأذهب إلى المدرسـة، والواجـب أن تكون هنا بين أهلها، وأنت الآن أقرب الناس إليها.

فقاطعته سعدية ودمع القهر يحوم في عينيها: هـات لهـا خدامة.. لن أستمر في جمع بصاقها، فضلا عـن أوامرهـا وشخطها الذي لا ينتهـي، ونطلـع فـي الآخـر، لا شـكر ولا الحمد لله.

وتدخلت العمة في الحوار محتدمة غاضبة: أما أنت قليلـة الأدب بصحيح.

وسمعت من سعدية ما لم تتوقع سماعه أبدا: ما حد قليـل الأدب إلا أنت.. فاكرة نفسك إيه؟

وقام كمال ليهدئ الموقف، ووقف بينهما، وطبطب علـى كتف سعدية بحنان، معلهش.. دي أختك برضك.

ونفضت سعدية يدها بعنف، وخرجت من الباب، تشـتم، وتسب، والتقطت أذن زبيدة كلمات مهشمة، مثل "بنت كلب"، "أبوك"، "أمك". وأشارت إلى زوجها لتشهده، وتصنع الرجـل أنه لم يسمع شيئا، واقترب منها ليسكن غضـبتها: حتعملـي عقلك بعقلها، دي برضك جاهلة.

وانتفض جسد زبيدة تحت يديه، وراحت تنشج ببكاء، لـم يسعفها فيه الدمع: عمري ما حد شتم أبي أو أمي.

فقال لها وهو يدور بالمنديل على خديها: لهـا زوج نـرد عليه.

وجلس لفترة طويلة يضرب أثلاثا في أرباع، بينما يحاول ألا يسمع صراخ سعدية بالخارج و"خربطتها" في المـواعين، وبكاءها العارم، ويتابع صمت زوجته، وتوعدها للمرأة التي خرجت عن الطاعة، وحين اطمأن لسكون الاثنتـين، انتهـز الفرصة، وتكلم مع زوجته، بعـد أن نظـر إلـى السـاعة، ليشعرها بأن وقت رحيله قد أزف، وارتاح لجملتها الفاصلة: قم أنت لمشوارك وأنا أتصرف.

وسألها إن كانت تريد شيئا، وأكد لها أنه سيكتب لها – كل يوم – رسالة، ليطمئن علـى صـحتها، وأخـرج محفظتـه ليعرض عليها فلوسا، فقالت بحسم: معي كفاية.

ووقف مدة غير قصيرة، يمرر أصـابعه علـى وجههـا الشاحب، ويزيح خصلات شعرها العرقانة، إلى وراء أذنها، بينما كانت قد هدأت تماما، واستسلمت لمـداعبات أصـابعه الجافة، ثم سحبت راحة يده فجأة، وراحت تقبلهـا، قـبلات حارة متقطعة، انتهت بأن دفست وجهها بين طياتها، وأحـس

ببلال الدمع الساخن بين راحتيه فسـحبها بهـدوء: بعـدين.. بعدين.

فقالت وهي تجفف دموعها، وتكمـل إرجـاع خصـلات الشعر إلى الوراء: رح أنت ما تخافش. وكانت شرايين العين قد احتقنت، كما أزال تورد الخدين بعض الشحوب، ولمعـت أطراف الأنف الذي نكتته دفعة واحدة في منديلها الصغير.

وقبل أن يفتح الباب الكبير، نظر إلى سعدية التي تجاهلت خروجه، ومالت بوجهها تدعك قعر الحلة المسود، وقال لها: سلام عليك يا سعدية، توصي بعمتك، وخليك أصيلة ولم تجب عليه، واكتفت بأن رفعت ذراعها، لتمسح تحت أنفها.

وواجهه ضوء الشمس المشع من جدار الـدار، وأحـس بسخونة الهواء، واتضحت لأذنيه تكتكات الطاحونـة القويـة التي كانت تأتيه من نافذة الحجرة بعيدة واهنة، توجـه إلـى الحاج على الجالس فوق فروة الخروف، وهـو حـين رآه، سحب يده الساند بها على ذراع الميزان، ومدها إلى الأستاذ، ورحب به بحرارة، وسأله: خير.. لسه بعافية؟ وأجابه كمـال بمسكنه: والله يا حاج ما في فايدة، في المرة السابقة فكـرت أنها شفيت تماما، ولكن الوضع استمر على ما هـو عليـه،

ويمكن تدهور أكثر.. والدكاترة نصحوا بالراحة، قلت أجيبها لامرأة أخيها ترعاها.

فقال الحاج وهو يعود إلى فروتـه: ومالـه.. لازم مـن الرعاية.

ومال عليه كمال بوجهه حتى رأى صورته فـي زجـاج نظارته السميكة: والنبي يا حاج توصي عليها سعدية.

وشمر الحاج أكمام جلبابه، وقال: توكل أنت على الله، إن لم تخدمها سعدية نخدمها بعيننا.

وأخرج كمال المنديل من جيبه، وتهيأ للبكاء الذي يجـيش بصدره، وخرج البكاء متقطعا مشروخا من حنجرة انفتحـت على آخرها، وفوجئ الحاج بهذا البكاء، فقام مـرة أخـرى، ليربت على كتف الأستاذ: عيب يا رجل.. توكل أنت علـى الله. وسلم كمال على عم زوجته باحترام كبير، وكان مـائلا بشدة نحوه، حتى ظن الحاج أنه يريد تقبيل يده. فسحبها إلـى الوراء في نتشة قوية، جعلت كوعه يصدم بحـائط الحجـرة الصغيرة.

الميزان:

وقفت المرأة بجلبابها الأسود المتسخ أمام الميزان، ترفع على رأسها قفة كبيرة بداخلها مقطف يمتلئ بالقمح إلى حافته، جففت عرقها السائل على صدغيها، وطلبت من الحاج أن يحط عنها، فهرع إليها شحته الذي قدم من حجرة العدة، وراء حائط حجرة الميزان، مد يده إلى أعلى ليمسك أذن القفة، فسقط سروال عفريتته الملطخة بالشحم الأسود، وبانت بطنه المشعرة.

ارتاحت القفة فوق الميزان، وارتاحت المرأة المرهقة من حملها، والتفتت إلى الحاج الذي بدأ يزحزح رمانة الحديد وسط عمود الميزان، ليضبطها على المؤشر، فانسحبت حتى آخر العمود، فأخذ سنجة بحجم نصف الكيلو، ووضعها في الكفة، وبدأ يزحزح حتى انضبط مؤشر العمود على العلامة المثبتة في جسم الميزان، وصار العمود خفيفا كالريشة، ينزل إلى أسفل، ويطلع إلى أعلى كأنما تحركه نسمة الهواء، وقال لها شاخطا: شيلي.

وبدأت المرأة تفك صرة أخرجتها من صدرها، وتخرج فلوسا قديمة ملفوفة بإهمال، وسألته: كم يا حاج؟

وكان هو قد انشغل بتسجيل الحساب بالدفتر المنثور عليه غبار الدقيق، وذرات تراب الشارع، ولم يرد علـى المـرأة حتى كتب لها "نمرتها" على ورقة مربعة صغيرة، ومد للمرأة يده: هاتي.

وخبطت المرأة يده بدلع: أجيب كام؟

وانحنى شحته على القفة يرفعها على رأس المرأة صائحا فيها: ارفعي الأول.. وبعدين حاسبي.

دخل رجل ساحبا حمارا عليه جوال الحب، والحمار وقف أمام الميزان بالضبط، ينفخ ببوزه في الأرض، فيثير الغبار.

وسمع الحاج الزعيق يتردد خلف زجاج الشراعة، وتعرف على صوت زبيدة الواضح ترد علـى سرسـعات سـعدية المنطلقة من مكان بعيد، في عمق الدار.

وقام "شحته" من تحت الجوال الذي رفعه إلـى الـداخل، وعاد لينظر إلى الحاج، ويلفت نظره إلى الشجار الذي وقـع في دار أخيه.

وتجاهل الحاج نظراته، وتكلف النظر إلى خيال ماسـورة العادم التي تطلق دخانها الكثيف فوق حائط الجيران المقابل.

وأشار إلى "أبو عليوة" الطحـان القاعـد علـى كروتيـه عريضة في الظلمة الخفيفة أمام القادوس، وقال لـه: خـف الحجر شوية.

ثم نفض الغبار عن جلبابه، وقال متمتما في نفسـه: ابـن الخاسرة لا يرحم.

وترك شحته صالبا عوده على حـائط حجـرة الميـزان، وانكفأ نحو العدة، وترك الزعيق يتصـاعد خلـف زجـاج الشراعة.

دخل بين البراميل الممتلئة بالجاز والسولار، ورفع ذيـل جلبابه لما استقبل الأرض الراشحة بالزيت، وتفادي أن يتلوث من باب العدة المكدسة على خشبه طبقات قديمة من الشـحم، وامتلأـ أذناه بصوت الوابور، داخل الحجرة، حتى تلاشـت كل الأصوات الأخرى، كانت الطارة الكبيرة تهدر بسـرعة، لا نهاية لها، يلف حول عمودها السير الكبير الـذي يغـذي الطاحونة، والسير الصغير الذي يمتد إلـى حجـرة "فراكـة الأرز" ألقى نظرة على طلمبة الزيت، وماس بطرف إصبعه على الخزنة وتأمل البئر السوداء العميقة الممتلئة بالسـولار،

ووقف طويلا أمام طلمبة الماء القابعة فوق مصطبتها كامرأة حبلى تدلق قيأها على فترات متقطعة.

ثم عاد خارجا ينظر إلى أطراف سرواله الظـاهر تحـت الجلباب.

صعد إلى ظلمة المصطبة، المرفوعة بجانـب دار أخيـه "محمد" وأسند ظهره إلى الحائط مدليا ذراعه على الركبـة، مستغرقا في تأملاته، على الطريقة المحببة إليه، فكلما خفـت حركة الطاحونة، انسحب إلى هذا الركن، داخلا إلى عوالمـه الخاصة، في رحلات طويلة، قد يقطعها صياح شحته ينـادي عليه، ليزن الحب لزبون وصل للتو. مكث الحاج جالسا فـي الظلة حتى رأى ابنة أخيه خارجة من الدار، تتـدلى حقيبـة السفر من يدها، وباليد الأخرى تمسح بلل وجههـا، وبعـض شعرات رأسها تسقط تحت الإشارب المعقود بإهمال، كانـت تتخبط في مشيتها، لا تدري إلى أي وجهة تسير، ولما لمحت عمها في ظلة المصطبة انعطفت إليه.

المصطبة القديمة:

في زمن بعيد، وعلى هذه المصـطبة العجـوز، اجتمـع الإخوة الثلاثة محمد وإبراهيم وعلي، وكان إبراهيم قد اشترى

هذه الدار، التي يحوطها "حرم" الطاحونة من كـل جانـب، ولا منفذ لها غير الشارع العمومي، المفتـوح عليـه البـاب الكبير، ونافذتان لحجرتين أماميتين، وأراد إبراهيم أن يفـتح النوافذ لباقي الحجرات، ليطلق الهواء والنـور، فـي الـدار المظلمة، فقعد بين أخويه، وعرض عليهما اقتراحه، فرد عليه محمد بخشونة: تفتح على ملك مين؟

ورد إبراهيم عليه: أنا شريك في "حرم" الطاحونة؟

وأجابه محمد: لما تصبح الطاحونة ملكا خالصا لك، افتح شبابيك كما تريد.

وانحاز علي إلى جانب أخيه، وقال: يفتح وناخـد عليـه ورقة.

ورد محمد بطريقة تنهي الحوار: لا ورقة ولا يحزنون.

وأرادت عين إبراهيم البكاء، غير أنه حبسه، وضغط على نفسه، ليكبت جيشانها الفوار، ولكنه لم يتمالك نفسه لما سمع أخاه الأكبر يقول بتكهم: ينهب الطاحونة ليشـتري الـدور، والحجة فتح شباك، ليدق مسمار جحا.

وانتفض إبراهيم نازلا عن المصـطبة ليمسـك بتلابيـب أخيه، واشتبك الاثنان في عراك غير متوقع، وقدمت النسـوة

صاحبات الحب، من داخل الطاحونة، وأطلقن الصوات، الذي أوقف كل قدم سائرة في الشارع، واستدعى الرجال من الدكاكين القريبة، واستدعى الزوجات من دورهن، فاشتبكن في عراك، تقاذفن فيه أقبح الشتائم، وفجأة لاح يسري الابن الوحيد لأبيه إبراهيم فوق السطح يسب عمه الكبير، بعد أن تغلب على أبيه، وأسقطه على الأرض، وبرك فوقه يكيل له اللكمات، وسقطت رأس الفأس الصغيرة من السطح، لتشج رأس العم الكبير، فيسقط متهاويا على الأرض، غارقا في نافورة الدم التي تدفقت من رأسه العاري.

- ٢ -

دار الحاج علي هي الملاصقة لدار أبيها، ينتصب بابهـا على ارتفاع عتبة، يتلقى الشمس من فـراغ حـوش البهـائم المقابل له، فيتشقق دهانه البني العريـق، وتتلـوى قضـبان شراعته في لهيب، استشعرته وهي تدفع ثقله الراكز، بينمـا تتبع عمها، لتشملها طراوة الدار الخامدة، وواجهها التـراب الناعم على كل شيء، فوق مفرش السفرة السـميك، وعلـى الكراسي الخشبية الموزعة في كل ناحيـة، وعلـى سـطح الثلاجة البيضاء التي تئن في الركن، وراء البـاب، وفـوق السجادة المصنوعة من قطع القماش، والمفروشة على الكنبة بعرض الصالة، وارتاح الحاج فوقها، فصر خشـبها تحتـه، وقال لابنة أخيه: تفضلي.

وأشار إلى كرسي أعطى ظهره للسفرة المنثـور عليهـا بقايا خبز، وأطباق تبقى في قعرها بعض الفول وطعميتان.

الحاج يعيش وحيدا، بعد رحيل زوجته منذ عامين، وبعـد أن فارقه ولده الوحيد، وراح يلف البلاد الأجنبية، واستقر مع عياله في إحدى بلاد النفط، يجمع المال الـذي اشـترى بـه عشرين فدانا في الأراضي المستصلحة، ومسـاحة واسـعة

لأرض فضاء، تقع على ميدان المحطة مباشرة، وتقوم علـى خدمة الحاج ابنته الوحيدة، تطبخ له طعام الغداء، وترسله في "عمود" مع واحد من أبنائها إلى حجرة الميزان، وتـزوره – في فترات متباعدة – لتنكفئ بسـمنتها علـى بـلاط البيـت فتمسحه، وتنفض التراب عن الفرش، وتغير له المـلاءات. وبياضات السرير، وتجمع هدومه المتسخة، لتغسلها – هناك – في بيتها مع هدوم الزوج والأبناء، وفـي الليـل بعـد أن يقضي الحاج سهرته، على المقهـى الواقـع علـى شـارع المحطة، يمر على شقة ابنته ليصحب ابنها الكبيـر، حيـث يبيت مع جده، على سرير صغير اشتراه الجد خصيصا له.

عادت "زبيدة" بنظرها من عمق الدار المظلم لتسمع عمها وهو يسألها مداعبا: اعمل لك شايا؟

أجابته بـ"شكرا" مقتضبة وحاسمة، ثم استدركت: إذا كنت عاوز أعمل لك؟ فانتهز الفرصة ليقوم، ويترك لهـا البيـت، وقال: أروح شغلي.. البيت بيتك، الأكل في الثلاجة، والشاي والسكر في المطبخ.

وجدت نفسها وحيدة، بين الأشياء الصامتة، وتنامى إلـى سمعها صوت صنبور المطبخ، وهو يقطر ماءه في الحوض،

وامتلأ رأسها بنواح الطاحونة، وتعمق صمت الأشياء حولها، حتى كادت تحس بحملقتها المتطفلة، فنهضت إلى حقيبتهـا، وجرتها إلى الحجرة المفتوحـة، وانصـب بـداخلها النـور المصفى من شيش الحجرة المغلق، وإشراقة بيـاض فـرش الكنب والسرير، وأغراها ذلك بالتمدد على السرير المرتب، ففتحت غلق الحقيبة لتخرج جلباب البيت، ونضت البلوزة عن جسدها المرهق، وسحبت "الجيب" إلى أسفل، وتركته ينـزل لوحده، وهبط تدريجيا محتضنا وركيها وساقيها، واستشعرت ملمسه الخفيف في انسحابه إلى الأرض، حتى تكـور تمامـا حول قدميها، فانخلعت منه، ووقفت قليلا بقميصها الـداخلي، وأحست بالخجل، من عري الصدر، والأكتـاف والسـيقان، فدفعت الباب الموارب، وأحكمت المسمار النائم على الضلفة، وقعدت على حافة السرير، تدقق النظر في بشرتها المصفرة، وضغطت بأصابعها على لحم الذراعين، وشدت ارتخاءه، كما ضغطت على لحم الوركين، وتسللت راحة يدها إلـى فتحـة الصدر، واقشعر بدنها لما لامست مكـان الثـدي المبتـور، وضربت بيدها على الحفرة الغائرة، وأخرجتها على عجـل، واستمر الملمس الخشن الشائه على أطراف الأصـابع التـي

تجمدت أمام عينيها، وانسال الدمع غزيرا على خديها، وتساقطت عنه حبات كبيرة دافئة على لحم الصدر، وتفرقت بين أضلاعه التي تعد بالواحدة.

ومر خيال في ضوء الشارع. امتد من خصاص الشيش، وانفرش على جدران الحجرة، فقامت فزعة تلم لحمها في الجلباب المطوي، وجففت دمعها بسرعة قلقة، حين سمعت الخيال يكلم خيالا آخر، وقف إلى جواره، ولم يتزحزحا من تحت النافذة، وشعرت بأن وحدتها قد انقضت، وأن سرها قد انفضح، فدخلت تحت غطاء السرير، ساندة ظهرها على المخدة، ففاجأتها صورة زوجة عمها الميتة، معلقة أمامها بالضبط بوجهها الضخم الممتلئ بالتجاعيد التي توزعت في شعابها بسمة جامدة، كان الوجه ملتفا في طرحة سوداء خفيفة، يبدو من تحتها منديل الرأس الشفاف فوق الجبهة العريضة، وكأنما الصورة لوجه أطل فجأة من طاقة مرتفعة بالحجرة، وضايقها أن المرأة في الصورة تنظر بثبات، وتحملق كأنما تريد أن تقرأ خفاءها، فأدارت وجهها جهة الحائط في محاولة لاحتضان أطياف النوم البعيدة.

الاختفاء:

أنتم أين تختفون؟ أنتم يا من تكتفون بالوجود الجامد بـين إطارات الصور؟ تطلون علينا مـن بعيـد بنظـرة واحـدة لا تتغير، وملمح واحد ثابت، أين وجودكم الحـي؟ فـي أي جحر جائر تركتم رائحتكم الطيبة، وفي أيـة حفـرة انطفـأ نوركم الحاني؟

أنت يا هذه المرأة المعلقة في الصـورة، تنظـرين إلـي كخصم، أنا أخافك الآن، بينما دمي لا يزال يحتضن لهفتـك إلى حيث كنت تعلمين بقدومي، ما زالت يدي الحية، تنـبض في امتدادها حول خصري، وكانت يوما تلم كتلتك النابضـة بالشوق، وهذا صدري لم يزل يرفع جرم ثدييك الضخمين لما كنا نتلاحم في اعتصارة الحضن، أي يد ظالمة سلبتك هـذا؟ وتركتك صورة تطلق الرعب والخوف، وكنت يومـا أنـيس الوحشة؟ وأنت يا أبي لقد انسحبت مبكرا، وتركتني أسـتقبل العيد في شقتي، وراء باب صامت، لا تطرقه يدك الحنانـة، كنت بهجتي لما تقدم إلي حاملا فاكهة العيد، وتقضي معـي يومين، لا تكف عن الكلام، ولا أكف عن ارتشاف الدفء من قلبك المحب، أين توارت صورتك؟ وأين خفت صوتك؟ أنت

وأمي التي غافلتني، وهاجرت إليك، غـادر هـذا الرحيـل المفاجئ، أصبحت أعود إلى الدار، فلا أجد من يضمني إلـى صدره، وصرت جذرا مقلوعا، ألقى به على جانب الطريق، وأصبح وجودكم حولي، هامسا، وطيفيا، ومخيفا.

وهأنذا يا أبي أتمدد وحيدة في نفس البقعة التـي شـهدت ميلادي، في نفس الحجرة التي كنت تجتمع فيها مسـاء كـل خميس، مع الأعمام، تدخنون الحشيش، وتسمعون "أم كلثوم" ويسبح حديثكم مع الدخان، خارج الحجرة، فأسـمع صـوتك المميز، وأنا بعد طفلة تقبع بين نسوة العائلة، أتسلى بحكايات الرعب، وأمر على بابكم المفتوح نصف فتحة، فـأراك فـي سحاب الدخان، قاعدا على الأرض، ترص الجوزة لأخويك، العم محمد ممددا بطوله على الكنبة المواجهة للباب، راكـزا بكوعه على مساندها، مصغيا للمذياع القريب، والعم علي إلى جوارك ينظف الحجارة، ويراعي النار، وأنظر إليكم بطرف عيني، ولا أجرؤ على الدخول، لأنه لا ينبغي لبنت صـغيرة الدخول في طقوس الرجال الكبار، وكان عالمك هذا غامضا ومبهما وبعيدا، هذه الحجرة المباحة نهارا، هي الآن داخـل غلالة الدخان نائية، لا يمكن الكشف عن أسـرارها، أبنـاء

الأعمام فقط قادرون على رفع طرف هذه الغلالة، والـدخول إلى عالمكم السري بحذر، ويجلسون علـى حـواف الكنبـة منتبهين للصيحة المفاجئة من العم محمد: قم نام نامت عليـك حيطة. ويهرع إلينا الأولاد في حجرتنا، يلهثون من الخوف، فتسحبهم الأمهات على أفخاذهن، ويهدهدن أجسامهم الصغيرة اللادنة، ويطمئن قلوبهم المرتعبة: حد قال لكم تروحوا هناك.

وكنت يا أبي أسمع نداءك: يا زبيدة.

فأجري إليك، وأفتعل الإنصات لأرى أكثر: هاتي قلة مية.

وأعود بها إليك، وأدخل مترددة، عيني معلقة على العـم محمد خشية أن يصرخ في وجهـي، فتسـقط القلـة علـى الأرض، فتتهشم شقافتها، ولكنك تشجعني: ادخلي.

وتمد يدك لتأخذها مني، وقبل أن تضعها على فمك لتروي عطشك، تربت بحنان على كتفي: روحي أنت.

وتبص لأخيك الممدد على الكنبة خوف أن يتهمك بـاللين والدلع.

فأين عيونكم هذه لترى وحدتي، لم يبق لي غير هذا العـم الوحيد، وها هو ذا قد أدخلني حجرته، وتركني وراء الأبواب والنوافذ المغلقة، وماذا يمكن أن يفعل؟ هـو وحيـد مثلـي،

لا أعرف كيف يترك نفسه لوحشة الليل، وكيف لا يرتعـب من صورة الزوجة المعلقة.

تركه ابنه الوحيد، وغادر ليجمع المال مثلي، فها أنـا ذي عدت بنصيبي، ولم يجدني في دفع مرضى، ولم ينفـع فـي إرجاع لحظة دافئة من لحظات حبكم، هذا الولد الـذي عبـأ رأسه بالأحلام، يتخلى عنها الآن، كم من مرة مـلأ رأسـه بكلامه؟ منذ أن كانوا يتركوننا جميعا فـي حجـرة واحـدة، مطمئنين إلى براءتنا، منذ أن تجرأت يد هذا الولد، فانسحبت إلى جنبي، وهبطت لترفع ثوبي من أسفل، كم كنت مغيظـة، ومستسلمة؟ أقاوم في الظاهر، وأريد بكل كياني، حتى تعودنا التلصص في ساعات القيلولة، أو في ساعات الليل المتـأخر، مطمئنين أن أحدا لن يكشف سرنا، ننفرد على مدواد الزريبة، أو في قاعة التبن بآخر الدار، ونختلق الحجج للـذهاب إلـى الغيط، فننام بين عيدان الذرة، وبين شجيرات البامية الشائكة.

وأدمنته، وأدمنني، واقتربنا أكثر، وكنت أقعـد السـاعات الطوال وراء ظهره أرقب يده، وهي تنقل الشـجر والسـماء والطير على الورق الأبيض، فتعلـق بـه قلبـي، وأحببـت الإنصات لكلامه عن رحلته إلى المدينة، وعـن المعـارض

التي سيقف لها أبناء المدينة على قدم وساق، وعن صوره التي تظهر في الصحف والمجلات وأقاسمه الحلم، ويغادر إلى المدينة، ويدخل كلياتها، ويكتفي بالرد على رسائلي الملتهبة بعبارات فارغة، لا حياة فيها، وانشغل عني، وانشغلت عنه بـ"كمال" الذي التقيته على رصيف المحطة، أيام مدرسة المعلمات.

والآن أنا بين هذه الجدران المصمتة، خمدت كل الأصوات، وتلاشت منها الحياة، فهل يخمد صوتي مع من خمد؟

ها أنا ذي أحس بأيديكم المتلاشية، تجر – في خفاء – ساقي إليكم، أحسها، وأنا أقاوم، أنا الآن أقاوم، لا أريد أن أكون في دنياكم هذه الموحشة، أنا لا أعرفها بعد، ولكن كيف أقاوم؟ وأنا أشعر بالمرض الخبيث يأكل جسمي، ها قد التهم الثدي الخاوي، هذا الثدي الذي حلم بدفق الحياة إلى صبي لم يأتي أبدا، ولأنه فقد وظيفته، يبس، خلع جذره من تربة الصدر، ومات، جافا، وفارغا.

ولم يكتف بذلك، دفع خباثته إلى الدم، فهو الآن يسـري، وأحسه قادما من الصدر إلى الرئتين، إلى بـاقي الأعضـاء الواهنة.

أنا الآن أرحل إليكم، وأتعلق ببقية من الحيـاة، أنـتم الآن تجرجرونني نحوكم وأنا أتشبث بحطبة تسبح على سطح بحر هادر، أمهلوني قليلا، لأعب الحياة، فأنا مازلت شـابة، أنـتم عشتم الكفاية، وخلفتم الذرية، أنا وحيـدة، لا أمتلـك غيـر أعضاء جسمي، وبعض الدم الذي يحمل مرضه كبقـع مـن زيت، في محيط الماء.

- ٣ -

نسمة العصرية:

هذه هي العصرية، والنسمة الرقيقة بدأت تنشط في النافذة البحرية، وانسحب لهيب الشمس عن حائط الجيـران، أمـام الظل الممتد، وماسورة العادم تمطى خيالها، وبـدأت تـدفع دخانها بعيدا، حتى لامس سور الدور الثاني للدار المقابلـة، وزبيدة أم محمد فرغت من حمامها اليومي، وجمعت شعرها إلى الوراء، ونشرت خلعتها على درابزين السـلم، وارتـدت جلبابها الغامق الذي تتناثر عليه زهور صـغيرة، لا تتضـح إلا للعين القريبة، دخلت الحجرة الصغيرة التي لفظ فيها أبوها أنفاسه منذ عامين، وامتد عاريا على مغسلة، ملأت نصـف هذه الحجرة بالضبط.

وكالعادة طوت وسادة سرير أبيها المرتفع، وجلست فوقها، تبرد كوب الشاي بالنعناع، وترقب الشـارع مـن حولهـا، لا ترى منه غير أجساد آدمية تسعى في غبـاره، وهياكـل ضخمة لماشية سحبها أصحابها في رحلة العودة اليومية مـن الحقول، ولمحت عمامة عمها الحاج علـي الجـالس علـى

المصطبة تحت النافذة يحادث رجلا – لا يبين – في شـئون خاصة، لم تحفل بمتابعتها، بل أصغت لبكاء ابنة أخيها فـي الحجرة الواسعة القريبة من حجرة "العدة"، وضـاع صـراخ البنت في دوشة الطاحونة، وأرادت أن تقوم لترفعهـا عـن فراشها، وتجلسها أمامها على أرض النافذة. كما اعتادت كل عصر، غير أنها سمعت زوجة أخيها تسكت البنت التي أقلقت قيلولتها. وزبيدة رغم أنها على خصام مع أم البنـت وأبيهـا إلا أنها تستطيع في أحيان كثيرة اقتحام غرفتها، وترفع البنت عن فراشها لتضمها إلى صدرها، مداعبة، مدللة، وتتأمل هذا الوجه الصغير الممتلئ، الذي انطبعت على ملامحه الكثيـر من ملامح المرحومة جدتها التي توفيت بعد ولادتها بعشرين يوما، فـ"زبيدة" الآن تعيش مستقلة عن أخيها، بعد أن كثـر الشجار بينهما، عقب رحيل الوالدين.

وكان أبوها – في سنة الحرب الأخيرة – قد زوجها أحـد أقاربه، من قرية بعيدة، لا تنتمي لمركزهم، والعريس كـان أحد أبناء هؤلاء الرجال الذين نزل عليهم يوما منذ أربعـين عاما، وأغروه بشراء الثلاثين فدانا التي لم يطاوعه أحد مـن إخوته في ضمها إلى باقي أملاكهم، وتجددت العلاقة بزيـارة

خاطفة قام بها الحاج محمد ذات يوم للعزاء في أحد رجـال هذه القرية، ورأى العـريس، فأعجبتـه رجولتـه الريفيـة الصميمة، وأعجبه أنه مدرس وأحد أعضاء البعثة التعليميـة في ليبيا، وأعجبه هذا البيت الريفي الجميل الذي أنشأه وسـط حديقة نبتت فيها أشجار المـانجو والجوافـة، وكثيـر مـن الخضار كالبامية والملوخية والخبيزة.. وحدث نفسه. لمـاذا لا نخلط زيتنا في دقيقنا، ونجدد العلاقة مع الأبناء حيث لـم تفلح الآباء.

وجاء حديثه لنفسه في الوقـت المناسـب، إذ كـان هـذا المدرس يبحث عن بنت الحلال، وبات "الحاج" ليلة العـزاء في بيت المدرس، وشاهد نعم الله الكثيرة التي جلبها من ليبيا، كلها في ربطها، لم تفتح عنها لفائفها بعـد، وقضـيا الليلـة يتحدثان معا، في كل شيء، حتى تطرق الكلام إلى الـزواج، وسأل "الحاج" قريبه المدرس: ما أخر زواجـك حتـى هـذا الوقت، وأنت في غير حاجة لشيء، بيتك جميل، ومكتمل من مجاميعه؟

وقال المدرس: والله يا "حاج" أنا أبحث عن بنت الحـلال المناسبة.

وتهلل "الحاج" ومال عليه هامسـا: عروسـتك عنـدي، ولا تحمل الهم.

وسعد المدرس بهذا العرض، وقبل فـي الحـال، دون أن يرى عروس المستقبل، فهذه – في رأيه – زواجة معقولـة، ومناسبة لروحه وأخلاقه، بنت قريبة، أبوها واحد من أعيـان بلدتهم، وأكيد جميلة، فهي ترعرعت في نعمة أبيها، تستطيع أن تنجب له الولد الذي يتميز عن أبناء قريته الفقيرة، بانتمائه لأم هي من سكان المدن، بالقياس إلى قريته طبعـا، وكـان زواج، وكان سفر، وكان ولد نقل عن أبيه سمرته، ونقل عن أمه سمسمة تقاطيعها الدقيقة. وكان طلاق...

ذلك أن الزواج تم غصبا، فـ"زبيدة" فزعـت حـين رأت عريسها، أفندي صحيح، ولكنه فلاح، بهيكله وبنائه، وسلوكه وخشونته، ولم يكن أبدا كفارس أحلامها الذي قضت عمرهـا تشكله في تلافيف عقلها.

ثم إنها كانت تريد العريس الذي ينتشلها من حدود بلـدتها الضيقة إلى رحابة عالم المدينة، لكن أباها يربطهـا برجـل، كتفها بأحباله الغليظة، وقبرها في قرية بائسة معزولـة عـن

الدنيا، تنام بعد الغروب، وتقضي ليلها الطويل بين نقيق ضفادعها، ولدغ بعوضها القاسي القلب.

وتربى ولدها في كنف أبيها وأمها حتى شب، وبلغ السن القانونية، فعاد إلى أبيه، في بداية نفس العام الذي افتتح بموت أبيها، وختم بموت أمها التي قضت طيلة سنوات طلاقها، قلقة عليها، تتمنى لها راحة القلب مع ابن الحلال، وفي نفس الوقت تطوي رغبتها في الدوام معها.

وعاشت زبيدة مع والديها حياة مضطربة، فيها عنف، وفيها لين، فيها قسوة وفيها رحمة، مرة تتمرد، وتهج منها، هاربة عند واحدة من أخواتها، ومرة طائعة، تدق في عمل الدار، من الصباح الباكر، فتلبس خلعتها، لتكنس، وتمسح، وتطبخ، حتى جاءت زوجة أخيها، فانخلط الزيت على النار، واشتعلت الحرائق الصغيرة والكبيرة، وانحازت الأم – بالحق والباطل – إلى جانب ابنتها وانحاز الابن – بالحق والباطل – مع زوجته، والأب في كهولته، يعرف نار ابنته الحامية، ويكتم في صدره سر عنفها، ويطيب خاطرها مرة، ويطيب خاطر زوجة ابنه مرة، فهو في حاجة إلى الخدمة، بعد أن تقاعدت امرأته، وتكاهلت، فلم تعد قادرة على القيام بأداء

واجباته، وبعد رحيله، تعارمت النار، وصارت الحياة الواحدة حياتين، الأم والابنة في جانب، والولد وزوجته في جانـب، حتى خدعت الأم زبيدة وانسحبت منها فجأة، عقب وفاة أبيها بمدة قصيرة، وجددت المسكينة حزنهـا، وتكدسـت الجبـال السوداء على قلبها، وانقصف ظهرها برحيل الأم.

فقد كانت تظن أن الزوج الثاني سيأتي على عزوة أبيهـا، ولكنه رحل قبل أن يأتي هذا الزوج المأمول، فأملت أن يأتي بشطارة أمها فغدرت بها، وتركتها بدون مناسبة، وكان مـن الصعب أن توطد العلاقة مع الأخ وزوجته، بعد أن وصـلا معا إلى طريق مسدودة، ومظلمة، امتلأت بكراهية، دعمهـا العراك الذي وصل إلى التشابك بالأيدي، وإسـالة الـدماء، وكسر "الفازات" في الوجوه، والتهديـد بالـذبح، والحـرق، والخنق.

وها هي ذي تعيش من فوائد نفقتها التي حفظتها في البنك، وبنصيبها في ميراث أبيها من الطاحونة، ويدخل لها الحطب في مواسم الحطب، والبصل حين يزرع البصل، والأرز في مواسم حصاده، والذرة فـي مواسـم تجميعـه، وهـي الآن

مستورة، فاقدة لأمل الانتشال من هذه الدار الشرك، إلى دار خالصة لها، هي دار زوجها المنتظر.

وسمعت طرقا على الباب الخلفي المفتـوح علـى عـدة الطاحونة، فمالت بجذعها لترى الداخل عليها، ففوجئت بابنة عمها زبيدة أم إبراهيم تضع فوق جلبابهـا بلـوزة بأكمـام، وتسدل على شعرها طرحة بيضاء، وتتدلى من يدها حقيبـة سفر، مفتوحة السوستة، طفحت محتوياتها إلى الخارج.

- ٤ -

شد يسري أو إبراهيم الـدوبارة المربوطـة فـي حديـد الشراعة، فانفتح الباب، ووجد سعدية تخرج مـن الحجـرة الأخيرة، كانت ترتدي جلبابا أبيض خفيفـا، تخنـق أكمامـه ذراعا ممتلئة باللحم الذي خفت دكنته عند حد الكم المكشكش، وكانت قد عقدت الإشارب الفاقع الحمرة على شعر سـرحته وراء أذنيها، مما يدل على أنها أنهت عمـل دارهـا للتـو، وأخذت حماما باردا، لم يزل ماؤه يرشح على قماش الظهر، وعلى ذيل الجلباب القصير.

ركن قرطاس الفاكهة على جانب من كنبة حجرة النـوم، وخلع الجلباب المتسخ، ووقـف وسـط الحجـرة بصـداره وسرواله الذي أبدى ساقين نحيلتين مشعرتين، تقفـان علـى شبشب جلدي سميك ومرتفـع عـن الأرض، نـزل عنـه، فانخفضت قامته، وانحنى تحت السرير يبحث عن "الزنوبـة" وانتبه على دخلة سعدية تلقيها إليه فـوق الـبلاط العـاري بالقرب من عتبة الباب، ومدت إليه يدها بالفوطـة، دون أن تنبس بكلمة، وإن كانت قد ركنت في جانـب مـن بوزهـا "قمصة" يعرف هو أنها ستفيض بها حين يقعد لتناول العشاء،

ودوما تكون من إحدى الجارات أو من إحـدى القريبـات، وسيؤكد لها حين تبدأ الشكوى، ما أكده مائة مرة: قلت لـك أغلق عليك بابك.. ولا تكلمي أحدا.

ويسري منذ أن أتى بـ سعدية إلى بلدته، وهـو يكـرر عليها هذه الجملة، فهو يعرف أن قريباته سيعاملنها كـامرأة بلهاء، وسيستخدمنها في مشاويرهن الخاصـة، فـي جلـب الخضار من السوق، وفي توصـيل بعـض الطلبـات إلـى القريبات اللائي يقطن الأحياء البعيدة، وفي رفع قفف الحـب إلى السطح، وفي غيرها من الأمور، ولكن سعدية دائما تهمل أوامره، وما من مرة يعود من عمله إلا وشدها من ذراعيها، من دار عمه محمد حيث تفترش مع زبيدة الحصـير، فـي الحوش وراء الدار، أو ينادي عليها من عند الجيران حيـث تشاهد فيلم العصر، وكانت تهرع حين تسمع طرقته المعروفة على سقاطة الباب، فتجري إليه، وتمد يدها بالمفتاح بحـذر، ويا ويلها حين يطرق السقاطة، وتكون في مشوار بعيد، لـم تقدر مجيئه في هذه الساعة بالذات، يشـدها مـن شـعرها، ويدخلها الدار، ليهرس عظمها بيده، ورجله، وبكـل شـيء يقابله عند الضرب، ويقعد ينهج من مجهود العلقة، حتى تهدأ

أنفاسه، وتكف سعدية عن البكاء، ويقول لها: قومي جهـزي لنا لقمة. لقمة.

وتزمجر في دلع، وتجدد بكاء طفليا ممطوطا لتشعره أنـه يستفرد بها في الغربة ويستهتر بشخصيتها، وأنه قد بالغ فـي ضربها، لأنها لم تكن في دار غريبة، فعلاقاتهـا لا تتجـاوز قريباته، ثم ماذا تفعل هي؟ هل ستظل حبيسة هذه الجـدران طول النهار، ألا يزن عقله، هو الذي يجري بالسيارة في كل البلاد، يريدها ألا تفارق حوائط داره، ويسري يقـدر ذلـك، ولكن لا يدري ما الذي يدفعه لأن يأمرها بهـذا، هـل هـي الغيرة؟ معاذ الله. ربما الرغبة في حيـاة خاصـة مسـتقلة، لا يطلع فيها أقاربه على شئونه، فهم يجرون هذه البائسة في الكلام ليعرفوا كل شيء عنهما، ويعاملونها كخادمـة، وهـو يريد صون كرامتها من سطوتهم.

عاد يسري من الحمام، يجفف وجهـه بالفوطـة، فوجـد الصينية عليها الأطباق الممتلئة بالطبيخ، وسعدية قابعة إلـى جوار طبق العيش، تنكش عن اللقم الصحيحة، وقعد كما هو بسرواله وصداره وسيقانه العارية، وقبل أن يمد يده باللقمة،

سمع سعدية تنشج، أنها لم تقدر على الإمساك بنفسها، وحط اللقمة في فمه: مالك يا بت؟

- ولا حاجة.

- بتعيطي بدون داعي؟

ولكنها حكت له كل ما وقع في نهارها، عودة أخته وزوجها من الإسكندرية وكيف رحل، بعد أن تركهما وحيدتين، وكيف أنها لم تحتمل إخفاء مشاعرها، وأن أخته المتسلطة هي التي بدأت وقالت لها إن أباها وأمها بشريان كأبيها وأمها تماما، وهددتها بأنها إذا سبقهما، سترد عليها بمثلها.

- أوعي يا بنت الكلاب تكوني شتمتي.

وأجابته سعدية وهي تمسح مخاطها في خرقة كانت تغطي الخبز.

– شتمت.

وبررت ذلك بأن أخته كانت قبيحة جدا، واتهمتها بأنها مجرد خدامة كانت تلعق صحون نسوة القاهرة، جلبها أخوها إشفاقا عليها، وأنه الخائب لم يجد غيرها، وأنها عديمة الخلفة، تأكل عيالها، وأنها بلا أهل ومقطوعة من شجرة،

وعليها أن تلم نفسها، وتشكر ربها على النعمة التـي أنزلهـا عليها، بهذا الزوج الطيب الذي أتت على صحته وماله، دون جدوى، لا ولد يصون اسمه، ولا مال يحفظه لمستقبل حياته، وأنه سيظل خائبا هكذا طالما هذه المرأة معه.

وسمع يسري كل هذا، وهو يلوك اللقم، تحـت "الضـبة" المتعتة في فمه، وسألها: وأين هي الآن؟

قالت سعدية باستنكار، وبشعور أنها لم تفلح فـي التـأثير عليه: لا أعرف.

الليل حول الطاحونة:

هبط الليل، وتكدس ظلامه هناك في الأحـواش القديمـة وراء الطاحونة، وكان خفيفا هنا أمام أبوابها، مزقته مصابيح صغيرة تتدلى من أعمدة الشوارع، كما مزقه نور لمبة الجاز الذي ينبعث أصفر شاحبا من حجرة الطحين.

فقد أغلق باب "فراكة" الرز، ورفع الميـزان، وطاولتـه، وفروة الخروف التي يقعد عليها الحاج علي إلى داخل حجرة الطحين، وركنت كل هذه الأشياء تحت جسد الغربال الضخم، الذي يلقى شبحه العظيم على الأرضية التي انطبعت عليهـا أقدام الزبائن والعمال وسط غبار الدقيق الأبيض.

رد يسري باب الدار، وعـدل ياقـة جلبابـه الأفرنجـي النظيف، وسمع دقات شواكيش الحديد على صخرة الحجـر، تتردد من حجرة الطحين المفتوحة الباب، فاتجه إليها، وأسند يده على بابها الكبير ذي الخشب المحبب الذي دهن ذات يوم بدهان كثيف جاف رقدت بين شقوقه ذرات الـدقيق، وظـل ساكنا في وقفته، يتأمل هيكل "أبو عليوة" الناحل الذي انكفـأ فوق حجر الطاحونة الدائري الكبير، بعد أن انفتح قادوسـها الأسود، وركن بعيدا في الظلمة العربية من حجرة "العـدة"، ويتأمل شحته الذي مد يده بالشاكوش أسفل ساقه المثنية، ليدق على المجرى الرفيع في الحجر الآخر المرفوع بعيدا بالقرب من القادوس، وكانت لمبات الجاز الشحيحة الضوء، ترسـل إليهما النور الأصفر في دائـرة صـغيرة محـدودة، كافيـة للتعرف على الخطوط الصخرية التي يعاد حفرهـا بعـد أن أكلها طحين اليوم.

وانتبه إليه شحته حين أراد أن يسوي الخيشة التي تحجـز عن مؤخرته حرارة الحجر.

- خلي عنه.

وردا في نفس واحد: ولا خلا..

وفرك "أبو عليوة" عينه الغائرة فـي الجمجمـة الناشـفة، وسألهما يسري عن عمه "الحاج" وقال له شحته إنه لا يدري إن كان قد خرج إلى المقهى أم لم يزل فـي داره بانتظـار صلاة العشاء، وعادا إلى عملهمـا فـي انهمـاك وجديـة، فيصدران إيقاعا منضبطا تألفه إذن جيران الحي، يكون لهـم أحد أصوات الليل الأليفة.

وقف يسري يتأملها لبعض الوقت، حتـى رأى ارتعاشـة أجفانهما في محاولة للخروج من انشغال العمل والتأكد مـن وجوده، وأنه لم يفارق الباب بعد، ولأنه رأى ألا جدوى مـن وقوفه هكذا، وأن عليه مهمة أخرى غير النظر إلـى هـذين الرجلين اللذين نشأ بينهما منذ كان صبيا، ومنذ كـان "أبـو عليوة" بعنفوان صحته يرفعه من تحت إبطه ليجلسه بـالقرب منه، ليعلمه الصنعة، في إجازة المدرسة، كما كـان شـحته يصحبه إلى حجرة "العـدة" ليشـير إلـى الآلات، ويعلمـه أسماءها، وعمل كل واحدة منها، حتى تعلق قلبه بالميكانيكـا في هذا الجهاز البدائي.

وعاد بظهره، لينحرف إلى دار عمه.

كان الباب مفتوحا نصف فتحة، يخرج من بين ضلفتيه صوت المذياع يرتل قرآن الثامنة، وشعر – قليلا – بالكآبة تصعد من مكان خفي بجسمه، وتمد يدها الناعمة لتأخذ بخناقه، وإحساس بمأتم حزين أتى إليه من الداخل، وتجدد في نفسه الشعور بالرجلين، وأحس بأنفاسهم تحوم حوله خارجة من فتحة الباب، فطرق على زجاج الشراعة، ولما لم يرد عليه أحد، وسع من الفتحة، ليرى "الحاج" بجلبابه وعمامته قاعدا على الكنبة، وعاقدا ذراعيه على صدره، يصغي إلى الترتيل في سبحة تأملية، أخذت روحه من هذه الدنيا إلى عالم آخر يشعر فيه بالونس بين الأحباب، وأحس أنه يقتحم عليه خلوته، فتنحنح بصوت هادئ، وقال: مساء الخير يابا "الحاج". فالتفت إليه "الحاج" وبرق زجاج نظارته في النور القادم من فتحة الباب، وظل هكذا لفترة ناظرا إليه دون أن يتضح له شكل الواقف على الباب، فقال له "يسري": أنا يسري.

وأجابه "الحاج" بـ: أيوه، شاخطة وقاطعة، كأنما يريد أن يقول له "وما تريد مني في هذه الساعة أيها الشقي؟"

وسأله يسري عن أخته، ورد عليـه "الحـاج" مسـتنكرا وبرما: لا أعرف.. تركتها في الدار، ورجعت بعد المغـرب فلم أجدها.

وبلع يسري غصته، ووقف لا يعرف كيف ينسحب مـن موقفه هذا، وكان "الحاج" قد نسيه تماما، وعاد لسبحاته مـع الترتيل الذي أخذ بقلبه، من هذا المذياع الأبـيض الضـائع وسط كراكيب كثيرة، فوق ترابيزة السفرة.

ولمح يسري مرة أخرى، طرفًا من رأس "أبوة عليوة" من شباك حجرة الطحين ورفع جسمه مستطيل النور الملقى فـي الشارع، وحطه عنه حين مرق من حوش الحميـر باتجـاه حجرة "العدة" حيث رأى الرأسين المطلين من نافـذة عمـه محمد فاقترب من النافذة، فوجد زبيدة أم محمد فوق الوسـادة المطوية على سرير أبيها العالي، وزبيدة أخته في مواجهتهـا فوق مسند وضع على كرسي خشب.

وأسند كوعيه على أرضية النافذة، وقال باسـما: إزيـك يا زبيدة.

فأشاحت أخته بوجهها إلى الجهة البعيدة، ولم ترد عليه.

وقالت زبيدة أم محمد: اف من باب "العدة".

- ٥ -

فتح يسري الباب ففزعت الحمائم والعصافير الساقطة على الأرض أمام أبواب الطاحونة المغلقة تلقط الحب المتناثر، بين طبقات التراب، والشمس المختفية وراء البيت المرتفـع فـي مواجهة الطاحونة، رمت قطعة منها على أطراف السـطح، جعلت عينه تخفق تحت أجفانها.

شفط الهواء من منخريه بقوة، وبصق بلغما أبيض علـى جدار الطاحونة. وانتفض صدره في سعلة متقطعـة، شـعر معها بأن سلوكا رفيعة كالشعرة تتمزق في رئتيـه، وارتـاح صدره بعد ذلك، فقد تخلص من "معسل" الأمس. ذلك أنه بعد أن عاد بأخته البارحة إلى داره، أقسـم بأيمـان مغلظـة أن سعدية لن تبيت فيها الليلة، ولن يكون له عيش معهـا بعـد اليوم، وكان يقصد إرضاء أخته، لا أكثر؛ لأنها لم تكف عن البكاء، حين جلس معها في بيت عمه، وحزن من أجلها حين رآها ترجو بنت عمها لتعيش معها، تقاسمها اللقمـة، فهـي أقرب الناس إليها، وأقدرهم على خدمتها، وزبيدة أم محمـد ترفض بجرأة وعناد، وترد عليها "أنا قادرة أخاص بنفسي لما أخدم حد تاني".

وتحمس يسري ليقول: إن لم تخدمك سعدية أخدمك أنا بعيني.. أترك شغلي وأراعيك.. أؤجر لك خدامة خصوصي.

وانبرت أخته لتطلب إليه التخلص من سعدية، فلا جدوى من حياته معها وهي أخته الوحيدة الحريصة على إثمار شجرة أبيها، فلا تعدم، وأكدت له أنها ستزوجه من حر مالها، ست ستها.

وقال لها يسري: كما تعلمين العين بصيرة واليد قصيرة، وأنا بودي أن أتزوج عشرة أنجب منهن عيالا يملئون علينا الدار.

وعاد من دار عمه، ليجرجر سعدية من شعرها، ويلقي بها إلى الخارج، صارخا في وجهها: أمشي يا بنت الجزمة، لم يعد لك عيش معنا طالما تسبي أهلي.

ولم تفارق سعدية باب الدار، ظلت تصرخ باكية حتى ألقى إليها جلبابها الحرير الأسمر، وطرحتها السمراء، من بين ضلفتي الباب الذي أحكم غلقه بالترباس من الداخل، ودخل إلى الساحة بآخر الدار، حيث أشعل نارا صغيرة على الأرض، وأعاد تغيير ماء الجوزة، وصف الحجارة التي غمسها بالمعسل، ودعمها بقطع الحشيش، وقعد على الكرسي

الخشب، يشد من الغابة، ويكح، وأذنه على الحجرة التي ترقد فيها أخته، حتى إذا نادته في طلب شيء، هرع إليهـا ملبيـا رغبتها، ثم يعود إلى دخانه، حتى جاءته الفكرة، لم لا يذهب إلى خالته، ويدعوها للمجيء، لتعيش مع أخته، حتى يفرجها الله، ويحقق أمرا كان مقضيا.

وجه خاف الطرحة السوداء:

كلاب الشوارع تجمعت في حجرة الميزان، تـدور قلقـة بأجساد مشدودة، وذيول مرفوعة حول كلبة نامـت بوضـع مثير فوق قاعدة الأسمنت التي تفرض عليها الفروة، والذكور من حولها يقتربون من مؤخرتها بتوتر، ويتشممون رائحـة شبقها، وكل منهم قد أمل نفسه بأنه صاحب الحظـوة، انتبـه إليهم يسري فحدفهم بنصف قالب، صارخا فيهم: اصطبحنا.

وتفرقوا جميعا في ذلة وخوف، واختفوا فـي تفريعـات الشوارع، وتراقصت نسمة الصبح الرقيقـة علـى صـدغه الأيسر، وانحرف إلى شارع "الرمش" ورأى "أبو زكي" يملأ أقفاص الجريد المربوطة على جانبي الدراجة بالدجاج، وأمه بقميص نومها قد توارى نصفها داخل الباب، أطلت بشـعرها المفكوك ووجهها نصف النائم لتمديدها بالدجاج الذي يكـاكي

بذعر كأنه لا يريد مفارقة الدار خوفا من مصـير مجهـول، جمعت المرأة فتحة صدرها بحياء، وردت على تحية يسري الذي مر عليهما دون أن يرفع وجهه عن الأرض.

واصل طريقه...

عند منتصف الشارع صبح على "عبد الله" الذي يجاهد مع حصانه ليدخله بين عريش العربة، والحصان يتـرنح غيـر فاهم، أو كأنما لم يستكمل نومه بعد، و"عبد الله" يشخط فيـه متضايقا "ويسب له الدين"، والحصان غاضب من هذه البداية التي لا تبشر بخير: أقف هنا خلي نهارك يعـدي.. صـباح الورد يا عم يسري.

واصل طريقه..

أين قضت سعدية ليلتها؟

إنها تستحق ما فعلته بها، كان لابـد أن تظـل مهذبـة، وتمسك لسانها حتى لا تعتاد التهجم على أهلنا، هـي تشـتم أختي اليوم، فلا يستبعد أن تقوح في وجهي فيما بعد، وتقول "أبوك" و"أمك".

أكيد نامت عند "أبو ضيا"، صعب عليها السفر لـيلا، ثـم أني طردتها، وليس معها نقود، لا يمكن، أنا أعرف أن بنـت

الكلاب هذه توفر المال من ورائي، فهي تتصرف في بـيض الدجاج، وتدعي أنها اقترضت من فلانة؛ لأنها اشترت كـذا، وتضرب الفلوس في جيبها، وتتصرف في الحب، تبيع منـه للجيران، كبستها يوما تبيع الحطب، وادعت أنها مجرد عيدان قليلة، والجيران لبعضها، وكم من مرة أمسكها متلبسة بتفتيش جيوب الصداري.

هي "خربية" ولا تصلح لعيشة، يكفي هـذا معهـا، هـي تستحق الطرد، يكفي هذا.. يكفي.

وخرج من الشارع الضيق ليستقبل الشارع المؤدي إلـى سكة الحديد، ورأى صاحب معمل العسلية قد ربـط كتلتهـا اللدنة في مسمار الحائط، وبدا يمط شريطها الذهب الـدبق، ويعيد تكويره في الكتلة، ثم يشده إلى آخره، فيبـرق ذهبهـا السائل في الشمس، والأخرس وقف وراء الرجل، يرش الماء أمام باب غرزته المفتوحة علـى "الجـراج" وأشـار إليـه الأخرس، وهز له يسري رأسـه علامـة التحيـة، وأفهمـه الأخرس بإشارات من يده القوية المتوترة، أن الصبي الـذي يعمل معه على العربة بالداخل يقوم بتشطيفها، وهز له يسري رأسه علامة الفهم، ودخل إلى سـاحة "الجـراج" الواسـعة،

ووجد الولد شمر جلبابه، وراح يدلق ماء الدلو علـى ظهـر العربة، ويمرر عليه الفوطة الصفراء، والماء سـاح تحـت العجلات، وصنع بركة صغيرة.

- خاص على ما أوصل مشوار.. خف إيدك شوية.

ودخل في زمرة المبكرين إلى أعمالهم، جنـود، وطلبـة، وموظفين، يهرعون في قافلة جهة بوابة المحطة التي بـدأت الانحناء إلى الأرض تلبية لدقات جرس "البلـوك"، لتسـتقبل قطار السادسة والنصف الذي بدا من بعيد مثيرا للغبار، دافعا أصواته المجلجلة بين البيوت النائمة، والركاب المنتظـرون، بدءوا يتقلقلون في أماكنهم، ويعدلون مواضـعهم ليضـبطوا أنظارهم على أبواب القطار.

ولمح يسـري امـرأة وراء درابـزين المحطـة، فـوق الرصيف، ملفعة بطرحة سوداء، وتنظر إليـه مـن تحـت نسيجها الخفيف، واستدارت فجأة جهة "البلـوك" فاضـطرب قلبه، ولم ينظر جهتها ثانية.

هل هي سعدية؟

ولو.. لن أطاوع قلبي، وأذهب إليها، علي أن أكون رجلا في كلمتي.

وانحنى بجسمه تحت عمود البوابة، ومرق مـن أسـفلها ليمر فوق القضبان المغروسة بين القوالب السوداء، وامتلأت أذنه بأصوات الوابورات تحت آنية الزيت المغلـي، وامـتلأ أنفه برائحة الطعمية، ودخل في زحام الشارع الكبير، حيـث التلميذات تجمعن في ركن أسفل سـور المحطـة بانتظـار أتوبيس المديرية، والفواعلية انتشروا على كراسـي مقهـى الحاج "محيي" يشدون أنفاس الجوزة بشوق شـديد، ويفكـون الأوراق عن سندوتشات الطعمية السخنة وبائع الجرائد رقـد تحت أقدامهم يفك ربط الصحف، ليرد لهفة الناس الذين وقفوا حوله مادين أيديهم بالقروش.

هل كان نداؤها هذا الذي تردد في أذنه عند مروره فـوق القضبان، أم تهيأ له؟ سمع اسمه يردده صوت أنثوي بعيـد، تجاهله في حينه، وإن كان جسده قد انتفض له، أكيد تهيؤات.

لو سعدية كانت قد جرت إليه، واقتربت منه.

وحتى يقطع الشك باليقين نظر مرة واحدة، إلى الـوراء، كانت النظرة خاطفة وسريعة، لمحت شـبح امـرأة ترتـدي السواد، وتغطي وجهها كله بالطرحة، وتركن ظهرهـا فـي

ضوء الشمس بالقرب من كشك بائع الفاكهـة، وداس علـى قلبه، ودخل الشارع ليستقبل دار جده.

دار الجد:

كم تغير هذا الشارع العريق، داسته أقدامه اللينة في صباه البعيد، لما كانت أمه تتركه النهار كله مع الخالـة الشـابة، فتطعمه، وتسقيه، وتحممه، وتتبادله النسوة ملاعبات مداعبات إكراما للجد، شيخ الخفراء المهيب، الذي يحمي لهن دورهن تحت ستر الليل، وها هو يتدحرج في حفرة في سن الرجولة المنقضية، كم تغير؟ لقد سقطت أسنانه جميعا، وركب مكانها عدة صناعية، تعاون في قضم اللقمة الصعبة، ونشف هيكله، وجف منه اللحم، وصار يتلخلخ فوق نعـل عـال، لا يقيـه السقوط في دحرجة الشارع المنحدر إلى أسفل، وكـان مـن خمسين عاما يحبو على ترابه، فوق طبقة انطمـرت تحـت حوائط الدور القديمة، لقد زالت هذه الدور، وانقصفت جذوع الشجر الذي يقوم على مجرى ماء كان يهبط فـي منتصـف الشارع.

كم تغير؟ كم تغير؟

سافر الناس، وجلبوا المـال، ليهـدموا ظلمـات الـدور الواطئة، ويقيموا غيرها بالطوب الحجر الذي يتشرب لهيـب الصيف، ولا يحمي من برد الشتاء وعاند يسـري وأبـى أن يركب مركبهم، وقال "السن لم يعد فيه الكفاية للشحططة فـي بلاد الناس".

وهذا مصيره، دار قديمة بثلاث حجرات، لا يملك منهـا غير نصيبه من أمه، وبعض القراريط من أرض الإصـلاح المؤجرة من الدولة، سافر الناس، وعادوا، وكأنمـا تركـوا قلوبهم هناك، وصاروا أشباحا، فقدت روحها، ودفئها.

وبقيت أنت يا دار الجد، كما أنت بدفئك، وحنانك.

ما زلت تضمين هذه الخالة الطيبة التي فقدت كل شـيء، ولم تفقد قلبها.

وهذا الخال الذي ترس رجله في الأرض بعناد، ورفـض أن يلعب اللعبة.

ها هو يظهر بين ضلفتي الباب، وما زال محنيـا علـى الفأس بجدارة، يقلقل سباخ الزريبة ليخصـب بـه الأرض، وكأنه لم ينم الليل، من رآه يظن أنه في عمـل منـذ عشـاء البارحة.

- صباح الخير يا خال.

- أهلا.. صباح النور.

وعلى قدر ترحيبه الشديد بالزيارة المفاجئة بقدر انزعاجه أن يكون وراءها خبر السوء وأراد أن يطمئن على عجـل، فوقف مدليا الفأس إلى جنبه في تراخ: خير!

وابتسم يسري هاشا في وجه خاله: خير إن شاء الله.

وركن على الحائط بجوار حوض الحنفية، وراح يتأمـل هذا الوسع، تنتشر فيه فوضى كثيرة، عشة الفرن، الزريبـة بحوائطها المتبقية من الدار القديمة، وحجرة أخرى قديمـة، غطست في الأرض التي ارتفعت فتساوت بنهايـة الشـباك وبأطراف الباب الخشبي الذي طقت ألواحه كأنما داست عليها قدم مارد جبار، والماعز ربطت في آخر بروز مـن حديـد الشباك المطمور، وصناديق الحب، وسلك منشور عليه خرق بالية، هي أثواب أولاد وبنات الخال، وجلباب لخالتـه، كـان لأخيها زوجة العم الكبير محمد ومنحته إياه بناتها حبـا فـي الخالة، ودواما لذكرى الأم المحبة لها.

ومرتفع عن الأرض تنتصب عليـه حجرتـان مبنيتـان بالطوب الأحمر، دون دهاكة، يـركن يسـري علـى أحـد

حوائطها، يتابع الخال الذي عاود الضرب بالفأس على طبقة السباخ التي شاع منها بخار دافئ.

اقعد لنشرب كرسي دخان.

- خالتي فين؟

وأشار الخال إلى أعلى، نحو الحجرة الأولى، فارتقى إليها يسري وقبل أن يدخل إلى الخالة لمح زوجـة خالـه أمـام الوابور عليه براد شاي اسودت جوانبه، وعلى جانـب مـن فخذها انحنت ابنتها الصغيرة بمريلـة المدرسـة، وسـلمت شعرها للأم التي راحت تمرر فيه مشط الخشـب، والبنـت تتألم، والمشط يشتبك بتجعيدات الشـعر الأكـرت، والبنـت تصرخ من الألم، والأم تضربها بقبضة يدها على ظهرهـا، لتسكتها، وتلومها لقلة اعتنائها بشعرها.

- صباح الخير يا مرات خالي.

- صباح النور.

ودخل إلى خالته التي تملأ بسمنتها ربع المساحة ما بـين الكنبتين والسرير، ترتدي جلبابها المتسخ الـذي بـدا بلـون الأرض الموزع عليها نعال أولاد الخال الراقدين بكسل فوق الكنب، يتبرمون من اسـتيقاظهم المبكـر، ويرغبـون لـو

يستكملون نومهم بين الألحفة القديمة المبعثرة بإهمال، في كل مكان.

ردت الخالة على تحيته، واستمرت فـي عملهـا، تقطـع الخبز اللدن نصفين، وتهب عليه بكرتونـة، فـوق جـذوات الكوالح على قصعة واسعة.

ولمح يسري في الركن صورة لجـده، ضـاع إطارهـا المذهب، وحجمها الكبير بين قوالب الطوب المسـودة، كـان الجد يقف بالقرب من جدار بانـت عليـه خربشـات أولاد صغار، وقف كواحد من أبناء هذا الزمـان البعيـد بشـاربه الأبنوسي الأبيض، ولبدته المحبوكة، والبارودة بانت أطرافها خاف جلبابه الأسود السابغ إلى أطراف قدميه، فلم يبـد منـه غير طرف صغير من البلغة.

- أخيرا كبرتم صورة لجدي.

تأملت الخالة الصورة مليا، ونسيت عملها، وكأنما تراهـا لأول مرة، وكأنما شعرت بفخر مفـاجئ لأهميـة إنجازهـا الكبير، لأنها هي التي احتفظت بأصل الصـورة منـذ وفـاة أبيها، تحت مرتبة السرير، مع الكثير من الأوراق الغامضة، وكان قلبها يهفو لوضع الصورة في إطـار، وتعلقهـا علـى

الحائط، لتعيش في ونس الأب العظيم، ولكنها اكتفت بحفظها تحت المرتبة، والعودة إليها كلما ضاق بها الحـال، أو كلمـا اختنقت بالبكاء، حينما تحاصرها الأيام الصعبة التي أسـلمتها إلى خدمة زوجة أخ لا ترحم، والحياة في كنـف أخ طيـب، قليل الحيلة، لا يقدر أن يهش زوجته الشرسة عنهـا، فيـأتي عليها، ويسبها، ويبرطم بكلام غير مفهوم عن أكل العيـال، والعلة الكبيرة الكابسة على أنفاسه.

تنسحب إلى حجرتها، وتغلق عليها الأبواب، وفي غبشـة أنوار الشباك المقفل، تتأمل صورة الأب، وتبدأ تشـكو لـه أحوالها، وتذهب بعقلها إلى أيامه الزاهـرة، حتـى جـاءت لزيارتها ابنة عمها التي تزوجت تاجر الأسماك بالزقـازيق، وكان بصحبتها ابنها الذي عاد من العراق، بعد أن فـتح الله عليه، وملأ عددا من شرائط "الكاسيت" بغنائه الذي يحيي به الأفراح في أنحاء المديرية، وحكى لها الولـد الـذي أطلـق شعره فغطى أذنيه وقفاه، وتدلت على شعيرات صدره سلسلة، كانت تظن الخالة – إلى وقت قليل – أنها من خصيصة زينة النساء، حكى لها أنه الآن بعد أن انتشرت شرائطه، وصـار مغنيا مشهورا في مدينته، استطاع أن يفرغ الدور الأرضـي

من بيتهم والذي كان يشغله مع زوجته قبل تطليقها، ويفـتح في إحدى غرفه "كوافير" للسـيدات، وفـي حجـرة أخـرى "استديو" للتصوير، وهو يريد أن يلتقط الصور لأفراد العائلة جميعا.

وسأل هو من نفسه: كيف لا تعلق على حوائط بيت الجـد صورة له؟ وفي الحال سحبت الخالـة الصـورة مـن بـين أوراقها، ونظر إليها الولد حزينا، وكـأن الجـد قـد رحـل البارحة، وقبل وجه الصورة، وقال متنهدا: سبع والله.. سبع.

وعد الخالة بأنه سيعود بها بعـد يـومين مكبـرة ثلاثـة أضعاف، وسيضعها في إطار كبير مـذهب يليـق بمكانـة الرجل، فكانت هذه الصورة.

وعلق يسري على حكاية الخالة: والله كتر ألف خيره.

ودخل الخال يفرك يده، ليسقط فتافيـت سـباخ صـغيرة وممطوطة كقطع العلق من راحتيه، وأعاد الترحيـب بـابن أخته: يا مرحبا.

وفرش الشوال بجوار الباب، ودفعت إليه الخالة القصـعة بعد أن طوت الأرغفة في خرقة قديمة، ودفست في بعضـها

قطعتين من الجبن وطبقا من مخلل الكرنب واللفت في منديل محلاوي.

وقالت له: غداك.

وهز لها الخال رأسه، وأخذ يحرك جذوات النار الخامدة، ونفخ عليها من فمه، فراحت تطقطق، وتصحو حتى اتقـدت تماما، وخرجت منها نار صغيرة بيضاء، وسحب الجوزة من بين الكنبتين، وبدأ يرص، ودخلت زوجته بـأكواب الشـاي، ورحلت البنت إلى مدرستها بصحبة أخويها، والخالة راحـت تنقنق على مهل لقيمات صغيرة مغمسة بالجبن ودقة السمسم، ودارت الجوزة بين الخال وابن أخته.

وتكلم يسري واستمع إليه الخال بين غلالة الدخان التـي شملتهما، وقص يسري ما حدث البارحة، عند قدوم أخته مع زوجها، وشجار سعدية معها، وطرده لها، ونيته في تطليقها، لأنها لم تعد تصلح له، وقال الخال: حرام.. اك ولية.

وعلقت الخالة: من حقه أن يكون له ولد.

وأكد يسري على كلام الخالة مشيرا إلى أنه لم يعش بهـا كل هذه المدة متعلقا بسواد عيونها: ولكن يا خالة كما تـرين اليد قصيرة.. و..

وقالت الخالة: أختك تساعدك.

ونطر "يسري" يده بعيدا، وهو مستسلم للكحة الشديدة التي دفعت البلغم إلى حلقه، فتلقاه في منديل، سـحبه مـن فتحـة الجلباب، وقال: المساعد ربنا.. المهم عاوز تكوني مع زبيدة اليومين دول.. حتى يفرجها ربنا.

وقطبت الخالة حاجبيها، وعاركت اللقمـة بـين أسـنانها المهشمة، بعد أن طقت حصوة ملح فجأة، فصرخت: آي..

وشدت القلة الكبيرة إلى فمها، وبدأ يسري يتسمع للبقبقـة بانتظار رد الخالة التي ردت القلة إلى مكانها، ومسحت حول فمها بظاهر كفها، وقالت: أنا قادرة أتحرك من مكاني.

وأجابها يسري مداعبا: أجيب العربية وآخدك من هنا.

وقال الخال وهو يدلق الحجر المحروق في القصعة: الدار لا تستغني عن خالتك أبدا.. لكن طالمـا زبيـدة لوحـدها.. لا مانع.

ونفض يسري طوله مرة واحدة، وقال: أستأذن أنا لألحق شغلي بدري.

واستدار مرة أخرى بعد أن عبر عتبة الحجرة: خـلاص يا خالة أعتمد عليك.

وأشارت له بيدها، وهي تنفض صدرها من قطع الجـبن التي تناثرت عليه: اعتمد على الله.

وقام الخال بعد أن أعاد كل شيء إلـى مكانـه ليسـحب البهائم إلى الغيط، ورأى زوجته وهي ترفع قفـة الخضـار لتذهب بها إلى سوق البلد، فاقترب منها، وعاونها في تمكينها من الحمولة الثقيلة، وقال لها: أنتظرك.. تخلصـي السـوق وتفوتي علي.

ولم تجب عليه، تسلقت مرتفع الدار، وارتعشت القفة فوق رأسها، ولكنها استطاعت أن تمسك بخشبة المحراث المركون على جنب، وخرجت من الدار.

والخالة انتهت من فطورها، وشربت نصف كوب الشـاي البارد المتبقي في البراد، وأراحـت ظهرهـا إلـى الكنبـة، وسرحت في النور المتدفق الذي يملأ الساحة الفارغة أمامها، وسقط في روحها صمت الدار، حتى لم تعد تسمع شيئا غير طنين الذباب الذي استيقظ على سـخونة الشـمس، وتـراكم بسواده على حصير الجبن المعلق على عرق عشة الفـرن، والذي بدأ يقطر الشرش في بقع صغيرة أسفله.

ذكرى الجد:

ها قد هدأت الدار كالعادة، وهي تجلس وحدها بين أثاثهـا الفقير، تفكر فيما ستقوم به من عمل، لقـد ترهـل جسـمها، وانتشر الروماتيزم في مفاصلها، فلم تعد قادرة إلا على العمل الذي في متناول اليد، كإشعال الوابور، وتحمـيص الخبـز، وكنس المربع بين الكنبات والسرير، هدأت الدار التي لم تك تهدأ أبدا، في تلك الأيام الخوالي، يوم كانت تزدهر بصاحبها، وبرفاقه الذين يأتون لزيارته، من كل القرى القريبة، يوم كان شيخا لخفراء البلد على سن ورمح، ابن الأصلاء الذي قـدر على الانعزال من بيت العائلة الكبيرة، في ظل أبيه وإخوتـه الكثيرين، والخروج من عزوة الأب القوى الشـامخ، أصـل البلد، وجذرها الأول.

هبط الأب من التل المرتفع الذي يشكل النواة الأولى للبلد، وعبر سكة الحديد ليسكن هذه الدار القديمة، وسـط بـراري ينتشر فيها الغاب، وتتوزع بين سياجه برك داكنة الماء، ولم يسبقه إلى هذه البقعة غير قبيلة من الغجر حطت رحالها على هذه الأرض البوار؛ لأنها لا تقدر على السكن بين أهل البلد، واكتفت بأن تقيم الخيام على الأرض القفر، ليسرح رجالها –

كل صباح – بصناديق الحديد، ليصنعوا المفاتيح للأبواب، وتسرح نسوتها بالدفوف والحمير عليها "الخرج" ليجمعوا الخبز من دور البلد. وينتشرون – حين تقام الموالد – بين حلقات الرجال ليرقصن بخلاخيلهن وحليهن الكثير المتدلي من ثياب مزخرفة بخيوط ملونة دقيقة.

جاء الأب إلى هذه الأرض، قبل مجيء صهره الحاج محمد بمدة طويلة، واكتفى الأب بمساحة هذه الدار، بينما امتدت دار صهره على مساحة كبيرة، اشتملت على حوشين كبيرين، ودار طويلة ممتدة بينهما، تنفتح على ردهاتها الواسعة سبع حجرات كبيرة، وزعها على أولاده الكبار قبل وفاته، وانتقل بأولاده من الزوجة الجديدة إلى الدار المجاورة للطاحونة.

وجاءت الحكومة وردمت البرك، وحصدت عيدان الغاب، وأقامت السور الحديد، والأكشاك الخشبية التي انتشر عليها الباعة من كل البلاد، يبيعون أهل البلد القماش والحلي، والسمك، والفاكهة، والبهارات، والفخار.

وهبط إلى السوق رجال الغزب ونسوتها، واختلطوا برجال ونسوة البلد، فأنشئت الدور حول أسوار السوق،

وظهر الجامع بمئذنة عالية، تنادي الناس للصلوات الخمـس، ووضحت تقسيمات الشوارع الطولية والعرضية، حتى كـان العصر الذي عرف فيه الرجال طريق البواخر والطـائرات، وغادروا ليجمعوا المال الذي مكنهم من هدم دورهم القديمـة ليقيموا غيرها بالحجر الأحمر والأسمنت، ولم يعـرف الأخ الصغير محمد طريق الموانئ مثلهم، فاستمر يراعي الأرض التي بخلت برزقها، واكتفى ببناء هاتين الحجرتين اللتين تقعد الخالة بين جدران إحداهما، ولم يقدر علـى إكمـال بـاقي المساحة.

وكانت الدار تمتلئ بالخفراء الـذين يعملـون مـع الأب، ويمدون أياديهم للعمل في الدار، وتحاول الأم مـنعهم عـن ذلك، والأب يزجرها، ويقول لها: اتركيهم، وأريحي نفسـك قليلا، ويقوم واحد فيدخل الزريبة ليحلب الجاموسة، وآخـر يخلع اللبدة والجبخانة ليرفع مقاطف التـراب مـن الشـارع ليترب تحت الماشية، وآخر يصعد إلى السطح ليجلب الحطب للطبخ، وكانت تجمعهم مائدة واحدة، يتحلقون حولها نهمـين، يرفعون الطعام بأصابعهم المتسخة، ولا يكفون عـن الكـلام حتى ينتهوا، فيمسحون شواربهم من آثار الطعام، كذلك كان

رجال المناسر، يهبطون إلى الدار، من كل ناحية، محملـين بالهدايا الثمينة لـلأب الـذي يعـاملهم كرجـال حقيقيـين، لا كاللصوص، كما يرى المأمور والمعـاون، وكانـت الأم تحتفي بمجيئهم، وتعد حجرة الضيوف للنوم، فتفرشها بأغطية الصوف، وتمد عليها المرتبـة الكبيـرة المفروشـة فـوق الحصير، وتلمع زجاج المصباح الذي يضاء حتـى سـاعة متأخرة من الليل، كانت أصواتهم القوية تتردد مـن خلـف الباب الذي ينفذ من بين مفاصله الدخان وبصيص النور.

وتقعد هي بين الإخوة تتسمع لحكايـاتهم الغريبـة، عـن مغامراتهم في القرى حيث ينهبون الماشية والزرع، وصوامع الحب، ولم تكن تخشاهم أبدا، فكثيرا ما كانت ترى نفسها بين ذراعي شيخهم القوى، ويرفعها إلى أعلى ويهبطها إلى أسفل، وتصرخ، وهو يضحك من صراخها، ويقول اجمدي يا بنت، ولا تكوني خرعة، أنت بنت سيد الرجال.

وكانت الأخت بهية التي تزوجت من الحاج محمد تقترب من الرجال، وتعبث بشواربهم، وتفك شيلان عمـائمهم دون خوف، أما الأخت الكبيرة فاطمة التي تزوجت من إبـراهيم فكانت لا تقترب منهم أبدا، كانت تنـزوي بـالحجرة بـآخر

الدار، وتقضي نهارها وليلها لا تقترب منهم، ولا تساعد في الطبخ لهم، أو في تقديم موائدهم، وتلوم أباها على زيارتهم المتكررة، وتقول: مهما يكن فهم لصوص، ومن الخطر أن تدخلهم دارنا.

ولا يصغي الأب لكلامها، وظل الرجال يزورونه كلما هبطوا إلى البلد.

وتربصت الحكومة للأب، واتهمته بالعمل مع المناسر، يترك لهم البلد لينهبوا دور الأغنياء، وفصل من مشيخة الخفر، وانتفضت البلد لذلك، وقام رجالها بإشعال الحرائق على مدى أيام طويلة، ليجبروا المأمور على إعادة الأب إلى عمله، وراح المأمور يجمع جدعان البلد في الحبس، وقبض على الأب معهم، حتى دبر له التهمة التي وضعت الحديد في يديه، ليأخذه القطار الأسود إلى بعيد، وعرفوا أنه نفي إلى "الطور" وخلعت الأم نعلها، وارتدت السواد، ورفعت تراب الفرن إلى رأسها، وأطفأت كل نار في البيت، وامتنعت عن الطعام، وصارت هزيلة صفراء، لا تكف عن النحيب حتى عاد بعد عام ليعيشا معا شهورا قليلة، والمرض الذي كان قد

ضرب مخالبه في صدرها، سلمها للموت، فاغتصـبها مـن بينهم، بعد عام "الكوليرا" بعام.

والأخت بهية مكثت معهم لا تفارق الدار، تعاون في غسل هدمة الأب وخلع أخويها سيد ومحمد أما هي فقد رفضت كل من تقدم إليها، ووهبت نفسها لحياة الأب والأخوين.

وجاء الفرج بعد حين طلب الأب للعمل مع الباشا اليهودي "شديد" وعمل خفيرا على أرضه الواسعة، وصارت الوسـية كأنها ملك له، يمسك مفاتيحها ويملك حجراتهـا وحظائرهـا ونوارجها ومحاريثها وماشيتها، وكانت كثيرا ما تنتقـل مـع أبيها وأخويها في مواسم الحصاد للإقامة الدائمة هناك لتتـابع جمع المحاصيل، ولتحرص الجرن الذي تنتشر فيـه عـرم القمح الكبيرة، وكانت تقعد في حجرة الوسية وحـدها بـين المرتبة المنشورة على الأرض وأجولة القمح تطبخ للرجال، ثم تسهر على الجرن حتى الفجر، تراقب الرجال في ضـوء الفانوس المعلق على جذع الشجرة، يديرون ماكينة الـدراوة، ويرفعون مقاطف التبن من أمامها ويملئون الأجولة بحبـات القمح النظيف التي تسقط من مؤخرتها، كانت هذه الأيام كأنها عيد.. حتى قبض على الأخ الكبير سيد بتهمة العمل مع أحد

المناسر الذين قاموا بثقب حائط زريبة أحد الأعيان، وسحب أبقاره منها، وإطلاق النار على عسكري الدوريـة لمـا أراد منعهم، وحكم عليه بخمس سنوات، ونسج الحزن مرة أخرى خيوطه على الدار، وارتدت السواد، وقلعت نعالها، وحلـت شعرها، ولم تقترب من موقد، وترددت على مصر بصـحبة أبيها وبهية لزيارة الأخ السجين، وكانـت الأخـت الكبيـرة ترفض زيارته، وتقول: أذلنا.. ومرغ وجوهنا في التـراب، وهكذا حكم علي لتعيرني السلفة، فأنا أخت الحرامي. وخرج ليفرحوا به، والأب كان قد وفر له مهر العـرس، وأقـاموا العرس عرسين، ودخل كل من سيد ومحمد على عروسـه، واحد في الحجرة الأولى المطلة على الشارع، والآخـر فـي المقعد فوق السطح، وهي وأبوها فـي الحجـرة المواجهـة لحجرة سيد.

وعادت أيام العائلة، تجمعها طبلية واحـدة، حتـى دخـل الشيطان، وفرق الأخوين، وباع الباشا أرضه – بعد الحـرب – ليفر إلى الخارج، وسحبت مفاتيح "الوسية" من يـد الأب، فلم يتبق له غير نصيبه من أرض الإصلاح الزراعي وفدانين بالإيجار.

وطالب سيد العزلة، فحصـل علـى نصـيبه مـن أرض الإصلاح، وبقي محمد في معاش أبيه حتى انتقل الأب إلـى رحمة ربه الواسعة، وطالب سيد بنصيبه من الدار، فحصـل عليه نقدا، وكتبت هي نصيبها لـ"محمد" لتضمن العيش معه، بين زوجته وأولاده، وسافر سيد مـع المسـافرين، وابتـاع الأرض التي أقام عليها دارا جديـدة. وهـا هـي تقضـي شيخوختها بين أولاد الأخ الأصغر، تأكل لقمتهـا، وتشـرب شربتها حتى يتذكرها ربها الذي نسيها كثيرا.

- ٦ -

زوجي العزيز:

مشتاقة إليك جدا، ومشتاقة إلى شقتنا التي أوحشتنا كثيرا، وإلى كل جيراننا الأعزاء، "أم توتو" و"عايدة" و"توحة" فبلغهم جميعا سلامي، أنا آسفة يا حبيبي لتقصيري فـي خـدمتك، وتركك وحدك في الشقة تقوم بكل العمل، فماذا تفعـل؟ هـل تتعب كثيرا في إعداد لقمتك، وفي غسل ملابسـك، وإعـداد سريرك. أرجو أن تتحمل قليلا، فأنا لا أكف عن الدعاء إلى الله ليشفيني، وأعود إليك لنعيد أيامنا البهيجة التي لا تنسـى أبدا، فأنا أحافظ على تناول دوائي، وأذهب بشكل دوري إلى الطبيب، بصحبة أخي "يسري" وخالتي، فهي تقيم معي الآن، وتحاول المسكينة أداء كل خدماتي، فهي كما تعرف طاعنـة في السن، وهي تحاول على أقصى ما تسـتطيع، و"يسـري" لا يجعلني أحتاج لشيء، وهو يدفع الكثير من أجلـي، فـلا تنسى أن ترسل الحوالة على أول الشهر القادم، كما اتفقنـا، حتى لا أشعر أنني عبء ثقيل على أخي، الذي ضحى بطرد زوجته حين عرف أنها أهانتنا.

أتمنى لك السعادة، وأدعو الله أن يأخذ بيدي، في القريب العاجل، فيجتمع شملنا.

وقبلاتي الحارة

زوجتك المخلصة

زبيدة

الجزيرة البيضاء ١٦ مايو

زوجتي العزيزة:

يعلم الله مدى الشوق الذي يشتعل بصدري لك.

أنا هنا أعاني الوحدة، ولكني أحاول التغلب عليها، ففي الصباح أذهب إلى المدرسة للمراقبة في امتحانات آخر العام، وأعود لأسخن الطعام الذي أكون قد طبخته ليلا، وأتناول لقمة سريعة، وأقضي ساعتين في فراشي، قد أنام وقد لا أنام، بعدها آخذ حماما، وأرتدي ملابسي، وأنزل حيث أسلي نفسي بجلسة الأصدقاء، وهم يسألون عنك، وأنا أقول لهم إنها "تغير جو" في بلدها، وبين أهلها، وأقضي بقية الليل أمام التليفزيون، حتى نهاية الإرسال. وأنا أريد أن أقول لك لا تهتمي بي كثيرا، واهتمي بنفسك، فهي الأولى بالعناية،

لا تنقطعي عن الدواء، ولا تنقطعي عـن زيـارة الطبيـب، فعملية "البزل" ضرورية لاستخراج الماء الراشح في الرئتين، وأنت أدرى بذلك. الحوالة ستصلك حالا، وهـي بمبلـغ ٢٥ جنيها، ربما يكون المبلغ قليلا، وأرجو ألا تحزنـي لـذلك، فسأحاول أن أرفعه في وقت لاحق.

اهتمي بنفسك، وسلامي إلى جميع الأهل، وإلى الخالـة، وإلى الأخ "يسري" سلامي الخصوصي.

زوجك

كمال

الإسكندرية في ٢٨ مايو

زيارة طويلة:

استيقظت زبيدة مبكرا، فوجدت فراش الخالـة شـاغرا، فعرفت أنها قامت في الفجر، وسحبت جلبابها الأسود وشاشها ونعلها، وغافلتها حيث حققت طلب الخـال الـذي زارهـم البارحة، وطالب الخالة بالعودة إلى الدار، لأنه بحاجة إليهـا، الزوجة والأولاد سيرافقونه إلى الغيط، وعلى الخالة أن تأخذ بالها من الدار الفارغة.

وقالت زبيدة: أنا لا أستغنى عنها يا خال.

وأجابها الخال: ستعود إليك في نفس اليوم.

ولكنها تعلم أن الخالة متململة من وجودها معهـا، وهـي تشعر بالغربة في هذه الدار، من كثـرة انتقادهـا لملبسـها المتسخ، وقلة عنايتها بنظافة نفسها، وهي تفضل العودة إلـى دارها، لتكون على راحتها، ترتدي الجلباب طول الأسـبوع، ولا أحد يطلب منها التغيير، وتأكل اللقمة فـي الأوان الـذي تحدده لنفسها، وتختلط بجاراتها حيث تقتعـد عتبـة بابهـا، ويجتمعن حولها، يثرثرن حول سير الناس، أما هنـا فهـي حبيسة الحيطان، تأكل بخجل، وتقضي حاجتها بخجل، وترفع لحمها الكثير إلى فراشها بخجـل، ولا يرتـاح لهـا جنـب، ولا تغفل لها عين. وكثيرا ما تنسحب من زبيدة لتذهب كـل عصر إلى ابنة أختها زبيدة أم محمـد فيفترشـان الحصـير بالقرب من عشة الفرن وراء حجرة "العدة"، وتـذهب إليهـا زبيدة فتجدها باشة الوجه، فرحة بالأرض المكنوسة، وبالقلل الجديدة في الصينية فوق صندوق الحب تحكي عن أيامها مع الحبيبة الراحلة، وابنة الأخت مصغية إليها بشغف، وحـب، وتقعد زبيدة أم إبراهيم معها معزولة وبعيدة، فهـي لا تقـدر على مجاراة الخالة كما تفعل بنت العم.

وفردت زبيدة ذراعيها بعرض السرير المتين، وتمطت في كسل، وأراحت ردفيها على جنب، لتخرج ريحا مكتوما، يؤلم ما تحتم السرة، وقامت لتذهب إلى الحمام، وهي تلم شـعرها المشعث في منديل.

- الله يسامحك يا خالة..

ومرت على حجرة يسري ودفعت الضلفة المواربة، فرأته متجمعا على نفسه في السروال والفانلة مستغرقا فـي نـوم عميق، ومن أنفه يتردد شخير واهن، وشعر بدفعـة البـاب فاستدار ليرى أخته بين الضلفتين من عينين مغمضـتين لـم تتضح رؤيتهما بعد.

وقال: صباح الخير، بفكيه الأهتمين المخلوع منها "العدة" التي غمست بهاء الكوب الموضـوع إلـى جـواره، فـوق "الكومودينو".

وقالت له زبيدة مكشرة: تسحبت خالتك ومشت.

ورد عليها وهو يريد العودة إلى نومه: تخلـص أشـغالها وترجع.

وقالت له محذرة: لا تعود مرة أخرى للنوم حتى لا نتأخر على الدكتور.

- فركة كعب من هنا للزقازيق.

*　　*　　*

لم ترغب زبيدة في ارتداء الملابس الملونة القصيرة، وارتدت الجلباب الحرير الأسود، ولفت رأسها بطرحة خفيفة، وجمعت علب الدواء في حقيبة اليد، وكذلك "الروشتات" الكثيرة، والجنيهات المتبقية من إيراد الطاحونة للشهر السابق. فالحاج علي صار يدق عليها بابها آخر كل شهر، ويمد لها يده بإيرادها، وصار يكتب لها كشفا خاصا بها كباقي الشركاء، يوضح فيه المنصرف، من جاز وسولار وأجرة العمال، وأجرة الحداد الذي قام بسن الشواكيش، ومبلغ لجمعية الطاحونة، يتبقى للطوارئ، وغيره من المصاريف، ويطرحها من الإجمالي، فيكون صافي الإيراد، وفي ظهر الكشف يقسم الصافي على ثلاثة أثلاث، والثلث يقسمه على اثنين، وواحد الاثنين يقسمه على واحد ونصف، فيكون الواحد لأخيها، والنصف لها، وتحصل على نصيبها، ويضرب هو نصيب الأخ في جيبه، فمدة تأجير أسهم الأخ لم تنته بعد.

ولا ينسى الحاج – كل مرة – أن يسـألها علـى سـبيل الواجب: محتاجة أية خدمة؟

وتقول له: شكرا يا عمي.

ويؤكد لها حين يريد القيام: أنت تأمري.

ولم ينس – كل مرة – أن يشير – من بعيد – إلى رغبتها في بيع نصيبها، ويؤكد لها أنه أولى من غريب يـدخل بـين الأقارب، فيفرق بينهم، وينهب منهم طاحونة الأجـداد، فقـد عرفوا بها، وعرفت بهم، فأخوها المجنون حاول ذلـك فـي المرة الأخيرة، وجاء بغريب. مدعيا أنه هو الـذي سـيزن الأمور في هذه "المخروبة" وهو الذي سيكشف سرقات الحاج التي يأكلها في بطنه، ويتمسكن الحاج لابنة أخيه قائلا: أنـا الذي يأكلها في بطني؟؟ وماذا أفعل بالقرش الحرام وأنا رجل هنا ورجل في القبر؟ أنـا أخـاف الله، ولكـن أخـاك هـذا لا يراعي حرمة، ولا يحفظ للسن وقاره، فاطلبي إليه أن يلـم لسانه، لا يعقل أن يجلس غريب على ميزان الطاحونة.

وتشير ابنة الأخ بسبابتها على عينيها، وتقول لعمها بكـل الاحترام الواجب: من عيني.

وتتساءل فيما بينها: لماذا لا يأتي الحاج بالإيراد إلا حـين يكون يسري غائبا، لم يأت يوما في حضوره.. أبدا؟

وسمعت صوت موتور العربة، وجاء صوت "الكلاكـس" من الخارج، فقامت تغلق حقيبتها، وتضع منـديلها الصـغير على فمها، وتخرج من الحجرة بظهرها، وفتحت الباب الكبير لتجد يسري داخل العربة، أمام الباب بالضبط، يخرج رأسـه من النافذة الأخرى، ويزعق فـي نسـوة رحـن يجرجـرن حميرهن على استحياء جهة الحوش، والحـاج علـي فـوق الفروة مشغول بكتابة الأوراق، ولا يلتفت إلى زعيقه.

ودخلت زبيدة العربة، وصاحت في أخيها: هل.. كف عن الصراخ.

والتفت إليها بوجهه الأحمر المزرود، والعرق يتصبب بين تجاعيده الكثيرة: يعجبك هذا..

أجد النسوان وقد ربطن الحمير في قضيب الشباك والحاج قرد لا يتحرك، ولا يمنعهن عن ذلك.

وقالت له مهدئة: معاش.

وقال وهو يضرب يده المعروقة على عجلة القيادة: أيوه.. ولا على باله.. وهو يريد أن تتطربق على رءوسنا.

ومرت العربة ببطيئة أمام الحاج، وبصق يسري من النافذة بغل، وخبطته أخته على كتفه بخفة: عيب.. عمك برضك.

وصرخ الأخ بعصبية: عما الدبب.

وانحرفت العربة إلى الشارع العرضي، تطلع مرتفعاتـه، وتهبط منخفضاته، وتقلقل الجالسين على كراسيها الطريـة، ويسري يصرخ في كل عيل يمر من أمامـه ومـن جنبـه، وشخط في بائعة الكرشة القاعدة على فراشها علـى ناصـية الشارع، وقامت المرأة مذعورة، ترفع الطشت الـذي تسـبح بمائه الدامي الفشة والكرشـة والمصـارين، وتـدفع الدكـة المرقعة بمائة خشبة، أسفل الترابيزة، وتشير إليه بكف يدها: حاضر.. حاضر.. وزبيدة توترت أعصابها لانفعالات أخيها، وقالت في سرها: ربنا يستر. ويعدي هذا النهار على خير.

* * *

صهريج المياه يرتفع عاليا، فوق سيقان طويلة تنفرج من أسفل، حيث تنغرس على قواعد أسمنتية بين حشائش خضراء تناثرت في أحواض صغيرة، وتضيق كلما ارتفعـت، حتـى تصل إلى الجسد الأسطواني الهائل الذي يدور بعيدا، ويعلـو على كل العمارات المرتفعة، وتبرز منه نوافذ صغيرة مغلقة،

لا يطل منها أحد، وحول المساحة الدائرية التي تتوزع فيهـا أحواض الحشائش، ينتشر صف من "البوتيكات" التي أنشـئت حديثا، تسقط مظلاتها على الواجهات المعاق على شـماعاتها المعاطف والقمصان الرجالي، والملابس الحريمي الملونـة، و"الكمبلوزنات" التي راحت نسمة الهواء الخفيفة تهفهف فـي نسيجها الشفاف، وتتكدس على طـاولات عريضـة، أمـام الأبواب الضيقة أحذية للرجال والنساء والأطفال، وحقائب من جلد صناعي، ومن نسيج صناعي.

وقفت العربة "البيجو" على الطوار المقابل لإحـدى هـذه "البوتيكات"، ونزل يسري ليفتح الباب لأخته، وأخـذ بيـدها، وهي نزلت تلملم طرحتها على وجهها الذي كشف نور شمس الضحى شحوبه الزائد، وأحكمت وضع منديلها الصغير على فمها، ومشت تترنح على الطوار أمام أخيهـا، وهـو تأمـل عودها، ومصمص بجانب فمه مشفقا على أخته التـي جـف هيكلها، ومالت أكتافها إلى الأمام، وتسـير بخطـو واهـن عجوز، ورفعت يدها إلى اللافتة المعلقة على شرفة بالـدور الثالث، وأخفت براحة يدها الشمس التي بصت عليها فجـأة

من وراء أسطوانة الصهريج، وقالت لأخيها: اطلـع معـي لتسندني، السلم فظيع.

ودخلا من البوابة الحديد التي أكل الصدأ أطرافها، ورقـد التراب الناعم على زهور "اللوتس" الحديدية الموزعـة بـين القضبان الملتوية، واستقبلا طراوة المدخل، وأمسكت زبيـدة بذراع أخيها من عند الكتف خوف السقوط على رخام السـلم الذي انبرت درجاته من الوسط، على جانـب السـلم مكـان لمصعد معطل منذ عهد بعيد، ولم يتبق منه غيـر صـندوق مهشم، ركنت أبوابه على ظلامه المقـيم، وأمسـكت زبيـدة بحديد السلم، وبدأت تنقل قدمها درجة فدرجة، ويسري إلـى جوارها، يسير على خطوها الهين، حتى دخلا مـن البـاب الخشب الذي برز تحت شـراعته رأسـان لوحشـين فتحـا شدقيهما على آخرهما حتى بانت الأنياب الحادة على الشفتين المشقوقتين، ولمبة "النيون" تسقط ضـوءها الحليبـي علـى سيدات يرتدين السواد، قعدن على كراسي من الخشب الرقيق مدهونة بـ"لاكيه" أبيض، تعرت قشـرته فـي كثيـر مـن الجوانب، كانت النسوة ساكنات يطردن الذباب عن وجوههن، وينظرن جهة حجرة الكشف المغلقة التي قبع إلـى جوارهـا

رجل ضخم بشارب كثيف يرفع أنفه الغليظ المدفوس بين عينين شريرتين اقتربت زبيدة من الرجل الذي يرتدي القميص الأبيض المقلوب، وحادثته همسا، وظل يسري عند الباب يرقب ظهر أخته، وهي محنية أمام الرجل تدفع له الأجر، وتستلم ورقة جعلتها بين يديها وهي تحادث يسري وتطلب منه الانتظار على المقهى؛ لأنها تعلم أن عصافير مخه تزقزق من أجل كرسي الدخان على أن يعود إليها بعد ساعة.

وهبط يسري السلم ليخرج من طراوة المدخل، ويستقبل الضوء الذي لم تقدر عينه على مواجهته، فأغلقها لفترة، ثم فتحها تدريجيا ليرى المقهى المقابل تنتشر بعض كراسيه على الحشائش الخضراء القصيرة، وراء سور الصهريج الحديدي المنخفض، اشترى الجريدة من البائع الذي نشر صحفه ومجلاته على الطوار أمام مدخل العمارة، واتجه إلى إحدى الطاولات المعزولة، يظللها جدار أحد "البوتيكات"، وصفق للرجل، الذي قدم في الحال وطلب منه قهوة مضبوطة و"بوري" نظيفا، ودس وجهه بين صفحات الجريدة، يطالع العناوين الرئيسية.

*   *   *

لمحها تقف بين حديد البوابة تبحث عنه بعينيها القلقتـين، فطوى الجريدة، ودفع الحساب للجرسون، وتخطـى الحديـد الذي يسيج أحواض الحشائش، وعبـر الشـارع المسـفلت، فانتبهت إليه، وأقبلت نحو العربة تفتح بابها وهو قعـد وراء عجلة القيادة، يسوي سرواله مـن أسـفل، "ويفـك اختنـاق محاشمه"، وزبيدة ظلت صامتة، سـارحة الفكـر، مهمومـة بشيء غامض، فمال عليهـا بوجهـه وهـو يـدير مفتـاح "المارش": هه.. خير؟

فاستعادت ذهنها من سرحانه، وانتبهت إلى وجود أخيهـا إلى جوارها، فروحت بمنديلها الصغير على وجهها، ومسحت حبات العرق عن جبهتها، ونفخت من صدرها هواء محبوسا: الجو نار.

وعلق يسري على كلامها: لما العربيـة تمشـي يتلطـف الجو.

وعادت إلى صمتها، وتحركت السـيارة، لتـدور حـول الميدان، وتخترق الشارع العريض الـذي تنتشـر البـواكي القديمة على جانبيه، يحتمي في ظلها رهـط مـن الرجـال

والنساء استغرقتهم الحملقة في زجـاج "فترينـات" محـلات الأحذية والأقمشة والملابس الجاهزة، وقطعت السيارة شارع المديرية بالعرض، حيث تتجه إلى شارع الترعة الجديدة.

وحاولت زبيدة الانشغال بمتابعة مشاهد الشوارع التي تمر بها، على يمينها الرصيف الواسع الذي قعد بعض المصورين فوقه، على كراسي صغيرة يراقبـون المـارة، ويروحـون بالجرائد على وجوههم، وبعضهم أخفى رأسه داخـل كـيس "الكاميرا" الأسود، ليلتقط الوجه المثبت أمام الشاشة السـوداء المعلقة على الجدار المقابل.

وعلى يسارها رأت أكشاك الخشب التي يقبع فـي ظلهـا رجال كبار السن يحفرون الأختـام الحديديـة، أو يبيعـون التمغات أو يكتبون العرائض والبلاغـات، وبـالقرب مـنهم انتشر بائعو الطيور خلف الأقفاص التي رقد على سـطحها البط والدجاج والحمام.

وسألت زبيدة أخاها عن الصفوف الطويلة من الفلاحـين المتكالبين على طاقة صغيرة مظلمة، مفتوحة في أحد جدران المديرية، فقال أخوها متصعبا: مصلحة الجوازات.

وسألها مرة أخرى عما قاله لها الطبيب، فأجابت باقتضاب زي كل مرة.. بس طلب يشوفني على يومين وراء بعض.

- بسيطة أوصلك بكره وبعده.

- ولماذا تتعب نفسك؟

- ولا تعب ولا حاجة.

- أنا أفكر في زيارة الحاجة أنيسة أم محمد وأقعد معها اليومين.

- والله فكرة.

* * *

لفت السيارة حول ميدان "الكوبري الجديد" وصارت الآن بمحاذاة موقف السيارات وأشار يسري لسائق من البلد، يقف تحت الشمس، مرتكزا على بوز سيارته، وأقبل جهته ليسأله: تشحن البلد؟ وقال له يسري: أوصل مشوار، وأرجع أشحن. ومرقت السيارة بخفة من بين الزحام، لتدخل شارع "الحمام" الذي ينتصب على ناصيته جامع "الشربيني" العريق الذي أعيد بناؤه، فصار له مدخل رحب، مسور بسياج مرتفع من الحديد، مدهون باللون الأخضر، وصار لمدخله أعمدة مرتفعة، ونوافذ مغلقة بتعشيقات من خشب سميك، ومئذنة

نحيفة، تسمق في الفضاء، وترمـي ظلهـا الممتـد، وسـط الإسفلت، وفوق سور سكة الحديد، ولمحت زبيدة عادل يقف أمام دكانه، ساندا على الكراتين المصفوفة، ويعبث بأصـابعه الطويلة في فتحة أنفه الطويل، وانتبه إليهما داخل السـيارة، فانحنى بقامته الفارهة على النافذة، ومد ذراعه إلى الـداخل ليسلم عليهما.

وسألته زبيدة وهي ترحب به: ماما في البيت؟

قال: أيوه.. انزلا اشربا حاجة ساقعة.

وشكره يسري لأن عليه أن يوصل أختـه، ويعـود إلـى مشاويره. فهو لم يرزق من صباحية ربنا، وتحرك بالسيارة، ليدخل إلى الحارة الضيقة، المسفلتة بحجارة سوداء بـارزة، وجاهد في الدخول إلى الحارة، غير أن عمود النور الواقـف على أول الشارع منعه من ذلك.

فنفخ بغيظ، وقال لأخته: انزلي هنا.

وفتح لها الباب، وهي مدت رجلها علـى مهـل، حتـى لامست حجارة الشارع، وسارت مصعدة في الحارة المرتفعة قليلا عن الشارع العمومي، ولم تلتفت إلـى الـوراء، حتـى صاح يسري: ارجع لك بعد كم يوم؟

وأزاحت يدها في الهواء، وهمهمت بكلام، لم تلتقطـه إذن يسري.

فصاح مرة أخرى بسؤاله، فالتفت إليه بوجهها العرقـان: لما أزهق أرجع البلد.

واختفت في الشارع الضيق، وحـاول يسـري الرجـوع بظهره ليحتويه الشارع الواسع.

ودعت عند المدخل الضـوء البـاهر، والحـر الشـديد، واستقبلت الدرج الضيق الذي تلتف درجاته المثلثـة بـالتواء مفاجئ، يرهق الصاعد عليه، وعلى بسطة الـدور الرابـع، وقفت قليلا ساندة ظهرها إلى الجدار لتلتقط أنفاسها، وتضبط لهاثها العنيف، ثم دقت الجرس، وخرجت إليها ابنة العم فـي جلباب خفيف، وبيد مشمرة، تقبض أصابعها السـمينة علـى مغرفة، يلمع الدسم على حوافها، وتغيـرت سـحنة الوجـه العريض المهموم بعمل اليوم، وارتاحت ملامحه للضيف غير المتوقع، وفردت ذراعيها على آخرهمـا، فارتمـت زبيـدة بينهما، واحتضنت الصدر الكبير: أهلا.. أهلا.. مفاجأة والله.

واعتذرت عن خروجها المتجهم، حيث أنها مـن الصـبح بانتظار مصطفى الذي ذهب إلى الفرن ليحضر قفص الخبز،

وهذا اللكع لم يعد بعد، وموعد غداء سيده أزف، وهو أبـدا لا يراعي، وحكت لها زبيدة إنها في زيارة للطبيب، وبما أنها هنا، فلا يفوتها زيارة ابنة العم الغالية.

ورفعت بعض الملابس والفوط الملقـاة علـى كراسـي "الأنتريه"، وخبطت بها على تنجيدها قبل الذهاب بهـا إلـى الداخل، وقالت لضيفتها: تفضلي.

واختارت زبيدة الكرسي المواجه للباب، حيـث أسـلمت وجهها للمروحة الموضـوعة فـوق صـندوق التليفزيـون، واستسلمت أنفها لرائحة الطبيخ القادمة من الممـر المعـتم، ممتزجة برائحة الأثاث، ودهان الحـائط، وراحـت عيناهـا تتجول في المكان، فأكدت لنفسها أن الأشياء كما تركتها آخر مرة، السفرة في الحجرة المفتوحة على الصالة، يلمع مفرشها السميك في النور النحيل الساقط عليه مـن شـيش النافـذة البحرية، وكمية الضوء كافيـة لاسـتجلاء دولاب الصـيني و"الشفونيرة" الضخمة، بخشبها الغليظ ومرآتها التي انتشرت على سطحها خطوط سوداء وباب حجـرة الصـالون كـان مفتوحا، فرأت جانبا من الكراسي، وقطع الكرستال المـدلاة من الثريا الكبيرة، فوق المنضدة البيضاوية، فبعـث هـدوء

المكان، وهواء المروحة، ونفس الشـقة الأليـف، والضـوء الخفيف السكينة في روحها، فارتكزت برأسها إلى الخلـف، وثبتت عينيها في نجفة الصالة الملونـة، وعـادت الحاجـة مرحبة: يا ميت مرحبا.

ووضعت أمام "زبيدة" كوبا طويلا يمتلـئ إلـى حافتـه بعصير الليمون.

وقالت لها: بلي ريقك.

وسألتها متلهفة: بتعملي إيه عند الدكتور؟

وقالت لها زبيدة وهي تمسح جوانب فمها: بعافية شوية.

وقالت الحاجة: ألف سلامة.

واستأذنتها لتصعد إلى السطح، لتلقي نظرة على الـدجاج، لأنه لم يطعم شيئا من الصبح، ذلك أن مقصوفة الرقبة سكينة لم تأت اليوم، وأرسلت ابنها لتعتذر، وتقول إنهـا مريضـة، قامت الصبح من نومها، فوجدت جنبها وكأنمـا دقـت فيـه عشرات الأسياخ المحماة، ولعنت الحاجة – قبـل صـعودها الدرج، هذا الزمن الذي أحوجها لأمثال سكينة فالخدم صاروا ملاعين، ليسوا كخدم الأيام الماضية، أيـام كانـت تمسـك الواحدة منهن من جدور شـعرها، وتمسـح بهـا الـبلاط،

ولا تنطق بكلمة "اليوم الواحد منا يداديها، ويراعيها، ويدفع لها الأجر المرتفع، ثم تصطنع الدلع، ولا تقوم بواجبها ورأت زبيدة ظهرها العريض، وردفيها الضخمتين، وهي ترفعهما إلى أعلى بآخر ما عندها من قوة، فطقطقت بجانب شدقيها، وقالت لنفسها: مسكينة.. ها هي تعيش شيخوختها في مجاهدة عنيدة، هذه المرأة التي كانت تتمرغ في العز، لقد ودعت النعيم يوم ودعت زوجها.

ورفعت زبيدة عينيها لترى الحاج في صورة كبيرة بإطار مزخرف بماء الذهب، يقف تحت الشريط الأسود الذي يقطع أحد أركان الإطار، بجلبابه البلدي السابغ، تعلو وجهه ابتسامة حلوة مهيبة، وتلقي عيناه نظرة سمحة وطيبة، فيها وقار محسوب، أضفى عليها الشعر الرمادي وقارا على وقار، فكان في مجمله، بطوله، وجلبابه الفخيم، وشعره، وبسمته ونظرته رجلا تتمناه كل امرأة، لأنه يوحي بالحماية والاحترام. هذا الرجل الذي بدا من الصفر ارتبطت به ابنة العم وهو يسرح بالعربة "الكارو" ببضاعته في أسواق القرى القريبة من المدينة، يبيع الناس الصابون والحلوى والإبر والسكر والشاي، حتى جاءت حرب "هتلر"، وفجأة عم الخير

من كل جانب، فصارت العربة "الكارو" دكـان بقالـة يبيـع بالجملة، وامتلك المخازن الكثيرة التي تشحن فيها البضـائع من كل صنف، تحملها إليها سيارة نقل بصندوق كبير، تسافر إلى القاهرة والإسكندرية ودمياط، لتجلب السمن والمكرونـة والجبن والمشبك، وابتنى هذه العمارة العالية، واشترى قطعة أرض، حجزها للأولاد، وبعد الثورة شارك صـهره الحـاج محمد في الأرض الزراعية، التي ابتاعها من الباشا "شـديد" امتلك منها ثمانية أفدنة، ونصف العزبة، ولما رحـل – فـي هذه الليلة التي لا تكف ابنة العم عن سرد وقائعها، بعـد أن سقط في منتصف الليل عند حوض الحنفية، وجـرح جرحـا خفيفا في جبهته – تفرق الأولاد، فالأكبر يسكن القاهرة مـع زوجه التي تعمل بإحدى شركات الطيران، في شقة حجزهـا له أبوه قبل وفاته بعامين، والبنات تفرقن مع أزواجهن فـي بلاد العرب، ما بين الكويت والسعودية والإمـارات، وفـرغ البيت، فبقيت الحاجة وحدها مع ولدها الأصغر، الذي تـرك معهده ليدير محل أبيه، ويساعده حسن الطامع في خيـرهم، والولد رغم أنه لم يرغب أبدا في وجود خاله إلا أن الحاجـة أجبرته على ذلك بالقوة، فهي من جانبها تريد عينـا تراقـب

أفعاله، عينا يقظة على الولد الأهوج الذي قد يهدر اسم أبيـه في الأرض، والولد يعامل خاله كشغيل، لا أكثر، فهو يـأمره بالذهاب إلى المخازن لرفع الصفائح والكراتين، ويأمره آخر الليل باللف على البقالين لتحصيل إيراد المحل، فهو لم يقتنع أبدا، بأن هذا الخال الفلاح، يقدر على فهـم عـالم التجـارة الغامضة.

وهبطت الحاجة الدرج، وابتسمت للضيفة مـرة أخـرى، وأعادت الترحيب بها: أنت منورة. ثم انتبهت إلى أن زبيـدة لم تخلع جلبابها الأسود بعد، فطالبتها بالدخول إلـى حجـرة النوم، لتخلع الجلباب، وتخفف عن نفسها.

ودخلت زبيدة الممر الطويل، حيث لمحت الأواني فـوق البوتاجاز تطلق البخار الشهي، ويدفعها الهـواء إلـى نافـذة المسقط، ودخلت حجرة النوم في آخر الممر، علقت الجلباب على الشماعة، ونظرت إلى وجهها في مرآة التسريحة، عتمة الحجرة أخفت الشحوب قليلا، فرضيت عن نفسها، وعـادت إلى "الأنتريه" فوجدت الحاجة على الكرسي الكبيـر تضـع سماعة التليفون على أذنها، وتحادث شخصا علـى الطـرف الآخر: لا.. ما جاش.. أبعت شوف المضروب صاع فـين..

لا.. لا.. متشكرة.. ولا حاجة.. غير البطيختين، وهات معاك عنب.. سلام.

وأنامت السماعة على جهازها الموضوع في سـلة مـن خيوط البلاستيك، ودق الجرس، فتقدمت زبيدة وفتحت الباب، فرأت الرجل بجلباب متسخ ومرقع في أكثر من مكان يرفـع على رأسه المجعد الشعر قفص الخبز السخن، كان الرجـل يتصبب عرقا، وذراعاه ينتشر عليهما الشعر الأسود الغزير، يتقاطر منهما حبات عرق عكرة، تسقط على البسطة.

وقال وهو يلهث: العيش.

وأطلقت الحاجة سيلا من السباب: لسه جاي.. كنت تنـام لك كمان شويه.

ورد الرجل: اعمل إيه؟ الفرن زحمة.

وقالت الحاجة: اتنيل على عينك، اقعد على مـا أجيبلـك الغدا.

وارتاح الرجل على الممسحة الخشنة، وبدأ يمرر سـبابته بعرض الجبهة، وفوق الذقن النابتة بشـعر خشـن، وينثـر قطرات العرق على سور السلم، وضرب عينه الوحيدة فـي المكان يتأمل الضيفة التي جلسـت علـى الكرسـي عاقـدة

ذراعيها على بطنها، والحاجة غرفت من الأواني في طبـق كبير، جعلت كل الأصناف على بعضها، وأتت من الثلاجـة بربع بطيخة، ودفعتها إلى الرجل، وقالت له: أنـت والولـد "رزه".. عمك حسن حيتغدى هنا.

وأعادت غلق الباب بقوة.

وبعد قليل.. دق جرس الباب مرة أخرى، وفتحت زبيـدة حيث واجهت جرم عادل الطويل، ابتسم لها، وأحنى رأسـه ليدخل على عجل، وجاء من بعده الخال حسن يسـند علـى كرشه البارز بطيختين كبيرتين، دحرجهما في الممر، وعـاد ليسلم على ابنة العم: يا مرحبا.. هنا من زمان؟

قالت زبيدة وهي تعود إلى مقعدها: أبدا.

ورفع حسن أكمام جلبابه الواسعة، واتجه إلى الحـوض، ولأن عادل كان محنيا تحت الصنبور يبلل شعره بالماء، ركن على الحائط، بانتظار دوره، واختفى عادل بالداخل، وكان قد أخذ الفوطة معه يجفف بها على مهل، وحسن حينما فرغ من غسل يده بالصابونة العطرة، سحب منديله الكبير من جيـب الصديري، وبدأ يجفف يده السمينة، وهو يجلس على الكرسي إلى جوار زبيدة والحاجة مرت من أمامهما ترفـع الأطبـاق

بكلتا يديها، وقام حسن منتفضا ليأخذ منها أحد الأطباق: خلي عنك أنت.

وزبيدة اتجهت إلى المطبخ الذي لم يتسع لها مع الحاجة.

وقالت لها الحاجة: استريحي أنت. ثم هزت رأسها نحـو الممر، وقالت لـ"زبيدة": شفتي سيادته.. لازم يتمم عليها كل يوم في نفس الميعاد.

ولم تفهم زبيدة تماما، وهمست لها الحاجة بأن الأسـتاذ، وهي تقصد ابنها عاد مغرم ببنت الست "جي جي" وهي بنت رقيعة مثل أمها، من بنات هذه الأيام الخليعات اللائي يترددن على النوادي وصالات الرقص، وأمها لا تكف عن صـحبة الرجال من كل صنف، وكل ليلة تحيي حفلا، تدعو فيه علية القوم، ليشربوا، ويلعبوا الورق حتى الفجر، وأنا حذرته أكثر من مرة، أن هذه البنت ليست من توبنا، ولا من دمنـا، فـلا هي تنفع لك، ولا أنت تنفع لها، هي تراك نهيبة سهلة، تريـد أن تخرب بيتك، وهذا المال الذي تحـتكم فيـه، لا يخصـك وحدك، هو مال ورثة، فحافظ عليه، وهو لا ينصت إلي أبدا، كل يوم أسمع حكاية عن فسحاته معها، وسفره خفيـة كـل جمعة إلى القاهرة مرة والإسكندرية مرة.

وكادت الدمعة تطفر من عين الحاجة، غير أنها لحقتهـا، فمسحت بكمها على عينيها، وربتت عليها "زبيـدة" مهدئـة: شباب ولازم ياخد وقته.

وعلقت الحاجة، وهـي تحـاول أن تتماسـك: مغلبنـي يا أختي.. مغلبني.

وخرجت زبيدة بالأطباق، ووجدت حسن واقفا على بـاب السفرة ينصت إلى كلام أخته، وشكل على وجهـه ملامـح الإشفاق، ونظر بعطف جهة المطبخ، وقال لـ"زبيدة" علـى عجل: مجننها.. والله.

وجاءت الحاجة بقارب الشوربة الصيني الكبير، وجعلتـه في المنتصف، وحسن قام من فوره إلى الليمونة المشـقوقة، وعصرها بعنف على الشوربة التي تطلق البخـار الخفيـف، فيسبح متجها إلى لمبة "الفلورسنت" الدائرية المثبتة بالسـقف ونادت الحاجة على ابنها الذي يركن علـى سـور الشـرفة القبلية.

وجاء الولد وهو يلتفت إلى الوراء، ويشير بذراعه الطويلة لشخص لا يبين واكتملت السفرة، جلست الحاجة وزبيدة فـي صف، وجلس حسن في مواجهتهما، أما عادل فقد جلس على

الكرسي الوحيد، على رأس السفرة وبدأت الملاعـق تنقـل الشوربة إلى الأفواه الجائعة، وبدأ صوت الرشـف يتنـاوب بينهم.

قالت زبيدة: سمعت أن سنوية عمي بعد يومين.

فزام حسن ونطر يده بعيدا، وقال معلقا: خليهم يعملوها.. أنا أعملها في بيتي.

وقالت الحاجة وهي تدفع ملعقة الأرز بحذر: يمكـن مـا أحضرش.. زي ما أنت شايفة.. مفيش وقت.

وعلق حسن مرة أخرى: هم معتبرينه أبـوهم لوحـدهم، عاوزين ياكلوا خيره وكأن ما لهمش أخوات.

وقالت الحاجة بتعقل: يا سيدي.. خليهم يشبعوا.

وزبيدة تعلم أن حسن غاضب على إخوته غيـر الأشـقاء لأنهم يميلون إلى أخيه الأكبر "حسين" وقـرروا أن يبيعـوا نصيبهم في الطاحونة له محتجين بأنه الأولى، فهو يعمل بها منذ صباه الباكر، أما حسن فقد دخل منافسا لأخيه الشـقيق، لأنه طماع يريد أن يلم كل ما ترك أبوه في كرشه، والحاجة تقف إلى جانب حسن لأنه الوحيد الذي دافع عن حقهـا فـي المسقى المشترك ما بين أرضها وأرض أبيها، بينما أخوهـا

الأكبر انحاز مع الآخرين باسم أنه يقف مع الحـق وحسـن يراعي شئونها، ومقرب منها جدا، إنه لم يتأخر يومـا فـي تسديد إيجار الأفدنة الأربعة التي يستأجرها من أختـه أمـا الآخر فهو يهمل زراعة نصيبه المـؤجر، ويوزعهـا علـى الفلاحين بإيجار من الباطن وقال حسن وهو يلوك قطعة لحم كبيرة خطفها خفية من الطبق: والله إن ما باعوا لي لأطلـع عقد الفدانين الملك وأخليهم يدوخوا السبع دوخات.

وقالت الحاجة وهي تصطنع صوت الحكمة والقناعة: لا.. الفدانين ما لكش حق فيهم.. أنت تعرف أن أبوك كتبهم باسم أمنا للتحايل على القانون.

وقالت زبيدة: وسمعت أن الحاج ساب لهم عقـد.. أمـك بايعة له الفدانين.

وقال حسن: هئ.. عقد ابتدائي، ما ينفعش ببصـلة، أنـا معي عقد التسجيل النهائي.

وقالت الحاجة: احنا مش عاوزين مشاكل، بـس يـدوني حقي في المسقى وفي الأرض الفضا آخـد نصـيبي علـى الواجهة.

وقام عادل منسحبا إلى الـداخل، ونظـرت إليـه زبيـدة باندهاش.

وانطلق حسن في طعامه بحرية، وبدأ يملأ فمه بكـل مـا تقع عليه يده، ثم رفع قارب الشوربة، وراح يعب منه، وبعد أن أنهى ذلك قال مبتسما: المعالق ما بتشلش حاجة.

وقالت الحاجة وهي تمد له يدها بفخذ دجاجة محمر: بالهنا والشفا يا أخوي.

والتفتت إلى زبيدة لتقول: والله بيشقى بـس عـادل مـا بيعترفش بجميل.

وقال حسن مطيبا خاطر أخته: لسه جاهل.. لو يخلع البنت دي من دماغه.

وقالت الحاجة: والنبي لاعمل زي ما قلت.

وقال حسن مهللا: والحمد لله. اقتنعتي.

فنقلت زبيدة إليهما نظرها وعلى وجهها تساؤل مبهم فقالت الحاجة: انزل البلد يوم الجمعة، وأروح للشيخ اللـي بتقـول عليه.

وقامت زبيدة متجهة إلى الحنفية، وقالت وهـي ترجـرج الماء في فمها: آ... سمعت أنه شاطر.

وقالت الحاجة وهي تلملم العظام المتناثرة علـى مفـرش السفرة: يمكن تكون المرة دي سحرت له.

وقال حسن وهو يمصمص أصابعه الغليظة: كـل شـيء جايز.

القسم الثاني

- ١ -

لما رأى شواهد الجبانة تدور بعيدا وراء جـذوع الشـجر المنتصب على الطريق، قرأ ياسر الفاتحة – في سره – لأبيه وأمه الراقدين هناك، تحت مصطبتين متباعدتين، واحدة على أول الطريق غربا، والأخرى في الطرف البعيد، جهة البلـد وتساءل في نفسه: هل ستبقى هذه العادة أم سيمحوها النسيان؟

في كل مرة، يحاول ألا يخضع لتكرارها، ولكن ها هـو الخفقان الدافق يلاحق قلبه كلما وصل إلى هذه البقعة، هل هو الاضطراب المعتاد للقاء البلد لما يطول الغياب؟ أم لأن القلب يعلم أن الحبيبين هناك يشرئبان من عيون المصطبة فـرحين بعودة الابن؟ على كل، هو لم يستطع الهرب من تلك العادة، كما لم يستطع الهرب من عينه حين تروح تستطلع المكـان حولها، كأنما تراه لأول مرة، ها هي مداخن وابورات الطوب ترتفع في الأفق، وتتوزع مع انحناءات النهـر، وهـا هـو الصهريج يعلو الأبنية محاطا بالأشجار التي حدفها بـالطوب طمعا في ثمارها اللذيذة، والنخلات التي جمع بلحها الأخضر

صبيا. وبالقرب منه، على الجانب الأيمن من الطريق، تمـر سراعا أسوار الساحة، والمعهد الديني وجدران مسجد النصر العالية، وسبيل الماء الذي يرد عطش المشيعين بعد أن يكونوا قد واروا الأحبة التراب، ويمر بسرعة مبنى المحكمة وشونة الحب والمدرسة الثانوية، وأخيرا ها هو موقف الأوتوبيس.

فيرفع طوله ليسحب الحقيبة، ويهبط إلى الأرض، يلملـم القميص والبنطلون، يداري عينه خجلا، كمن يلتقي بالمحبوبة بعد قطيعة ظن كل واحد منهما أنها الفراق، سور سكة الحديد المبني بالدبش الأبيض مكتوب عليه أسماء يعرفها، ولم يزل يداوم الاطلاع على أسماء فريق "الأسد المرعب" الذي كـان أحد أعضائه، مكتوبة باللون الأزرق، بخط صبياني، وصورة الفدائي الملثم الذي يرفع رشاشه عاليا طلبا للثأر، لـم تـزل بخطوط يده الفضة على منحنى السور، ويتمنى ألا تـزول، لتذكره ببكارة قلبه المنهك.

أعطى ظهره للـدكاكين وكراسـي المقـاهي المزدحمـة بالرجال، واستقبل المزلقـان، ليمـر مـن تحـت بوابتيـه المشرعتين في الفضاء، وانزلق هابطـا الشـارع المسـفلت الواسع الذي كانت تقوم عليه يومـا دور عمـال الدريسـة،

وحاول ضبط الدفع اللاإرادي ليمشي الهوينى، مرتبكـا فـي خجله، لا يريد أن يراه أحد حتى يضبط مشـاعره، ويـألف عودته، ويصير واحدا من ناس البلد، أما الآن فـإن اللسـان سيتلجلج، ولن يجد الكلام المناسب، ولكنه سمع الصوت الذي ينادي: ياسر.. ياسر.

تجاهل الصوت مؤقتا، ليتأكد أن النداء يخصـه بالـذات، وسمعه مرة أخرى، فالتفت وراءه، ليجد أخاه غيـر الشـقيق حسن يتدحرج من ارتفاع المزلقان نحوه، واتجه إليه ليـوفر عنه الجهد المبذول عن اللحـاق بـه، والتحمـت الأيـادي العرقانة، وقال حسن "كنت قاعد هنا لما شفتك".

وأشار إلى المقهى الذي يبعثر كراسيه القديمة في مواجهة المزلقان.

وأجاب ياسر بارتباك: ما اخدتش بالي.

ودعاه أخوه لشرب الشاي، واعتذر ياسر لأنـه يريـد أن يغسل وجهه ويزيل عن جسمه آثار السفر، وألح حسن فـي دعوته: أشرب الشاي بعدين روح. واتجها إلى الطاولة التـي ترك عليها حسن علبة سجائره، ونصف كوب مـن الشـاي وصفق أخوه بكفيه العريضتين، وجاء حمـام مـن الـداخل

بطاقيته الملقاة إلى الوراء، وبشاربه النحيل المفتول إلى أعلى قليلا، مال بجسمه الطويل على ياسر مرحبا: أهلا بالأستاذ.

وطلب كرسي الدخان، وأصر حسن أن يشـرب قهـوة، وابتسم له حمام وقال له محركا رأسه وغامزا بعينه بحركات سرية يعرفها كلاهما: فينك يا عم من زمان.

وقال ياسر وهو يمسح العرق بمنـديل ورقـي: أبـدا.. مشاغل.

ونظر حسن إلى كليهما مندهشا، ثم ابتسم لأخيه الأصـغر كأنه كشف السر وأشعل سيجارة، ثم مال بثقل جسمه علـى الطاولة سارحا في البعيد، وعلم ياسر من ملامح وجهـه أن لديه كلاما كثيرا يريد الإفاضة به، وهو دوما يحتاجـه فـي زنقاته الخاصة، فيظهر له التودد، ويختلق الحيل لاصطياده، ليقص له عن الأب الذي فهمه خطأ حين عزم عليه بالغـداء "ويقول في وجهي علانية: وماذا بعد الغداء؟ ويحرجني أمام الرجال على المقهى، ويصرح بأنه لن يؤجر لي قيراطا مـن أرضه." أو يشكو له أمه التي قست عليه يوما وانحازت إلى الخادمة التي جلبها أبوك، وترك لها دار العزبـة، والبهـائم، والأرض، لتسرح فيها علـى راحتهـا، وأنـا حـين أردت

الاعتراض عليها، تتجرأ خالتي وتقول: هذه أشياؤنا ونحـن أحرار فيها فلا تدخل بوزك في أمورنا، وأبوك يسـمع هـذا ولا يسكتها، ثم تهينني، وتقول: أخرج من دارنا. وحين أشهد أباك على ذلك. وأسأله: هل أنت موافق على طردي؟ فيجيب بحسم: دار أولادها.. وهي حرة. وأخرج دافعا الباب ورائي، بعد أن أعلنت لهما: هذه الدار حرام علـي بعـد الآن، فـلا يهتمان، وحين أسقط في الشارع مغشيا علي، يتلم الأغراب، ولا تتحرك أمك، ولا أبي، لإنقاذي برغم أنهمـا يعلمـان أن اللمة في الشارع كانت بسبب سقوطي المفاجئ".

وكثير من مثل هذه الحكايات، يسمعها ياسر مـن أخيـه، ويهون عليه الأمر، ويطلب منه السماح، ويؤكد لـه أن أمـه لا تكرهه أبدا، وأن أباه يفضله على كل الإخوة، وهو ينظـر ذراعه بعيدا، ويقول: يا شيخ.. اسمع كلامك أصدقك.. ويقول حسن وهو مرتكز بكوعه علـى الطاولـة، يمـتص دخـان سيجارته، ويرشف بقايا الشاي. حسين عزم البنات في داره، اشترى ثلاث دجاجات بيضاء وجمعهن في غدوة، ورفضـن دعوتي لما طلبت منهن ذلك، وأنا لا غرض لي غير حق الله مع صلة الرحم.

ويقول حسن: حسين زار الحاجة فتحية ليعرض عليها بيع نصيبنا لزوجها وعرف ياسر أنه يريد الدخول في الموضوع الذي يعرف تفاصيله كاملة، ولن يبوح بها حتى يعلم أغراضه، فهو منذ أن اجتمع مع إخوته في دار الحاج علي ليعرضوا عليه شراء ميراثهم عن أبيهم في الطاحونة، وعرض الحاج ثلاثين جنيها للمتر، وطالبوه برفع المتر إلى أربعين، وامتنع الحاج، هددوا بعرض الأنصبة على الحاج حنفي العائد من السعودية والذي رفع السعر إلى ما فوق الأربعين، في سبيل تمكينه قانونيا من الملكية، وياسر يعلم أن ذلك مجرد ضغط على الحاج، فهو لا يريد لحنفي أن يدخل الطاحونة أبدا. لأنه بذلك سيحقق حلم عائلته التي تدعي أحقيتها في الطاحونة التي نهبها الحاج "محمد" من أبيهم عنوة، ذات يوم بعيد، لا يعيه الأولاد ويقول حسن: سالت ريالة حسين علي الحاجة، فهي جميلة كما تعلم، وسمعتها على كل لسان، وكلنا يعلم كيف استخدمها زوجها في سفره، وكيف فتحت له أبواب الرزق الواسعة مع الغرباء الذين يترددون على دارها، وزوجها كما تعلم يستخدمه لإغراء أخينا العبيط.

وقال ياسر: حسين أراد من دخول الحاج حنفي الضغط على عمنا.

وألقى حسن عقب السيجارة على الأرض، وتفاداها حمام حين قدم بالصينية عليها فنجان القهوة، وبيده كرسي الدخان الذي راح يطقطق ناره بشفتيه المزمومتين وأمسك ياسر بالجوزة، بينما حسن انشغل بضبط الصينية على الطاولة المهتزة، وقال: دا كلام!

وقال: المهم.. أنا مستعد أدفع في المتر أربعين جنيها. وعلى العموم أنا أولى من الغريب، وأولى من الحاج علي.

وتشجع ياسر ليقول له: لكنك لست أولى من حسين الذي يعمل بالطاحونة من صباه الباكر.. وأنا قلت للبنات، واجتمع الرأي على ذلك، سنبيع لحسين حتى لو بثلاثين جنيها.

وبلع حسن ريقه، وقال معقبا: وماله.. أنتم أحرار، كنت أريد مصلحته، فسنه لم يعد يحتمل العمل في الطاحونة، وأجدى له أن يبقى على قسمته من أرض الإصلاح الزراعي ويشتري بنصيبه من الطاحونة ماكينة ري، يسرح بها على الغيطان، وهو مشروع مضمون الربح، وكثير من الفلاحين تركوا مزارعهم من أجله، لأن رزقته واسعة.

وقال ياسر وهو يرشف وش الفنجان: وهل ترضى لأخيك البهدلة؟

وعرض عليه أن يقوم معه إلى الـدار، فهـو لا يحتمـل الجلوس هكذا، دون الاستحمام لإزالة غبار الطريق، وعرض حسن من جانبه، أن يصحب أخاه إلى داره، فهناك يسـتطيع أن يستحم بماء الدش، ويتناولان معا الغداء، وأصـر ياسـر على الذهاب إلى دار أبيه، فاليوم "السنوية" ولابـد أن يهيـئ نفسه لاستقبال المقرئين والمواسين من قبـل أذان العصـر، وسأل أخاه السؤال المفاجئ: أم أنك لن تحضـر "السـنوية". فأجابه الآخر متلهوجا: طبعا.. طبعا.

وفي الطريق، قال له: أنا موافق على بيع نصـيبي مـن الطاحونة لحسين.. والأمر لله.

وقال: أنا أراقب تحركاته من زمان، ولم أسـافر اليـوم للحاجة، وجلست على المقهى لأتابعه، وهو علـى المقهـى الآخر بانتظار مشتر لأرض الإصلاح وكان الأولى بـه أن يستعين بي بدلا من الغريب، فأنا أخلصها له بثمن مجز، لعله نسي أني عضو بجمعية الإصلاح الزراعي.

السنوية:

حسن يكره هذه الدار، من يوم أن كتبها أبوه بعقـد بيـع لأخويه غير الشقيقين ويرى أن هذه مظلمة كبيرة من مظـالم أبيه، دفعته إلى ذلك زوجه حرصا على حق أولادها وكرهها أكثر يوم أجبر على الموافقة على ترك متر يـدور حولهـا، اقتطع من حرم الطاحونة فقد فاجأوه في جلسة ودية، تجمـع الإخوة والأخوات، وتحدثوا في ذلـك، وعـرض ياسـر أن يصوت الورثة للموافقة على المتر، فوافق الجميـع باتفـاق سري تم بدون علم حسن الذي كان رفضه متوقعـا، ولأنـه رأى الجميع يرفع يده بالموافقـة، قـال: يعنـي أطلـع أنـا المكروه.. موافق.

وهو منذ طردته زوجة أبيه، حرم على نفسه دخول الدار حتى كان مرض أبيه الأخير فأجبر على ذلك، وعـاش بـين إخوته الأيام الثلاثة التي سقط فيها الأب في غيبوبته لا يفيق منها، ثم تـابع المجـيء ليحضـر "الثالـث" و"الخمسـان" و"الأربعين" وليجتمع مع إخوته، حيـث ينهـون موضـوع الميراث.

وها هو يتبع أخاه متواريا خلف ظهره، ينظر بتردد إلـى الكراسي الفارغة للمقهى المواجه للدار، وينتظر حتى يطرق أخوه السقاطة الحديد، ويفتح الباب، ويدخل وراءه من الفرجة المفتوحة فالدار لم تتعود - منذ قيام هذا المقهـى أمامهـا – على فتح الباب على وسعه حتى لا يرى الرجال حريم الدار القاعدات بالردهة الداخلية.

وسلم ياسر على أخته زبيدة أم محمد التـي أخذتـه إلـى حضنها بشوق، ولمعت عيناها بحبات من الدمع ثقيلة، انسالت ببطء على خديها الموردين، وصاح العيال في الصالة: خالي ياسر.. خالي ياسر.

فخرجت الأختان الكبريان زينب وزينـات وزوجـة الأخ الشقيق، والخالة، خرجن جميعا من الحجـرة العاريـة مـن البلاط والمفتوح بابها على حـوش العـدة، رحـبن بياسـر وأخذتهن الدهشة لوجود حسن المفاجئ، وسلمن عليه بفتور، واختار حسن الجلوس على كنبة الصالة العريضـة، وتركـه ياسر ليدخل الحجرة معهن حيث عدن جميعا لينكفـئن علـى أواني الطبخ، ورأى أنهن مشغولات بإعداد كميات كبيرة من الطعام، دل على ذلك الكرنبات الكثيرة، ووابـورات الجـاز

التي حصلان عليها من الجيران لتسعف مع نـار البوتاجـاز المركون عند نهاية الكنبة القديمة، أسفل النافـذة المسـدول عليها قطعة المشمع التي تصفي الضوء في الحجرة، وتحجز الهواء القوي.

وتحدث ياسر إليهن مداعبا: إيه دا كله أنتم حتعزموا البلد؟

وقالت الخالة: تعيش يا خويا وتفتكر.

وقدمت إليه زبيدة لتسأله: أعملك بيضتين بسرعة؟

وقال لها: أنا شبعان.. عاوزين كوبيتين شاي تقال.

وسألته الخالة: جاي بكام يوم؟

وقال لها وهو ينفض طوله: كتير.. إزاي خالي؟

قالت: والنبي امبارح قال كدا، ياسر عدى الشهر بيومين.

ومالت زينب على أذنه: وإيه عترك في أخينا؟

قال ياسر مبتسما: كان على القهوة.

وقالت زبيدة: يعني أخته ما جتش لسنوية أبوها.

وأجابها ياسر بإهمال: هي حرة.

وقالت زينات: احنا حنبيع لحسين، وحيقبضنا النهارده.

وقال ياسر: هو نفسه حيبيع معنا.

وعلقت زينب: خاله الطيب حضر.

وتركهن إلى الصالة ليكسر عزلة حسن الجالس كالغريب. يلوك دخان سيجارته لا ينتبه إلى العيال الذين تحلقوا في الصالة الصغيرة، يطلقون الصخب، ويضربون الكرة في ضلفة الباب الكبير.

وعادت زبيدة إليه: تتشطف قبل الشاي؟

وقال لها: على ما أشطف تكوني خلصتي الشاي.

ومال إلى الحقيبة يخرج هدومه المتسخة، وهي وقفت إلى جواره تجمعها على ذراعها وتطلع إليها حسن بحذر، وقال: إزيك يا زبيدة؟

وردت دون أن تنظر إليه: الله يسلمك.

حسن أراد بعد وفاة أبيه أن يتقرب إليها، ويعاملها بحنان عوضا عن أبيها فهي "وليته" مكسورة الجناح، وهي أحوج الأخوات للرعاية، وزبيدة كانت تنفر منه، ولا تميل إليه، وتتحوط لحيله التي تعرفها، فهو يقترب بطيئا ناعما كالثعبان ثم سرعان ما يخون، ويلدغ، ثم يختفي في جحره المظلم، فلا تصل إليه يد، وقلبها لا يرتاح إليه. لأنها تعتقد أن له يدا في طلاقها من زوجها الذي تقرب منه عله يحصل على لقمة سائغة، وهذه هي طريقته أبدا، ما إن يطل أحد برأسه، يظن

حسن أن وراءه شيئا حتى يتودد إليه، يحصل على مرامه، ثم يقبض على جلبابه في أسنانه، ويجري.

بعد وفاة الحاج محمد دخل عليها حسن بأكياس الفاكهـة، وبالجنيه أو الجنيهين، على فترات متقاطعة، وكانـت حـين تثور على أمها، يستضيفها في داره، ويفح في أذنها، وينفـث سمومه في صدرها، ليزيد نارها نارا، فتكره أمهـا، ولكنـه حين يفعل ذلك تزداد محبة لأمها، وتعود إليها فجأة، مشـفقة عليها، وتخدمها بعينها، ولما تكرر ذلك منه، صـاحت فـي وجهه، وبعلو الصوت: اخرج من هنا، ولا تدخل دارنا أبدا.. أنت شيطان.

وخرج حسن في التو، ولكن هذه المرة، لم يكن الأبله الذي يلقي الأيمان المغلظة بتحريم الدار، في هذا الأوان بالـذات، وانحنى للعاصفة، وعاود المجيء، فإن له حقوقا لم يحصـل عليها بعد، وهناك معاملات مع الإخـوة والأخـوات، فهـل يضيع نصيبه كواحد من ورثة الحاج؟

واستأذن ياسر من أخيه في دخول الحمام، وأجابه حسـن بأدب شديد: تفضل.. الميه دلوقت ترد الروح.

لما عاد حسان من عمله مرهقا. يتصبب عرقا، شد على يد أخيه ياسر وقبل خديه، ورمى السلام على حسن الذي تقلقل في مكانه، بينما هو يعبر من أمامه ليدخل حجرته، خلع ملابس العمل، وارتدى الجلباب الأبيض الخفيف، وانشغل بتشطيف وجهه على الحوض، وقال لياسر وهو يجفف وجهه، كنت تقدم أجازتك يومين.

وهمهم ياسر بكلام غير واضح، بان منه أنه ليس مالك نفسه، وتحكمه مشاغل العمل، ولما ارتاح حسان لنظافة وجهه، ورفع الإجهاد عن سحنته، قعد على الأرض، وخبط فخذ حسن صائحا: ازيك يا أبو علي.

وانتفض لها بدن حسن السمين، ومصمص شفتيه مستغربا.

وأهمله حسان فجأة، ومال بوجه نحو الحجرة المزدحمة بالبنات: الغدا جاهز؟ وأقبلت زوجته بالصينية الكبيرة، وضعتها على الأرض، وافترشت عليها ورق الجرائد، ثم بدأت تنقل الأطباق من الداخل، والعيال تركوا لعبهم، وتجمعوا في حلقة بالقرب من باب المرحاض.

وقال حسان: خلوا العيال لوحدهم.

وجاءت زينب بقارب الشوربة، انحنت فـوق الصـينية، تزيح الأطباق لتجعل له مكانا وسطا، وقالت لأخيهـا: احنـا حناكل جوه، والعيال معنا.

وقال ياسر لأخيه: حسن موافق على البيع.

وهتف حسان: صحيح؟ وهو ينظر بابتهاج إلـى حسـن المنكمش على نفسه بالقرب من الصينية وكأنما يريد أن يقول فلنبدأ "بإسم الله" ليس هذا وقت الكلام في البيع والشراء لقـد أزف وقت الطعام.

بعد الغداء، قام الإخوة برفع كراسي الصالون المدهب إلى الحجرة الداخلية تركوا الكنبة الكبيرة في المواجهة، وأضافوا إليها كنبتين "اسطانبولي" على الجـانبين وأرسـل الصـبية لإحضار بعض الكراسي من دار الحاج علي وجعلـت هـذه الكراسي في صفين بطول الردهة الصغيرة، وأنزلت الستارة بين الردهتين لتحمي حريم الدار من عين الرجال.

وبعد صلاة العصر، سمعت طرقات السقاطة، وفتح الباب، حيث دخل عثمان يسحب الشيخين المكفوفين، وقام الإخـوة، وأزواج البنات الذين قدموا من سـاعة، وهيـأوا للشـيخين مكانهما، أسفل النافذة المضيئة، وتربع الشيخ محمود والشيخ

يوسف على الكنبة المذهب الطويلة، وقبع عثمان على طرف الكرسي، عند الباب، يجفف عرقه بمنديله المكور. ومن حين لآخر يلقي نظرة إلى الداخل، ويضطرب أنفه لرائحة الطعام الشهي.

ودارت بعض الأحاديث التافهة، أكثرها حول عثمان ذلك الولد الذي لا يدع وليمة تفوته، وطلبوا منه أن يريهم دفتـره الصغير الذي يلقيه في عبه، حيث سجل فيه أسماء الأمـوات جميعا، وتواريخ وفـاتهم، وتـواريخ خمسـانهم، وتـواريخ الذكرى، وكل يوم يطلع على الدفتر، ويمر على أهل المتوفى ليذكرهم بالمناسبة التي قد تفوتهم ويحجز لنفسه مكانا حيـث يصحب المقرئين، وهو الذي يحفظ بعض الآيات التي تعاون في التردد على القبور، الخميس والجمعة من كل أسبوع، قد يطلب منه أهل المتوفى ترتيل بعض الآيات، لا لشـيء، إلا للضحك على صوته الأجش، وهـو لا يمـانع فـي سـبيل الحصول على ربع الجنيه أو الخمسين قرشا.

وانطلق كلا الشيخين يعاونان أهل الدار في التفكـه مـن عثمان، فقال الشيخ محمود: هذا المجرم لا يعتق وجبة قـط، خذ اليوم مثلا، حجز معنا هنا، وبعد قليل سينطلق إلى الجبانة

ليام محصولها، وبعدها عنده سنوية جماعة أبو بلال وعنـده ختمة في كفر السوق، ثم يختم ليلته للذهاب إلى ليلة سـيدي عبيد.

وسمع طرق على جانب الباب، فقـام حسـان ليسـحب الصينية من يد زوجه، ووضع فنجانين أمام الشيخين، ثـم دار بالباقي على أزواج البنات، وإخوته، وبقي فنجـان مـد لـه عثمان يده، فضربها حسان: وكمان حتشرب قهوة!

ورد الشيخ محمود مهللا: قلت لك يا أستاذ هو ما يعتقش.

وقام عثمان إلى الفنجان بعد أن أدخل منديله فـي فتحـة الجلباب، وقال: والنبي يا أستاذ دماغي مصدعة.. شوف.

ورفع طاقيته، فبدا رأسه الحليق معقـودا بمنـديل علـى جبهته. ورشف الشيخان الفنجانين. ودخنا سيجارتين، عـزم بهما واحد من أزواج البنات وبعد أن انتهيا من ذلك، راح كل واحد منهما يدعو الآخر ليفتتح التلاوة، فبدأ الشيخ يوسـف، ووقع صمت مهيب، وانسحبت الابتسامات، وتشكلت سـحن جهمة، وانعقدت الوجوه، وأخذت بالعقول تأملات عميقة فـي الآيات التي حركت الحزن الكامن في القلوب.

وبدأ الرجال يترددون، جاء الخال محمد والخال سيد وجاء الحاج علي وبعض الجيران، ثم جاء أخيرا يسري بقميصه المتسخ، تنتشر عليه بقع الشحم، هال لما رأى ياسر، وسحب الكرسي إلى جواره، وبدأ يدور بينهما همس خافت، ينقطع حين تسقط عليهما نظرة الأخ الكبير حسين المحذرة، بل إن حسن لم يتورع عن رفع إصبعه إلى أنفه ليقول لهما: هووووش.

وبعد آذان العشاء بساعة حضر المشتري، رجل في الخمسين من عمره، يرفع حقيبة سوداء تحت إبطه، ويحرسه غلامان ينظران بصلابة كي يفهما من حولهما خطورة العمل الذي يقومان به، وهو حراسة مال الأب الذي سينتقل بعد أن يخرج من هذه الحجرة، من رجل معدم لا يمتلك قيراطا إلى صاحب ملك، حصل على فدانين خالصين له، بعرق الغربة، وجهد السنين.

ومال يسري على إذن ياسر ليسأله عن القادمين.

وقال له ياسر: بعدين أقول لك.

بعدها قام ليستأذن من باقي الإخوة، وقال لياسر: أنا منتظرك.

وشق حسين الرجال ليسلم على الضيف الذي أخذته المفاجأة، وأجلسه على أحد الكراسي، ولما انتهى الشيخ محمود من القراءة، مال حسين، على إخوته، واستشارهم قائلا: أظن كفاية.

ومال على حسان: أديهم حسابهم.

ونادى على الشيخ محمود: أحسنت يا مولانا.. أختم بقى يا شيخ يوسف.

ورد الشيخ يوسف مبتسما: من عيني.

وأشار إلى كلتا عينيه المظلمتين.

وبعد أن قرئت الفاتحة للراحل العزيز ولأموات المسلمين جميعا ولكل أولياء الله الصالحين، قام الأخوال إلى الداخل، ليسألا أختهما عما إذا كانت ستأتي معهما، وقعدا قليلا مع البنات في نسمة الليل الرائقة في حوش العدة الوراني، ولم تسمح زبيدة برحيل الخالة، وقالت للخال محمد: خليها معنا يومين. ولكن الخال أصر على رحيلها.

أما أزواج البنات فقد سلما على الإخوة بأدب، ودخلا ليصحبا الامرأتين غير أن البنتين طلبتا منهما أن يرحلا، ويصحبا معهما العيال، وسيأتيان بعد قليل وسيقوم أحد الإخوة

بتوصيلهما، وخضع الأزواج لطلبيهما، وسار كل واحد منهما في طريق.

اختار الرجل كرسيا في الزاوية الضيقة وراء الباب، وقعد ولداه على كرسيين، واحد عن يمينه، والآخر عـن يسـاره، يرقبان المكان الغريب بحزم، يتنقلان بنظريهما في الوجـوه الصامتة أمامهما، ويمعنان النظر في صور الحائط، أو يلقيان النظرات المتأملة الطويلة في الظلمة المسدلة وراء قضـبان النافذة، وأبوهما دفس الحقيبة فوق وركيه، وانحنـى عليهـا قليلا، وماتت أطرافه العظيمة الجافة على جوانبها، وظل مدة يتفادى نظرات حسن الشريرة، فأخوه الأكبر لم يخبره بأنـه سيكون بين الحاضرين، وهو حين دخـل، وبوغـت بكتلتـه الضخمة المفرودة على الكرسي المـدهب، كـاد أن يرجـع بظهره، ولكنه اقترب منه بالذات، كما يقترب الفأر الفزع من القط، بعد أن عرف مصيره وأقر بأن لا فكاك، ولا مهـرب، فالمفاصل قد خدرت، والدم تجمد في العروق وأرعبته كثيرا نظرة حسن حين مد إليه يده، وقال له: أزيك يا أبـو سـالم بطريقة تهكمية تحمل التهديد في ثناياها.

وأبو سالم يخشى أن "يطربقها" على دماغه، فهو يعلـم أن هذا الذي يفعله لا يقره القانون فالحكومة لم توزع بعد عقـود الملكية على منتفعي الإصلاح الزراعي، والبيع بالباطن أمـر خطر، إذا لم يوافق عليه أعضاء الجمعية الزراعية، وحسـن واحد منهم، بل هو أخطرهم، وأبو سالم يرجـو أن يصـفو الإخوة فيما بينهم، ويرضى حسن عن هذا البيع، حتى لا يظل مهددا، ولا مانع عنده أن يعطيه ثلاثمائة جنيه نظير الموافقة وحسين هدأ باله، حين قال له: ولا يهمك.. القرشين يسكتوه.

وحسان منذ أن رحل الشيخان والأخوال وأزواج البنـات وهو يتحرك ما بين حجرة الجلوس والحجرة الداخلية، رفـع الأكواب والفناجين الفارغة، وأمر زوجته بأن تصـنع شـايا للضيوف، وأجاب على أسئلة أخواته: من هو الرجل؟ وبكـم سيشتري أرض حسين؟ وهل حقا ستوزع عليهن أنصـبائهن من ميراث الطاحونة الليلة؟

وأراحهن بالإجابة على بعض الأسئلة، ونفض نفسه منهن هربا من إلحاحهن في البعض الآخر صائحا: لسه ما تمـش حاجة.

ونبهت زينب على الأخ الشقيق: ما تسـيبش الأوضـة، واصحى لكل كلمة. زينب دائما متشككة في كل أمر، وهـي تحصى أصابع يدها حتى لو كان الذي صافحها هو أخوهـا، ومنذ وفاة أبيها، حين ترى اثنين من الإخوة منـدمجين فـي علاقة طيبة، يلعب الفأر الأبدي في عبهـا، وتـدور علـى أخواتها في بيوتهن لتعبر عن شكوكها، فمرة انضم حسان إلى حسين في جمع القطن وسمعت من بعض جيرة الأرض أنهما باعا الكثير من المحصول للتجار، خارج تموين الحكومـة، ومرة اجتمع حسين مع حسن ليوزعا أجولة الذرة التي نشرت فوق سطح دار العزبة لتجففها الشمس، ومرة حسان ذهب إلى العزبة، صباح هذا اليوم ليتصرف في كميـة مـن الحطـب والتبن المخزون بالدار، وهي في أكثر المرات تجـد آذانـا صاغية لشكوكها، وفي مرات قليلة تراجعها زينـات بطيبـة لتدفع الشك عن أحد إخوتها: يا شيخة.. حرام عليك.

ولا يستبعد بعد أن تسمع ذلك القيام بزيارة منفـردة إلـى زبيدة لتقول: شوفتي تدافع عنه، الظاهر أنها مستفيدة، فهـو لا تحلو له القعدة إلا عندها.

وفي حجرة الجلوس، فرك حسين يـده، بعـد أن فـرغ الضيوف من احتساء الشاي، وبدأ الكلام: سـمعونا الفاتحـة للنبي.

وانتشرت في الحجرة وسوسة القراءة الخفية، ورفع أبـو سالم يده عن الحقيبة للحظة ليمسح براحته على وجهـه، ثـم أعادها بسرعة لتقبض على جوانب الحقيبة المنتفخة، وياسـر وحسان قرآها بحركة الشفتين بينما الجميع كان يسمعها حرفا حرفا من لعلعة صوت حسن القوي.

وتحدث حسين عن رغبته في شراء نصيب إخوتـه مـن الطاحونة، وتحدث قليلا عن ذكرى المرحوم، وأنهى كلامـه في هذه النقطة، بأن هكذا حال الدنيا وأن لا شيء دائم غيـر وجه الله، وبأن الملكية ما هي إلا أمانة بين أيـدينا يسـلمها الواحد للآخر، والملك في النهاية لصاحب الملك.

ورد "أبو سالم" بحماس: ونعم بالله.

وظل حسن راكزا بكوعه فوق مسند الكرسي، ونفخ هواء من أنفه وأطلق تنهدة عميقة، وسأل أخاه: وبكم ستشتري؟

وذكره حسين بالثمن الذي كان قد اقترحه الحاج علي وأنه قد رفع ثمن المتر عشرة جنيهات، وأنه يظن أن هذا الـثمن

مناسب جدا، والبنات موافقات على ذلك، فنهره حسن قـائلا: تكلم عن نفسك.. لهن ألسنة يتكلمن بها. ونظر إلى أبو سـالم ليسأله: وأنت بكم تشتري أرضه؟

وفرد الرجل هيكله، وتنحنح ليسلك زوره قـائلا: بسـبعة آلاف للفدان إن شاء الله. ثم أعاد النظر إلى أخيـه ليسـأله: وأنت موافق على الثمن؟

فقال حسين وهو يرفع طاقيته ليروح بها علـى وجهـه: السعر كدا النهارده.

وقال حسن وهو يعتدل قليلا ليريح بطنه الممتدة أمامـه: بدل اللف والدوران.. طلع يأبو سالم فلوسك.

وارتاح الجميع في جلسته، وسمعت تنهدات الخروج مـن الموقف العصيب، وسمعت قدم تجري بالخارج والبنات لـم يتحرجن من إظهار أصواتهن، وصار همسهن كلامـا، ثـم استمال إلى صخب، حتى تجرأن في النهاية على الدخول إلى حجرة الجلوس ليتوزعن على الكراسـي الفارغـة، وعلـى أطراف الكنب، دون أن يشعر بهن أحـد، ورحـن يـراقبن الجنيهات الحمراء ترف في يد حسن البارعـة، ويضـحكن بخفاء على ارتباك حسان في العد، ويغمـزن فيمـا بيـنهن

ليشرن إلى حمرة وجه حسين الذي فرح كثيرا بهذه النهايـة السهلة حتى أنه مال على إحداهن قائلا: بعدما نعد الفلـوس، وأمضي العقد للرجل أوزع عليكم نصيبكم، وبعـدين نكتـب عقد الطاحونة.

-٢-

بعد أن ضربت كل بنت نصيبها في صدرها، نفض حسن جلبابه، ودس نصيبه ونصيب الحاجـة أنيسـة فـي جيـب الصديري، واتجه إلى الباب الكبير، دون سـلام أو كـلام، والشر يطقطق من عينيه، وشده بقوة وراءه حتى أن جدران الدار ارتعشت رعبا، وساد صمت اليوم علـى الحاضـرين، وتأمل كل منهم وجه الآخر، وقالت زينب: الظاهر ناوي على الشر.

وازدادت الحمرة على وجه حسين وقال متجرئا: أعلى ما في خيله يركبه.

وسحب ياسر نفسه من الجلسة، بعد أن اتفق مع أخيه على زيارة العزبة، واتجه نحو باب العدة بعد أن أعطى ما يخصه لـ زبيدة لتحفظه في دولاب الحائط إلـى أن يحـين موعـد السفر.

رفع جسمه كتلة الظلام الراقدة وراء الدار، ولفـه خيالـه حوله عن يمين وعن شمال حين سار في الظل الباهت عنـد حجرة الميزان.

دفع زجاج الشراعة، ومد يده بين القضبان، وشد الدوبارة المتصلة بترباس الباب، وكان قد رأى يسري هناك بالساحة التي بآخر الدار، يراعي نارا كبيرة، أشعلها على الأرضية، وأقبل عليه، ولم ينتبه يسري حتى رأى خياله يسقط على يديه المشغولتين بتنظيف الحجارة.

وجلس ياسر على كرسي الخشب، وفرد ذراعيه على آخرهما، ليستقبل النسمة اللطيفة التي تتخبط حائرة بين الجدران مطلقا آهة أفرغت كل هموم القلب.

قال له يسري: خلصت؟

- الحمد لله.

- شكلك يقول إنك قبضت فلوسا.

- يعني عارف!

- ودي عاوزه فهلوه.

وقام ليسحب "الدومة" من صفيحة الماء، جعل فوهة القلب تحت الصنبور، وترك الماء يندفع من الغابة ليرش تراب الأرض، فذعرت الأرانب الطليقة، وهربت بخفة إلى جحورها، وظل بعضها في فتحة الفرن ينظر بعينين واسعتين براقتين.

ويـاسر أخرج ورقة "السوليفان" الحمـراء، جعلهـا فـي راحته، وراح ينفخ فيها ويضغط عليها ليمنحها الدفء حتـى لانت بين أصابعه، وأخيرا صف القطع الصغيرة فوق علبـة الكبريت، وعاد يسري ليجمع نفسه فوق كرسي الحمام وبـدأ يردم الجمرات، ويحوطها بالتراب، ثم بدأ يسـحب جـذوات صغيرة مصهللة، ويرص الحجارة المصفوفة بين قدميه.

وقال لياسر: أتمنى لو أنهي إيجاري مع الحاج "قرد" وأبيع نصيبي مثلكم.

وقال لياسر: أنا يا عم لا بتاع طواحين، ولا بتاع أراضي، أنا رجل سواق.. بدل ما أهلك عمري في عربيـات النـاس، أشتري عربية، تكون خالصة لي، ما عـاد العمـر يحتمـل البهدلة، وكمان يا ريت تقول لخالي يسيب الأرض.

ووافقه ياسر على كل ما قال..

وحدثه يسري عن حضور أخته زبيدة، وعن طرده لسعدية وقال له إن صحة زبيدة تتدهور يوما بعد يوم، ولـم يـنجح الأطباء في توصيف مرضها بعد، وقد جاءت هنا لتجد مـن يخدمها، غير أن بنت الكلاب قليلة الأصل، تجـرأت عليهـا،

وتشاجرت معها على مرأى من زوجها، فقررت إنهاء عيشها معنا.

وذكره ياسر بكلامه الذي يردده عليه منذ أن كانـا معـا بالقاهرة: قلت لك مائة مرة تزوج غيرها لتنجب لك الولـد، فهي لا مال ولا جمال، ولا إنجاب يعني عديمة المزايا، ففيم الحرص عليها؟

قال يسري: كنت أقول العشرة.. إنما خلاص.

قال ياسر: طلقها.. خليك تشوف حالك.

- تصدق أن القسيمة في جيبي مـن يومهـا.. وخـايف أعملها.

وأخرج ورقة قديمة مطوية مـن جيـب جلبابـه، ركـن الجوزة، وأخذ يفك طيات الورقة وأعطاها لياسـر ليقرأهـا، وقربها ياسر من اللمبة المدلاة على حائط المطبخ.

وأكد ضرورة أن ينهي ذلك، في أقرب فرصة، وقال: ابن المأذون كل ليلة على المقهى المواجهة لدارنا، أنـا أشـوفه بكره، ونطلع على أبيه ننهي المسألة.

- أنا بكره راحة.. وأنا من إيدك دي لإيدك دي.

ومد له يده بالجوزة: غير الميه على ما أنظف الحجارة.

وقف ياسر أمام الحوض، وحاذر من رشاش الماء، قلـب الجوزة لينثر ماءها على الأرض، ثم جعلها تحت خيط الماء، فقال له يسري: لا.. ادفسها خلي الميه تجري فيها.

وقال ياسر: يا أخي أنا مش مطمئن لحسن.

- حيعمل إيه؟

- لا تنس أن العقد المسجل للأرض الماك معه.

- لو في استطاعته كان عمل من زمان.

- بيعنا لأخيه حسين وتنازله عن متر الـدار، وتوكيلنـا لحسين بعد وفاة الحاج يخليه يستغله ضدنا.

وطالبه يسري بأن يخلع الهموم مـن دماغـه، ليسـتمتعا بخلوتهما، وصاح فجأة بتهليلة عالية رفع على أثرها الجوزة عاليا نافخا الدخان من فمه، ومن طاقتي أنفه: ملعـون أبـو الدنيا.

فضحك ياسر لمنظره، واستقبل دوره، وبدأ يطقطق النـار بشدة حتى تناثر فتاتها على الأرض.

وبعد أن أنهى يسري ضحكه المفاجئ، ومسح الدموع عن جانبي عينيه مال عليه ليسأله همسا: فين يا عم المسائل؟

وصمت ياسر بحسرة: وتفادى نظرته، وهو يعطيه الجوزة الفارغة، وكرر يسري السؤال: إيه.. خلاص مـا عـدوش يطلعوا ورق سري؟

وأراح ياسر صدره بتنهيدة عميقة، ولم يجب، وظل متفاديا النظر إلى وجه الرجل الذي بص عليه من بين ذراعيه اللتين تنقلان الجذوات إلى البلاطة، ليقول لـه: والله تعلمنـا منـه الكثير.. فتح ضلمة الدماغ.

وكرر يسري كلمته الخالدة "كما قلت لـك، لتـرى هـذه الاشتراكية مطبقة على الواقع محتاجة لخمسين سـنة، علـى الأقل" ذلك أن يسري يعتقد أن أدمغة الناس جميعا قد أكلتهـا العتة، وخربت في السعي وراء القرش، أو كما يقول دائمـا: كيف ستلجم هذا الرجل عن غرضه، وتقول له كـف عـن التفكير في كوم اللحم الذي تحمله على كتفك، ولا تفكر فـي السفر إلى الخارج في سبيل أن تبني لك ولعيالك دارا تأويك، أو في سبيل أن تضع على جسمك هدمة نظيفة، وتطعم نفسك وعيالك لقمة لائقة، كل الناس صمموا على هدف ثابت، وهو كيف تقلع القرش من عين العفريت؟ أن تـوقفهم عـن هـذا الغرض ليطالعوا هذه الورقة أو تلك، سيقولون لك هذا كـلام

جميل، ولكنه أحلام مجرد أحلام. هذه الورقة لن تعينني على شراء تليفزيون ملون كما فعل فلان، ولن تساعدني أن أضع قرشين في البنك أستفيد من فوائدها كما فعل علان، أو لـن تقدم لي يد العون لأهيل تراب داري القديمة لأقـيم غيرهـا بالحجر الأحمر كما فعل ترتان.

وهكذا.. وكان ياسر ينصت لهذا الكـلام المحـبط، ثـم يستوقف يسري فجأة ليقول له: لكن..

فيرد عليه يسري بحسم: لا تقل "لكن" هذا هـو الواقـع، واحد عبيط مثلي سينصت إليك، وسيؤمن على كلامك، ربما لأن لا أولاد لي، أو لأني أقدر على نفسي قليلا، كم واحد في هذه "المخروبة" سينصت إليك؟ بـل قـد يواجهـك أحـدهم بالسؤال، وكم عددكم أنتم أيها الاشتراكيون؟ عشرة، عشرون، مائة، ماذا ستفعلون في هذه البركة العفنة؟

ويصمت ياسر تماما، ويدع ذراعيه يسقطان إلى جنبيـه، ويميل برأسه على كتفه ليسرح في لا شـيء، ويعـود إليـه يسري ليقول له: أنا لا أقول هذا الكلام لأحطمك.. أبدا.. أنت تعلم بأن قلبي معك.

وحين لا يستطيع إخراج ياسر من حالتـه، ويخشـى أن يكون قد أصابه الغم، يخبطه على سـاقه، ويمـد لـه يـده بالجوزة، ويقول مهللا: يا عم إن شاء الله تخرب، ولا تحمل هما.. خذ.. شد.

ويهدئ من لهجته قليلا، ويتحدث جادا على حين غفلـة: ولا يهمك ستحكمون البلد، وتؤدبون كل أولاد الكلب، لكن في هذه الحالة أرجوك لا تنسني، فأنا معك منـذ فتـرة، أقـرأ أوراقك، وأسلم لك عقلي، ومقتنع بكثير مما تقول، فلا تنسى.

ويظل ياسر عاقدا على تكشيرة وجهه المهمـوم، فيدفعـه بكوعه ليقول له بغمزة من عينه: ما فـيش ميعـاد الليلـة.. والا..

ويبتسم ياسر ويبدأ يطقطق نار الحجر، ويطلـق الـدخان على دفعات من فمه، ليأخذه الهواء غلالة زرقاء شفافة، ثـم يبدأ يمزقها بعيدا، ويلقي كل قطعة منها في ناحية، من فضاء الساحة الواسعة.

- ٣ -

قام "ياسر" من نومه على هزات خفيفة في كتفه، فرأى في ضباب نظرته النائمة زبيدة تقف إلى جوار السرير، طافـت بسمة لطيفة على وجهها الحزين وقالت له: حسين وصل.

وثنت ركبتيها على الكنبة لتدفع شـيش النافـذة المغلـق، فاندفع نور الشمس قويا يملأ الحجرة الضيقة، وسمع صـوت حسين يأتيه من الخارج: صح النـوم فقـام يمـط جسـمه، ويضرب ذراعيه في الهواء، ليفك تكبيلة النـوم المسـتحكمة وفي الصالة وجد حسين في جلباب أبيض خفيـف، وطاقيـة بيضاء من القماش ووجهه مشـرق ومضـيء، أزال عنـه شعيرات الذقن التي كانت تنتشر عليه بالأمس، وانمحى عنه الإجهاد، وصار رائقا كمن رفع عن عاتقه كابوسا ثقيلا كـان يرهقه، وزوجة أخيه كانت بحجرة الكـرار تنحنـى علـى المكنسة، وترفع الفضلات المتبقية من عمل الأمس، وزبيـدة انشغلت بالداخل لتحضير الإفطار. أكل ياسر لقمة سـريعة، وارتدى قميصا خفيفا على بنطلون قـديم، ليتحمـل غبـار الطريق، وخرج هو وحسين إلى الشـارع، كـان المقهـى لا يزال مغلقا، كذلك الدكاكين القليلـة الموجـودة بالشـارع

الجانبي، وكان السكون شاملا إلا من صياح بعـض الأولاد الذين يمرقون فجأة عبر تقاطعات الشوارع، والطاحونة كانت مغلقة، وأبوابها العريقة وقفت في صـمود تسـتقبل أشـعة الشمس الطازجة. وخرجا إلى الشارع الكبير المسفلت، ولـم يلتقيا بأحد ليلقيا عليه تحية الصـباح حتـى انحرفـا عنـد "السنترال" ليسيرا بموازاة السكة الحديد، فرأيا عن يسـارهما زينات تقف مع بناتها في شرفة البيت، يستروحن نسمة يـوم الجمعة، فصبحا عليها، وعزمت عليهما بالشاي بحرارة وود، واعتذرا لأنهما – كما تعلم – ذاهبان قبل صهد الشمس لينهيا الموضوع، ومرا على البناء الجديد الذي تحوطـه سـقالات الخشب من كل جانب، وصعدا تلال الرمل والزلط الملقاة في الشارع والتي تمتد حتى شريط القطار، وأشار حسين وهـو يتصعب: مال حكومة بصحيح.

وقال لأخيه: بلدنا حتتنور خلاص، هنا سيقام فرع للبنـك الأهلي، وفرع لصيدناوي.

وسأل ياسر: لكن البلد فيها فلوس تكفي كل فروع البنـوك التي أنشئت أخيرا؟

وأجابه حسين: أمال يا سيدي الناس مدروزة فلوس، شفت المشتري بتاع إمبارح دا كان بيشتغل عندنا بالأجرة.

وسارا في صمت بعد أن فرد حسين الشمسـية، ودخـل ياسر في ظلها، ينظر إلى الرسوم المعلقة على مدرسة البنات والعبارات المكتوبة على واجهة مدرسة التجارة التي كانـت يوما مدرسته الابتدائية، هذه المدرسة الواسعة التي أنشـئت على آخر طراز، فيها الحديقة الكبيـرة، وحجـرة لـلإدارة مستقلة، وصفان من الفصول على هيئـة حـدوة الحصـان ومراحيض ومسجد في زاوية بعيدة، وحوش واسع به جميع أدوات الألعاب الرياضية، استكثروا كل هـذا علـى الأولاد الصغار فضموهم في بيت كبير، استأجرته الإدارة التعليمية، وأطلقوا في رحابة هذه المدرسة أولاد وبنات التجارة التـي تروج حكاياتهم على ألسنة البلاد جميعا.

ولمح ياسر الخال محمد يشرب كرسي الدخان مع عمـال ماكينة المجاري الواقعة على رأس حقله، فنادى عليه، وترك الخال الجوزة، وجاء بخلعتـه الـدمور وصـدره المفتـوح، وبقدميه العاريتين اللتين تدوسان ندى الأرض، أقبـل عليـه ببشاشة فاردا له يده.

- على فين بدري كده؟

وقال حسين متجهما وهو يدور حـول نفسـه يريـد أن يستعجل أخاه، فلا يقف للثرثرة مع الخال الذي لا ينتهي لـه كلام، ومال ياسر على أذن خاله ليقول له: لا تزعل منـي.. ما على الرسول إلا البلاغ.

- اللهم اجعله خيرا.

- يسري يا سيدي يريد أرضه.

- أنا أشيلها على رأسي وأوصلها لغاية داره.

- ربنا هو الرازق.

- بس أنا الأحق على أرضي.

- بيقول أنه حيزرعها بإيده.

- هو حر.

- بيني وبينك عايز يبيعها ليشتري عربية.

- عربية تاني، نسي العربية اللـي قلبهـا فـي ترعـة الإسماعيلية.

وصاح حسين وهو ينفخ، ويضرب الحصى برجله.

- ياالله يا عم.. أنت فاضي.

وصافح ياسر خاله، وقال له مهدئا: أعدي عليك بالليـل.. لا تزعل.

وهتف الخال إليه، وهو يعود إلى مكانه: أبدا.. بس يديني حقي.

وغمغم بكلام كثير، لم تتضح عباراته لياسر ثم بدأ صوته يعلو، وهو يحادث الرجال من حوله، وعاد ياسر إلـى ظـل الشمسية وبدأ التراب يتناثر على قدميه، وحول ذيل جلبـاب أخيه، وسارا بتصميم في مواجهة الشمس التي برزت قويـة فوق العبل المصفوف في طريق السـيارات والـذي تبـدو أطرافه وراء شريط القطار الممتد إلى البعيد.

وأوضح ياسر لأخيه أن يسري كلمه في حاجتـه لأرض الإصلاح الزراعي المؤجرة للخال، وهو قد وجـد الفرصـة ليتحدث مع خاله، وقال له: يبدو أن المسكين سيتأثر بالمسألة دي جدا.

ورفع حسين يده ليمسح العرق الذي نضح علـى جبينـه: ويسري حيعمل إيه بالأرض؟

- لما سمع بموضوعنا عاوز يبيع كل حاجـة ويشـتري عربية.

- لما ربنا يسهلها وأبيع نصيبي من ميراث الأرض الملك اشتري منه في الطاحونة.

- بالك حسن ممكن يتجنن بعد ما كان طامع يلم كل حاجة أبيه يطلع من المولد بلا حمص.

وبدأ حسين يحكي لأخيه عن ذلك الطمع القديم في نفـس حسن وذلك الجشع الذي يسري في دمه، من أيام العائلة وأن السبب ميل أمه إليه، من يوم تزوج هو الغريبة، بينما ضـم حسن إليه ابنة أختها، القروية التي تعرف أصول التودد إلـى الأمهات العجائز.

وحكى له أن الأب أيضا كان يميل إليه، ويفضله عليـه، وظهر ذلك من يوم أن أسلم له أذنه، مما كـان يـدفع الأب للغضب على حسين ويتهمه بالسرقة، وحسين كان يراه بـأم عينه، وهو يرفع أجولة القمح، وزكائب الذرة عينـي عينـك ليبيعها للتاجر، ولا يقدر أن يفتن عليه، بينما الآخر كـان إذا رآه يقطع بعض كيزان الذرة ليشويها مع "المرابعين" يهـرع إلى الأب ليقول له أن حسين عمل، وعمل، وعمل.. وأنهمـا حين أرادا الانفصال والعيش في حياة مستقلة عن الأب، فاز هو بكل شيء، بل لقد عاركه من أجل صينية العشاء، وانحاز

الأب إليه، بل ميزه، فأعطاه البقرة بعجلها، ولم يعط حسين غير البقرة العجوز العجفاء التي لا يدر ضرعها اللبن ورضي بقسمته ونصيبه، وأنه حين احتاج للمال في جواز ابنته البكر، وطلب من أبيه المساعدة، تدخل حسن وقال: وهل سيعيش لنا أبونا ليجوز أولادنا؟ وعرض أن يشتري نصيبه من دار العائلة، ووافق على ذلك، فخرج حسين ليسكن في دار زوجته الموروثة عن أبيها، واستحوذ على القطعتين معا. وأنهى حسين كلامه بتنهيدة قائلا: يووووه.. أحكي إيه والا إيه؟ خليه يشبع.

وكانا قد استقبلا دور عزبة "شديد" ووصلت إليهما رائحة الخبز المحمص مع الدخان المتصاعد من طاقات الدور، وكانت الكلاب قد لمحتهما من بعيد، فأطلقت النباح عاليا، ولما اقتربا من الدور خرجت الكلاب عليهما، وحين تشممت جلباب حسين هدأ نباحها، وعادت إلى الظلال التي ترقد تحتها في سكينة.

أمام الأرض:

وقف ياسر وحيدا يتأمل المكان..

هذا هو سور الجامع الذي حاول أبوه أن يقيمه قبل وفاته، طوب أحمر، تشقق أسمنته في أكثر من زاوية ها هنا وتذكر كلام أبيه "سيكون المحراب، وسأكلف نجارا من البلاد ليصنع منبرا من الخشب، ويزخرفه بنقوش جميلة، سيكون صغيرا جدا حقا، ولكنه يتسع لرجل يقف عليه، ويرفعه إلى أعلى فيظهر واضحا للمصلين، وهنا ثلاث نوافذ قبلية، ومن هنا سنفتح بابا صغيرا يؤدي إلى الميضة التي سأجلب لها عشرة صنابير، لن أترك الناس يتوضئون بماء الترعة، كما تفعل العزب الأخرى، سأنشئ صهريجا من الصاج، وطلمبة، يتولى أحد رجالنا ضخ الماء في المواسير، وسأقيم هنا ثلاثة مراحيض، أخشى من أن رجال العزبة "المناجيس" لا يستفيدون من الجامع إلا بقضاء الطبيعة، سيجعلونه إذا تركته مفتوحا على "البهلي" مرتعا، لأنهم سيهجون من قذارة بيوتهم المظلمة، ليتمطعوا في نظافة الجامع الذي سأفترشه بحصر كبيرة."

ولم يكتمل البناء، جاء إلى الأب من قال له: من يكمل مسجدا يقضي نحبه.

ودومت الفكرة في عقل الأب، ثم قصرت يده في أواخـر أيامه، فأهمله، وتركه على هذا الحال، وأقنع نفسه في النهاية: عليهم أن يكملوه، أنا جهدي لهذا الحد، وعليهم الباقي.

وتحرك ياسر ليلمس جذع الكـافورة العجـوزة، تقشـر لحاؤها، وبان لحمها من الداخل جافا ومكرمشا، والكثير مـن فروعها جف، ونزع منه الورق، وبعضها ممدد على الأرض، ودقت به المسامير الحدادي الغليظة، لتربط بها الماشية.

كم من الساعات الطوال قضاها تحت ظل شبابها الوارف، كان يلذ له في السنتين اللتين قضاهما هنا الصعود إلى السطح لينام تحت أغصانها الخضراء الممتدة، يتمدد على الحطـب، وتستره الشجرة بأوراقها التي ترمي عليه ظلة دسمة، فكانت تجعل من هذه البقعة بالذات فردوسا حقيقيا، في عز الهجيرة تكون الأرض هناك حارة، تنفث بخارها في وجـه السـماء، بينما النسمة هنا تتحنجل حوليه بخفة وطرب.

ما أصاب الشجرة انتقلت عدواه إلى الدار القديمـة، هـل تشعر الأشياء بأصحابها؟ سقطت الدهاكة، وبانت الأحجـار الطينية، وكثير من جحور الفئران، ورغم أن قفلا أسود كبيرا أغلق على الرزة الصدئة بين ضـلفتي البـاب إلا أن الـدار

بحالها، لا تستر شيئا البتة، السقف مخلوع من أعلى، والأبواب ضعيفة هشة، أهلكتها الشمس التي تدور حولها من الصبح حتى آخر النهار.

هذا هو باب حجرة الجلوس التي جعلت يوما حجرة خاصة به، ينكفئ على "الترابيزة" الكبيرة بعد أن تشعل له أمه لمبتين نمرة عشرة، ويقعد من العشاء حتى نطقة الفجر، ثم يلمه غطاء السرير الصغير الذي وضع تحت النافذة المطلة على جسر الترعة، وحين يلم الضيوف الكبار بالدار، ترفع الترابيزة، وتفك ألواح السرير، ويركن في الردهة.

وها هي الآن قد جعلت مخزنا للتبن، ومأوى للفأر والثعبان والحشرة الغامضة. وهناك في الحجرة الأخرى التي جعلت مقرا لزوجة الأب، ما زال السلك الذي يحمي من البعوض متشبثا بآخر خيوطه في المسامير الصدئة.

وانتقل بسيره البطيء، يلف حول المكان، كمن يتلذذ بألمه، ويجرح القلب بالذكرى الحميمة، مؤملا ألا تكون هناك عين من العزبة ترقبه، فتضحك في عبها متشفية، وهو يود ألا يلتقي بأحد من أولاد هذا الرجل الذي كان يقود أهل العزبة في النزاع مع الأب على أرض الباشا، سيلحظ الأسى

في عينيه، وقد يقول له مجاملا، كما قالها يوم جاء مع إخوته لجمع المتأخر من إيجار الأرض عقب وفـاة الأب بيـومين: لا شيء يدوم.. جمعوا هذا الطين أبي وأبوك لكن ماذا أخذوا معهم في دار الحق؟ لا شيء.. لا شيء.

هذه هي "زريبة" الغنم، هكذا سماها الأب لأنه كان يحلـم بامتلاك مراح كبير، يدعه لأحد رجاله يتولى شئونه، ولكـن غنماته بعد سرحة كل يوم، هنا كانت واقعة ابنته عزيزة مع حسان، رآهما من الشباك الصغير بحجرة الفـرن، وسـمع لهاثها بين ذراعيه، وصوتها الخائف: بلاش هنا.. بلاش هنا.

وأخوه الذي كلبشته الرغبة، استمات في احتضانها، وفـي جرها إليه، إلى الركن وهنا.. وهنا.. قضى حسـان وزبيـدة ليلتهما حين عادا من البلد ليلا، ورفض الأب أن يفتح لهمـا الباب صائحا في وجهيهما: اذهبا.. إلى حيث تعيش أمكمـا. وكانت الأم في غضبة طالت أيامها، تركـت دار الأب مـع زوجه وعادت هي إلى دار أبيها.

وهنا الحوش الصغير، وسمع صوت أبيه يوم جاب أولاد العائلة جميعا، ليساعدوا في رفـع الطـوب للبنـائين فـوق السقالات "سأربي النحل في خلايا بالقرب من الزرع ينطلـق

إليه يأكل ربيعه، ونجمع عسله في السنة مرتين، نأكل منـه، ونوزع على الأهل، ونربح بالباقي فلوسا حلالا".

ووصل أخيرا إلى الشجرة الصغيرة التي غرسها أبوه في سنواته الأخيرة، بعد أن صار المكوث فـي الـدار جحيمـا، لا يطيقه بشر، لأنها هجرت من زمن بعيـد، فعاثـت فيهـا البراغيث فسادا "وصار الواحد منها بحجم الكف" هكذا كـان يقول الأب "فلا أفضل من فرشة نظيفة تحت توتـة، أعلـق عليها شربة مائي، على رأس الغيط."

وجلس ياسر لينظر إلى مساحة الأرض الممتـدة أمامـه، وجعل من كفه مظلة، فارتاحت العين، ووضـحت رؤيتهـا، فرأى حد الأرض في غبشة العبل المنتصب هناك عند حدود أرض الإصلاح الزراعي.

كم مرة انحنى فوق هذه الأرض، يكبش الكيمـاوي ويلـم غلة الرز، ويبحث عن الدودة في خطوط القطن.

كم مرة دخل بين عيدان الذرة ليجمع ورقا للماشية؟

وكم مرة سهر في الخص ليحرس زرعة الطماطم والخيار و.. و.. و.. وأحس الأرض وقد تجمعت على نفسـها، وانكمشت حتى صارت جسدا أليفا، يقعى بين ساقيه، يتمسـح

به، ويقترب في تلمس حان، وشعر وكأنـه يشـم ريحهـا، ويتسمع لأنفاسها، وهي تضمه إليه: أهلا بالغالي ابن الغالي.. ها أنت ذا تعود إلي.. ألا تعلم أني أشتاق إليك.. لقد رفعتـك صغيرا لينا بين يدي هاتين.. فلا تتخل عني..

وشعر بالدمع ينساب على خديه، فرفع يده ليمسحه، ومرة أخرى رأى الأرض بساطا أخضر، ولكن شيئا مـا يربطهـا بقلبه، كإحساسه بالبلد حين يمشي في شوارعها، كإحساسـه بأخته زبيدة تحوم حوله، وتقضي له أغراضه فـي صـمت، كشعوره بحضن أمه حين كان يرتمي عليها، فيشعر باتساعه وعمقه، وكشعوره بقامة أبيه، وسيره وسط الرجال فارهـا، وبهيا، بجلبابه الفخيم، وعمامته الوضيئة، فيستمد من وجوده الراحة والأمان، كشعوره بـ... وسمع صوت حسين فاستفاق مرة واحدة، وغاضت أحاسيسه ليرى حسين ببنيتـه الصـلبة فوق مدار الساقية، وإلى جواره رجل يتلفع بشملة خشنة، ويلم جلبابه الأسود هيكلا خشبيا جافا، فألقى نظـرة أخيـرة إلـى الأرض، وتسلق المدار ليمد يده ويصـافح اليـد الصـفراء الباهتة، وما كانت هذه اليد إلا يد "إبراهيم الفار" شيخ العزبة.

الجامع:

دور العزبة تقع ما بين الفدان المزروع بأشجار الجوافـة والليمون وجسر ترعة "المورية" تصطف هذه الدور القليلـة في قطاعات عرضية، تبدأ بمساحة مستطيلة فارغة يسـتغلها أهلها في قعدة أول الليل، وفي ركن أدواتهـم، كالمحاريـث والنوارج والطنابير، ثم باب كبير بضلفة واحدة، لا يغلق أبدا إلا على زمهريرة الشتاء القاطع، ثم ظلمة أبدية لا يظهر فيها شيء غير حزمة من ضوء الشمس، تسـقط علـى فـرن، أو على منخل معلق على الحائط، أو علـى قاعـدة الزيـر الأسمنتية.

ودار إبراهيم الفار واحدة من هذه الدور، غير أنها تتميز عنها، بهذا الصندوق الخشبي الصغير، المدقوق على الجدار عند المدخل، وهو "البريد" الذي يسـقط فيـه أهـل العزبـة رسائلهم النادرة لبعض الأولاد الذين رحلوا إلى العراق وبلاد الخليج في الأيام الأخيرة، يأتي البوسطجي مـن البلـد فـي الأسبوع مرة ليفتح الصندوق، ويدس في جعبته ما تجمع فيه، ثم يجلس على الحصير المفروش دائما أمـام البـاب راكنـا دراجته بالقرب من خلايا النحل البلديـة المصـفوفة أسـفل

الصندوق، حتى تأتي إليه زوجة شيخ العزبة بكوب الشـاي السخن، وقد يلقاه زوجها على الجسر، في أول العزبة ليقول له: لا تتعب نفسك ما حدش رمى جوابات.

وقبل أن يتجه ياسر بصحبة أخيه إلى دار "الفـار" نزلـوا عن المدار، واتجهوا إلى الدار حيث وقفوا عند الباب القـديم لحجرة الجلوس، وكان حسين قد تسلق ذكر التـوت، ونـتش منه فرعا طويلا مستويا، نزع الورقات الخضراء وجعل من الفرع "بوصة" انحنى بها تحت الـدار المهدومـة مـن أول الجسر حتى الكتف الذي يفصل حجرة الجلوس عن الردهـة، ثم قام بوجهه المزرود ليقول للفار: كده يكون عرض الجامع.

واتجه ليقيس بالبوصة عرض الدار، من أول المدخل حتى الحجرة الوسطانية المدفوس فـي طاقاتهـا كـرات القـش والخيش، ثم قام مرة أخرى ليقول للفـار: وكـدا الطـول.. معقول؟

وردد الفار وراءه: معقول.. كتر ألف خيركم.

وهمس حسين في أذن أخيه الصغير: شفت الرجل مبسوط إزاي.

وعلق ياسر بصوت عال: لازم نحقق حلم أبينا، ولو كان هذا السور الذي ابتدأه يصلح للاكتمال لكنا أتممنا بناءه.

ورد حسين مدعما كلام أخيه: هنا واجهة الجامع تكـون أفضل.

ولم ينس ياسر أن يؤكد على الرجل بأن يلصـق رخامـة تشير إلى اسم أبيه مؤسس المسجد، بعد انتهاء البناء.

دعاهما الفار ليشربا الشاي فـي داره، فـانحرفوا جهـة المدار، ثم انحدروا من الجسر لتطرق أنفهم رائحـة تخـتلط فيها روائح النوم والسباخ واللبن المتخثر، هـي رائحـة دار الفار.

ووجدا الحصير مفروشا على الأرض المكنوسة، ونـادى الفار على أهل بيته ليخرجوا مساند الكنب النظيفة، وليصنعوا الشاي للضيوف الأعزاء، وخرجت ابنته ترفع المساند علـى رأسها، وجعلتها ما بين الجدار الطيني – الذي ينهال ترابـه من اللمسة الخفيفة – وظهر ياسر وأخـوه الحـريص علـى جلبابه النظيف من التراب.

وجر الفار "المنقد" المركون على جنب، وبدأ يشعل نـارا في الجمرات الخامدة وأخرج من كيسه القماشـي صـندوق

معسل، وبدأ يملأ الحجر منه، وينفخ في النار فتصهال مـن جديد، ثم التفت إلى الأخوين ليقول: "كده أبوكم ارتـاح فـي تربته".

وقال حسين كانت أمنية عمره أن يبني الجامع ويوصـل الميه للعزبة.. الله يجازيهم وقفـوا فـي وجهـه، فعانـدت الحكومة، واكتفت بحنفية عند ملتقى الكفر بالعزبة.

وقال الفار: الله يرحمه كان شهما، علمني درسا لا أنسـاه في حياتي، لما التقينا كخصمين في جلسات المحاكم، قال لي بص يا إبراهيم وتأمل المحامين، تراهم شـديدي الخصـومة أمام القاضي، وحين ينتهون من المرافعة يذهبون معا ليجلسوا في مكتب المحامين كأصدقاء، علينا أن نكون مـثلهم، فـي الحياة أصحاب، وفي الجلسات يقدم كل منا أقصى ما عنـده ضد الآخر، وأمن حسين على كلامه: كان عاقلا وحكيما.

وقال الفار: عاندنا معه في البداية عنادا شـديدا، بعـد أن قامت الثورة، وحددت ملكيات الباشـا، قلنـا تخلصـنا مـن الإقطاع، ثم حين أراد الباشا أن يلحق نفسـه، ويبيـع هـذه القطعة قبل أن تصادرها الحكومة، وعرضها بثمن رخيص، لا يذكر، قلنا هذه فرصتنا لنصير ملاكا، وأصـحاب طـين،

فجمعنا الفلوس القليلة المخزونة في شقوق الدور، وبعنا حلى النسوان، وجرجرنا مواشينا إلى الأسواق، وتقدمنا إلى وكلاء الباشا، فعرفنا بأن الحاج قد سـبقنا، فاشـترى دور العزبـة بالأرض الملحقة بها، بحق شفعة الأرض التـي كـان قـد اشتراها في فترة سابقة، ووقع النزاع، فصرنا نحشـد لـه، ويحشد لنا.. أتذكر يا حسين يوم أن عبأ أبوك عربة نقل من رجال البلد، يرفعون السلاح؟ وزعهم حول داركم، فلبدنا لهم في دورنا، وأطلقنا الرصاصات الطائشة.

وقال حسين: كيف أنسى؟ يومها أتلـم علـي أولادكـم، وجردوني من هدومي، وأرسلوني إلى أبي عاريـا تمامـا، واستقبلني بصفعة لم أزل أسمع صفيرها في أذني.

وجاءت زوجة الرجل من داخل الدار، ترفـع الصـينية عليها البراد الأزرق الذي يحوطه السواد مـن القعـر إلـى "اليزبور"، رحبت بالضيفين، ولمت شاشـها علـى وجههـا، وقعدت إلى جوار زوجها، تجمع أطراف الثـوب الممـزق، وتنظر بعين واحدة جهة حسين لتسأل عن الجماعة، والبنات عاملين إيه؟ بخير؟ والنبي السلام أمانة.

وذكرت الحاجة بالخير، وأيامها الطيبة معها، وقالـت: إن اليوم الذي يمر لا يأتي مثيله أبدا، وذكرت الحاج بالطيب.

وقالت إن زمن الرجال الحقيقيين قد ولى.

وقام حسين وأخوه مستأذنين من الرجل، وقـال حسـين: الأرض تعتبر تبرعنا نحن كورثة جميعا، وعلـيكم بالبـاقي، لا دخل لنا لا بالطوب ولا بالإسمنت أو خلافه.

وقال الرجل بأدب جم: "كتر ألف خيركم".

وأكد عليه ياسر: إن جاءك أحدهم لا تسمع لتهديده.

وفي الطريق مال حسين على أذن أخيه قائلا بابتهاج: كدا ضمنا رجال العزبة في صفنا، وليخبط رأسه في الحيط.

عطش الصبار:

بنات الحاج ارتدين جلابيبهن السوداء، والتقين في الـدار الكبيرة، وسرن في ظلال الدور الخلفية، تفوح منهن رائحـة خفية لعطر رخيص، وأمام مبنى المحكمة، قطعـن قضـيبي سكة الحديد اللامعين، وطرقعت تحت نعالهن زلاطات صلبة، ودافئة.

واستقمن فوق إسفلت الطريق الجديد حتى انحـرفن مـع الانحناءة المفاجئة للترعة التي تترك البلد عند مدخلها، وتلف

حولها من بعيد، واستقبلن الشواهد الرابضة تحت شعاع الشمس الراحلة، ورأين الجلاليب السوداء تشغي في الشوارع الضيقة وعلى التلال الصغيرة بينها.

في الشارع الترابي الموازي للمصرف، رأين العربة "المرسيدس" ترقد تحت جذع الجميزة العجوز، والأرض مرشوشة بماء خفيف، من أول الجبانة إلى السبيل الذي دهن بجير أبيض، وجدد ماؤه، وأعيد له الحياة، بعد أن أزيحت عنه الحشرات التي جعلت من عيونه مرقدا.

وانزوت البنات بعيدا حتى حافة المصرف الرخوة، ليتفادين حلقة النسوة القاعدات على كراسي "بيلاج" مخططة، وتتوسطهن الحاجة الكبيرة، تبرق أساورها الذهبية في شعاع الشمس الأخير، وكان السن الذهبي يلمع في ظلمة فمها وهي تتحدث لمن حولها، وظهرها إلى الرخامة الكبيرة، المكتوب عليها بخط كوفي جميل اسم ولدها الذي رحل منذ عام.

زغلل بريق السن والأساور عين البنات، وتنشقت أنوفهن روائح العطر التي سحبت في فضاء المقبرة.

قالت الكبيرة وهي تلم طرحتها حول عنقها: المقابر للموعظة لا "للفشخرة".

وردت أختها: تذكري أصلهم.. الفلوس تعمي.

وسرن يجمعن ذيول الجلابيب، ويتوارين بين الشـواهد، يكتمن ما اهتاج في قلوبهن، ويتفادين النظر إلى الوراء، رغم حاجتهن الشديدة لذلك.

وقفن ضارعات بأكفهن ليهمسن بالفاتحـة أمـام مقبـرة "الحاج" وتنبهن بأن مقبرة الأب المهملة، تنتشر عليها شروح كبيرة تتسع للفأر وليد الرجل تمتد إلى ظلمتها، ورأين دهـان الزيت الأخضر الكثيف قد سقطت قشرته، وبانت الحجـارة القديمة، وانتبهن إلى البلاطة المكتوب عليها اسمه بخط ساذج تكاد تنزلق من إطارها المشقق، فـرحن يـزحن بـراحتهن الورق الجاف المتراكم فوق المصطبة، ويكنسـن بأقـدامهن وبالغصن الناشف الورق المتناثر أمام العين. واخترت مكانا بين السور القصير، وحاذرن ألا يضغطن عليه بظهورهن.

وقالت واحدة: لم يهتم واحد من الأولاد بتجديد "تربة" أبيه.

فردت الأخرى: لحس الميراث عقولهم.

وقالت الكبيرة: أكثر من مرة أقول لهم فليساهم كل واحـد منا بجزء من نصيبه لنرمم مقبرة "الحاج".

ومصمصن بجانب أفواههن، ثـم قعـدن فـي سـكون، رءوسهن على أيديهن، وعيونهن ترنو للحشرة الزاحفة على بطنها بالقرب من الفتحة.

وطلعت عليهن أم قاعود بهيكلها الناحل، تسـتره خـرق ممزعة من جلباب أسود كالح، جعلت عقدته الكبيـرة علـى ناحية، فبانت سيقانها الجافة، وكانت بمجملهـا بهيئـة جثـة خرجت – على غفلة – من إحدى الفوهات المفغـورة التـي لا نهاية لظلامها.

أقبلت ترفع صفيحتها المطبقة من كل الجوانب، فرفعـت شاشها الساقط على كتفها، ونشـرته علـى فـرع الشـجرة القصيرة المائلة على مقبرة "الحاج" واتجهت إلـيهن فاتحـة ثغرها المظلم: أهلا بالغاليين.

وانحنت على رأس المصطبة تقبلها: أبـوي الحـاج أنـا لا أهمله أبدا.

وسحبت المكنسة من تحت الإبط، وبـدأت تكـنس فـوق المصطبة، ونزلت إلى الأرض، تلملم الورق المتبقي، وتنظف حوض الصبارة الوحيدة بالقرب من العين المسدودة بالحجارة والطين.

وسمعت البنات حديثها إلى نفسها وهي علـى انحنائهـا: وهل نعوض أمثال هؤلاء الرجال، انقضى زمـنهم والأجـر على الله، لم تعد العين تقع على رجل حقيقي يقشعر الجسـد لمنظره.

وحركت البنت الصغيرة يدها إلى صدرها لتجر الصـرة، وسحبت منها عشرة قروش فضية، جعلتها في كفهـا حتـى تنتهي المرأة من عملها.

وعادت أم قاعود بالصفيحة ملآنة على آخرها بماء القناة القريبة، وأمالتها على حوض الصبارة ليسيل مـاؤه دون أن يخلخل الجذر الهش، وأدارت إلى البنات وجههـا العرقـان لتقول: وهل أنساه؟! أيام كنت أذهب إليه بكيسي فـي جـرن القمح، وينادي علي.. تعالي يا نفيسة تعالي، ويملـؤه علـى أبيه.

وأشرقت وجوه البنات، وبـدأن يـرفعن الطـرح عـن وجوههن، وينصتن إلى كلام المرأة التي قعدت قبالتهن على المصطبة المجاورة، ومدت الوسطى يـدها إلـى صـدرها، لتخرج ورقة لم تنظر إليها، وأخفتها تحت فخذها: تصـدقوا بالله.. أنا لم أخبر أحدا بهذا قبل اليوم، كان المرحوم – ربنـا

يجعله في نعيمه ويوفق له أولاده – يمر علي كل رمضـان، في هدوة الليل، ويقف جنب شباكي، ويطرق حديده بعكـازه، فأبص بين القضبان أستطلع الطارق، فـإذا يـده المبروكـة مطوية على "اللي فيه النصيب" ويخفي وجهه فـي العبـاءة عني، ثم يدخل في ظلمة الحارة، حتى لا أعرفه، ولكن كيف أتوه عن وجهه؟ اليوم يصفوننا في طوابير أمـام دكـاكينهم ليرانا "اللي يسوى واللي ما يسواش" لنكـون فرجـة للبلـد، وتصير فضيحتنا بجلاجل، إنهم لا يريدون وجهه، عيـونهم على العبد.

وتضيق حلقة البنات، ويمسكن أطراف الطرح ليـروحن بها على وجوههن التي وردها الاضطراب، وتفرد الكبيـرة صرتها في حجرها، وتختار ورقة من لفة الفلوس وتطويهـا في يدها.

وتواصل المرأة حديثها: كنت – ألف رحمة ونور علـى روحك يا بركة – أذهب إليه في الطاحونـة بكيلـة الحـب، وبصرة الحلبة، فلا يقبل أن أرفعها على الميزان أبدا ويدفعني في ظهره، ويقول، أدخلي يا نفيسة ادخلي. ويشير إلى الرجل

القاعد أمام القادوس، ويأمره "شف اللي عاوزاه وأنا أجيب لك النمرة".

وسمعت من يناديها عند شجرة الكافور العالية، فهرعـت إلى طرحتها لتلقيها على عجل فوق كتفها، وسحبت الصفيحة التي أفرغت ماءها، وأعادت ضبط المكنسة تحت الإبط.

واستأذنت من البنات، فقمن جميعا مرة واحـدة، يلقمـن قروشهن اليد المعروقة وهي تتلوى وسطهن، تبحـث عـن مخرج، وسط الحلقة المحكمة: خيركم سابق.. يا حبـايبي.. خيركم سابق.

والبنات ضغطن عليها، وأجبرن أصابعها لتقـبض علـى القروش، وصحن وراءها: لما تشوفي أحـدا مـن الشـيوخ ابعتيه.

ورت عليهن، وهي تقفز كعنزة ضامرة فوق المصـاطب: حاضر.. من عيني.

وقالت لها الكبيرة: لما تعوزي حاجة عدي علينا.

وسمعن "كتر خيركم" من بعيد، وهي مشـغولة بتنظيـف المصطبة التي مال عليها ظل الكافورة الممدود.

ووقفن يترقبن مرور المقرئين، متحررات من أغطية الرأس، وتجرأن على فتح صدورهن ليستقبلن هبات النسيم الذي انطلق من مكمنه.

بعد أن زالت حرارة الشمس، وانسحبت إلى أطراف السماء الملامسة لجريد النخيل البعيد، نظرن إلى مدخل الجبانة فلم يرون إلا السواد يشغي بين المصاطب والأسوار التي مدت ظلها.

وقامت الصغرى إلى الشجرة القصيرة، وقصفت منها غصنا أخضر وألقته بحنو فوق مصطبة الأب.

- ٤ -

استيقظ ياسر من نومه على صوت أخواته بالصالة، فقـام إلى النافذة، ودفع شيشها إلى الوراء، وفوجئ بالظلمة التـي انسحبت من تفريعات الشوارع، وحطت في حوش الحميـر، فحجزت حجرة الميزان، والحوائط القديمة للطاحونة، وبـاب "العدة"، وفوجئ بأن مصابيح النور بدأت تبزغ على امتـداد الشارع، وتوزع بقعا من الضوء الأصفر حولها، فقال لنفسه: ياه..

وخرج إلى الصالة يرفع ذراعيه إلى أعلى ويخفضهما إلى أسفل، ويلوي قامته ليا شديدا حتى سمع طرقعـات الجـذع، وأحس بانفراد عضلاته، فشق لمة الأخوات الموزعات علـى الكراسي، واتجه إلى الحنفية لينعش وجهه بالماء، وتردد قائلا لنفسه: آخذ "دش".

وسمعهن يتحدثن عن الحاجة أنيسة التي رأينهـا – فـي عودتهن من الجبانة – عند موقف السيارات عائدة من زيارة حسن، وقلن إنها انحرفت بوجهها بعيدا، وهي جالسـة فـي الكرسي الأمامي لسيارة الأجرة، وحسن ينحني عليها يحادثها

في أذنها، واندهشن من هذه الزيارة، وعبرت زينب عن شكوكها: يا ترى بيدبرونا إيه؟

وقالت زينات: يعني ما تحضرش سنوية أبيها، ولا تتكسف من نزول البلد بعدها بيوم.

وقالت زبيدة: على يدك.. أبوها كان بيموت ولم تزره، وحضرت العزاء على سبيل الواجب.

وتحدث إليهن ياسر مطمئنا: وماذا يمكن أن تفعل هي أو حسن؟

وحكى لهن عن زيارته للعزبة مع حسين، وكيف أنهما حسما موضوع الجامع وحددا المساحة المطلوبة، وكيف هال لذلك شيخ العزبة، فلن يكون بمقدور أي منهما المطالبة بواجهة الأرض، وأنهم ضمنوا أهل العزبة عند اللزوم، وسعدت البنات لهذه الأنباء.

وتركهن ياسر ليدخل الحمام، وبين رشاش الماء، كان يسمع أصواتهن الغاضبة تسب هذه الأخت الجحود، والأخ الطامع الذي لا يكف عن تحريك جمرات الشر كلما خمدت.

وبعد أن أرتدى ملابسه النظيفة، خرج إلى المقهى المواجه للدار، فاختار كرسيا فوق الرصيف المرتفع، وركن عليه

كوعه، مسلما وجهه للهواء الذي يركض من شـارع الفـرن الضيق إلى فضاء الشارع الواسع.

وبعد فترة قال لنفسه: ابن المأذون لم يأت بعـد، اشـرب كرسي الدخان مع الخال، وأعود إليه.

وفي الطريق تذكر أيام المجد، قبل أن يضموا له الكنبتين، تحت النافذة المفتوحة على الشارع وقبـل أن يرفعـوه مـن حصير الأرض الذي يوجع العظام العجوز، ويحيطوا جذعه بالمساند، كان يشتري "باكو" المعسل كل ليلة، ويدخل عليـه، وكان الجد يحفظ مواعيده، فحين يدخل يلتفت إليـه – وهـو لا يراه – ويهتف باسمه كطفل، وتكـون الخالـة مفترشـة الأرض تحت قدميه، تزود شعلة المصـباح المعلـق علـى الجدار، وتهم بسحب الموقد من تحت الكنب ومعه الصـينية عليها عدة الشاي، "تدلق" الجاز على القوالح، وتشـعل نـارا صغيرة تسوي بها الشاي، وتـدفن البـاقي تحـت الرمـاد، لتستخدم جذواته في رص الجوزة التي يقوم ياسـر بتغييـر مائها من الصنبور القريب من الباب الكبير، ويمسـي عليـه الخال الذي يكون قد عاد من حقله، وشطف وجهه، وارتـدى

الجلباب النظيف خارجا إلى المقهى على أول الشارع، فهو لا يجرؤ أبدا على شرب الدخان أمام أبيه.

انحرف إلى الدكان الموجود على الناصية، ووجد صاحب الدكان على الكرسي، فوق الرصيف، لما رآه، وقف ليسـلم عليه، ثم دخل من تلقاء نفسه، ومد يده إلى الرف، وسـحب ورقة الدخان، أخذها ياسر وسأله: كيـف الأحـوال؟ قـال: نحمده.

قال في نفسه: ضمنا "درج" واحد، ها قد ترك تعليمه، بعد أن مات أبوه، ليفتح الدكان، ولو جلست معه الليلة سـيحدثني عن أحلامه التي لم تتحقق، وسيلغي الزمن والبلـد الضـيق الذي لا تروج فيه تجارة.

تركه لينزل إلى الشارع، رأى النور يخرج من المضـيفة عرف أنهم يكملون العزاء لميت من الحي، فأقرباء المتـوفى يصطفون عند المدخل، ونحنحات الشيخ تهيـئ الميكرفـون للتلاوة. قال في نفسه: لن أمر عليهم.

دخل الشارع الصغير، عن يمينه، وكانت النسـوة علـى عتبات الدور يتبادلن الحديث، تجاهلهن وسار فـي طريقـه المظلمة، ثم تجاهل أصحاب المآتم المصطفين في مسـتطيل

النور، دفع باب الدار المواجهة للمضيفة، عبر بقعة الماء بالقرب من حوض الحنفية، ونادى بصوت مرتفع، وكان قد سمع الأصوات تأتي من حجرة الخال، والدخان كان خارجا من أعلى الباب إلى فضاء ما بين الحجرتين المبنيتين بالطوب الأحمر والزريبة المبنية بالطوب النى.

برزت رأس البنت الصغيرة من فتحة الباب، وصاحت: الأستاذ ياسر.

وسمع صوت خاله يقول: أهلا وسهلا.

عند عتبة الباب رآه وزوجه يقفان بانتظاره، والغريب الجالس معهما على الحصير، ركن الجوزة، ووقف يبتسم له: أهلا.. أهلا.

ولمح خالته جالسة في حجرتها وحيدة فوق الكنبتين المضمومتين، أسفل النافذة التي يتسرب منها صوت المقرئ.

قال لهم: أسلم على خالتي. قال الخال: واجب.

عبر العتبة العالية، ومد يده إليها: إزيك يا خالة.

رفعت يدها من تحت الغطاء الملموم على خصرها: نحمده.

سألها: مالك؟ قالت: أبدا.

كانوا يقفون فوق الحصير بانتظاره، قبل أن يسلم علـيهم شم رائحة طبيخ مختلطة برائحة المعسـل، قـال الغريـب: يا مرحبا.

ولم يستطع أن يمد يده إلى أولاد الخال الراقـدين علـى السرير يطالعون كتبهم، فأشار إليهم بيده من بعيـد، فـردوا على تحيته بحياء.

وقال الخال: تفضل. ومسح بكفه المشمع المنشور علـى الكنبة، فقعد على الطرف.

قال الخال: أقلع الجزمة وربع.. قال: خليني في الهوا.

قالت زوجة الخال: "السقسيقة" عدت على دارنـا عرفـت أنك حتزورنا الليلة. حين سقط الشال عن وجه الغريب، تأمل ملامحه، قال في نفسه: لقد صار رجلا، له شارب، ويلـبس الجلباب النظيف. هو ابن ذلك الرجل الذي أمسك لنا العصا، وقادنا في خطوط القطن، نجمع الدودة، كان أبـوه يحبنـي، ويقربني إليه، يجعلني أقـف وراء ظهـور الأولاد المحنيـة لأشرف عليهم، وكان يأخذني – آخر كل شهر – إلـى داره، يضع أمامي "الطبلية" الصغيرة، عليها لمبة الجـاز، ويجمـع الأولاد بالردهة وينادي عليهم اسما اسما، وأنظر أنـا إلـى

الدفتر، وأعمل علامة "صح" أمام الاسم، وأعد له القـروش المكتوبة بخانة الأجر".

ابتسم الغريب بخجل، وقال: أظن ما تخدش بالـك منـي يا أستاذ؟

قال: أنت "العربي".

بدت السعادة على وجهه، وقال: الله ينور عليك.

طلب الخال أن يواصل الرص، فسأل العربي: والأستاذ له في المعسل؟

قال: طبعا. وأخرج ورقة الدخان من جيبه، وألقاهـا فـي حجر الخال، فانتفض الخال فجأة: الدخان كتير. قال العربي: أرص لك كرسي "قص"؟

قال: أدخن "باكو" قال العربي: جوزة خالك عليلة.. أجيب لك جوزتي.

قال: لسه حتروح؟

- بانط من الحيطة على دارنا.

ضحك الخال: زي الجن.

ركن العربي الجوزة على الدولاب، وقبض علـى ذيـل جلبابه بأسنانه، ونزل من المرتفع الذي تقام عليه الحجرتان،

أخرج رأسه ليتابعه، فاستراح للنسمة الخفيفة التي لامست وجهه، رآه يتسلق ظهر الفرن، ليخرج من العشة إلى حائط داره المجاورة، لمح الخالة على وضعها بين الغطاء ساندة رأسها على كفها، وزوجة الخال سحبت الوابور من تحت الدولاب، وراحت تكبسه، فخرج خيط رفيع من الجاز، بلل رأس الوابور، ثم حكت عود ثقاب في جانب العلبة، وألقته فوق الرأس المبلل، وأعطت البراد للبنت الصغيرة لتملأه، والخال سحب القوالح من تحت الكنبة، وكدسها فوق الوابور فازداد وهج النار، وفكر في الخالة التي كانت – بعد وفاة الجد – تتلهف لرؤيته. فتترك حجرتها لتقوم هي بإعداد الشاي والدخان، وتحكي عن أيام أبيها التي لن تعود، ويلاحقها الخال كمن يردد مقاطع الأذان عقب المؤذن: الله يرحمه.. الله يرحمه. أمال رأسه إلى الخال، وهمس في أذنه: خالتي زعلانة؟

عدلت زوجة الخال الشاش على رأسها، فشخللت أساورها، قالت: لا.. أبدا.

سألها: ما جتش تقعد معنا؟ قالت: بتسمع القرآن.

قال الخال: الواد العربي عفريت.

قال له: لم يكن صاحبك. قـال الخـال: طـول عمرنـا أصحاب.

وكانت زوجة الخال تتابع الحوار بأذنها، وهـي منكفئـة على الوابور، وقال الخال فجأة: بص يا سيدي بالنسبة ليسري لن أعمل معه مثل الأغراب وأطلب خلو.. بس يديني حقي.

- أنت مسجل كل حساباتك في ورق؟

- لا ورق ولا يحزنون، هو بيكتب أولا بأول.

- وما المانع أن تقعدوا سوا؟

- لا.. بيني وبينه ربنا.. أنا لا أعرفه.. كفاية.

وعاد العربي يلهث ومعه جوزة نحـاس، قـال: شـوف يا أستاذ. قال: ماشي.

قال العربي: شوف الغابة. قال: غير ميتها.

وأشار لواحد من أولاد الخال: أفتح الشباك يهوي.

قال الخال: قفلناه علشان الميكرفون.

- ابعته لك بكره تتفاهموا سوا.

- أقفل على السيرة دي دلوقت.

لما عاد العربي بالجوزة يقطر الماء من أسـفلها، وبقـع الماء انتشرت على جلبابه، قال للخال: الحنفية خربانة. قـال الخال: بكره أصلحها.

جلس مكانه بين السرير والدولاب، جمع طرف جلبابـه، فظهر سرواله على سيقان نحيلة، أغلـق ضـلفة الـدولاب المفتوحة، فاختفت الهدوم المبعثرة على الأرفـف، خبطـت زوجة الخال يده وسحبتها بنعومة وبطء، وقالت: سيبها، مـا بتتقفلش.

ابتسمت له، فقال العربي وهو يخبطها على كفها: حاجتكم كلها خربانة.

ونظر إلى ياسر منتبها بعد فوات الأوان.

قال الخال: عاوزه مسمارين.

قال العربي: أديها مسمارين.

وأراد أن يغمز بعينه ناحية زوجة الخال فانتبه إلى وجود ياسر.

وقف ابن الخال على السرير يمط جسمه، وقـال: أروح أشوف المسلسل.

سأله أبوه: خلصت الواجب؟

- خلصت.

قام أخوه وراءه، وبكت البنت الصغيرة، فـدفعتها أمهـا غاضبة. في داهية.

سأل ياسر: اشتريت تليفزيون يا خال؟

رد العربي: بيتفرجوا عندي.

قال الخال: عنده كل حاجة.

قال العربي: البركة في الجري.

سأل ياسر: جري؟

قال العربي: ما خليتش بلد.

ضحك الخال، وأمسكه من فخذه، ثم أدار وجهه: بقول لك عفريت.

وقالت زوجة الخال: هو قعيدة زي ناس.

ومدت يدها بكوب الشاي إلى "ياسر" رفعـه إلـى فمـه، فتحركت بطنه لرائحة الجاز وشعر أنه لن يقدر على شـرب الدخان معهما، فقام فجأة ليقول للخال: زي ما اتفقنا.

الطلاق:

لما عاد ياسر مرة أخرى ليقعد علـى رصـيف المقهـى المواجه لداره، سمع من يطلب له الشاي من جانب الشـارع،

فمال نحو الجدار ليستطلع صاحب الصوت، كان حسان بـين مجموعة من الأصدقاء بينهم ابن المأذون وصاحب المقهـى بالصديري والسروال الطويل، يقع أمامهم، يحرك المصـفاة في الهواء، ويرص طقم الحجارة الملقى على الأرض، فرفع الكرسي، واتجه إليهم.

دخن معهم الحجرين المتبقيين من الطقم، ثم مال على ابن المأذون: عاوزك في موضوع.

- أنت تؤمر.

ثم طلب من حسان أن يصحبهما في مشوار بسيط.

- ماشي نشرب كمان طقم.

واستأذنهما على أن يعود بعد دقيقة.

شد دوبارة الباب، ونادى على يسري فخرج إليه من ظلمة الحجرة بالفانلة والسروال، يدعك عينيه متجها إلـى مفتـاح النور، فوضحت بلاطات الصالة وجـدرانها، فأقبـل عليـه ليكلمه: فين القسيمة؟

- في جيب الجلابية.

وأمره ياسر بإحضارها حيث إنه عثر على ابن المـأذون، وهو الآن على المقهى، وعليه إذا كان جادا أن يقطع عرقـا

ويسيل دما، لأنه إذا تقاعس فلن ينهي هذا الموضـوع أبـدا، وقال له يسري: لا.. أنا جاي معاك.

وأدخل هيكله النحيف في الجلباب على عجل، ثم نثر من ماء القلة على وجهه، وسار معه في الشارع وهـو يجفـف تجاعيد وجهه بالمنديل.

وقفا عند نهاية سور الطاحونة ينظران إلـى الماشـيين، ويرقبان المقهى من بعيد، وشد يسري ذراع رفيقه على غفلة صائحا فيه: بص.. بص.

وأشار إلى امرأة تلبس الجلباب الحرير الأسود، جسـدها القوي المدملج يتلقى تيار الهواء الذي انـدفع بـين طيـات الثوب، فأظهر الفخذين المدورين، وتكويرة البطن، والسـرة والنهدين البارزين، والمرأة كانت مشغولة بضـبط الطرحـة الخفيفة التي كادت أن تطير عن رأسها، بيد بيضاء تشـخلل أساورها الذهبية البراقة في نـور المصـابيح، ثـم انتبهـت للرجلين الواقفين ينظران إليها بانبهار، قال يسري بحسـرة: عاوز حاجة زي كدا، تتحملني وترمي لي عيلين حلوين.

وقال له ياسر وهو ينظر إلى وجهه المهموم: تقل جيبك.

وواصل يسري كلامه، ولم يرفع عينه عن ظهر المـرأة، وردفيها الكبيرين اللذين يرفعان الثوب: دي الهنا كله، تقلـب فيها طول الليل على راحتك، لا تقول بطني ولا جنبي.

وتركه ياسر ليشير إلى ابن المأذون الذي قدم إليه بصحبة حسان وبدأ ياسر الكلام قائلا: الموضوع يا سيدي فيه طلاق.

فهتف ابن المأذون بذعر مفتعل: أعوذ بالله.

وتبرم حسان كأنما يريد أن يعود إلـى جلسـته، بعـد أن كشف الأمر، وسأل ابن المأذون: طلاق مين؟

فأكمل ياسر حديثه: يسري يريد تطليق امرأته.. وبعـدين أوضح لك.

فانبرى يسري إليه: ولا توضـح ولا يحزنـون.. أبـدا.. عاوزين نخلص من الخرابة اللي عشت عمري فيها، ونجيب قمر ينور الدار، ويبدرها ذرية، العمـر مـا عـاد يحتمـل صرمحة.

وقال ابن المأذون بخضوع: أنا تحـت أمـرك.. آخـدكم للحاج.

وسأل "يسري" بحسم: قبل ما نروح للحاج.. حياخد كام؟

- أبدا.. عشرة جنيهات.

وأخرج يسري بعض الجنيهات من جيبه، وورقة القسيمة، ودفسها في جيب ابن المأذون: سبعة جنيه، وحلاوتك عندي، وآدي الورقة.

وانسحب حسان بعيدا، وقال: ارجع أنا.

فشده ابن المأذون من ذراعه: عـاوزين اتنـين شـهود والبركة فيك أنت وأخوك.

ساروا في الشارع حتى قطعوا الطريـق العمـومي، ثـم انعطفوا يسارا، فوق الطريق المسفلت المتجه إلـى النهـر، مارين على المساكن الشعبية، وبيت المـأمور، والمدرسـة الإعدادية ثم انعطفوا مرة أخرى يمينا، فنزلوا إلى الطريـق المترب، وعبروا أمام الحنفية العمومية، ثم ساروا على جسر الترعة الضيقة، واستقبلوا مقام "الحاجة آمنة".

عبروا القنطرة الصغيرة التي تحجز الحمار المنتفخ السابح في ماء الترعة القليل، فسدوا أنوفهم بأصابعهم، وسبقهم ابـن المأذون ليدخل الدار الصغيرة المقامة ما بين الجسر والمسجد الملحق بالمقام، وقال لهم قبل أن يصعد العتبات: انتظروا أنده عليه.

واتجه يسري نحو المقام، ووقف تحت نافذته الكبيرة التي يبدو من وراء قضبانها النور الأبيض الباهر الساقط على أطراف المقصورة، بدأ شاهد الحاجة آمنة بين زخرفتها بحريره الأخضر، ورأسه المعصوب بشال حرير أبيض، يلمع الترتر من جوانبه، ويفوح العطر من أركانه، وقف يسري فاردا كفيه مرددا الفاتحة بصوت خفيض، وباستغراق حقيقي، أنساه رفيقيه اللذين وقفا خلفه، يرقبانه بدهش، والتفت إليهما باسما بعد أن مرر راحتيه على وجهه: واجب برضك.

ثم أمسك ياسر من جنبه، وقرصه مداعبا: دي بركة البلد. وسمعوا نداء ابن المأذون فعادوا إليه، وسبقهم إلى الداخل ليفتح الحجرة بالدور الأرضي، أضاء مصباحها المدلى من السقف، ففرش ضوءا مريضا، أظهرهم كأشباح باهتة صفراء وراح ابن المأذون يفتح النوافذ، فانطلق في الحجرة هواء حرر ركودها. وأزال النفس القديم المستقر بين جدرانها الضيقة، واستطاعوا أن يلمحوا عمائم الصور المبعثرة على الحائط، تطل من تحتها وجوه كهلة، تتسع عيونها بين اللحي السوداء الكثيفة لتحملق في الناظر إليها بإلحاح.

ونفض كل واحد منهم مكانا على الكنبات الموزعات، ثـم ثبتوا نظرهم على المكتب الذي اتضح فجأة بعد أن أضاء ابن المأذون أباجورة عتيقة، انخلع رأسها، وتدلى سـاقطا علـى عمودها الصدئ، بين كتب كثيرة صفراء، تـراكم عليهـا الغبار.

وسحب من الدرج منفضة مصنوعة من شرائط القمـاش، وحركها بحذر فوق الكتب، وعلى رأس الأبـاجورة، وفـي المساحة الفارغة جهة الكرسي الموضوع على قاعدته حشية منتفخة. وسمعوا نحنحة الحاج في الصالة، فتأهبوا لحضوره، ودخل عليهم بجرمه القصير، يلملم أطراف القفطان اللامـع، ضيق عينيه، وتأملهم واحدا واحدا وهو يتجول بينهم مادا يده البيضاء الخفيفة، وعاد نحو الباب ليدخل مـا بـين المكتـب والنافذة المطلة على المسجد، وانجعص إلى الـوراء، رافعـا العمامة قليلا ليهرش بهدوء في مقدم رأسه، فضـبط فتحتـي القفطان، ثم عقد يديه، راكزا بكوعه فوق المكتـب، وضـيق عينيه في نظرة أخيرة فاحصة، قائلا بصوته الهادئ: أهـلا وسهلا.

وقدم ابنه الرجال للوالد الوقـور، ذاكـرا ألقـابهم، وردد الحاج وراءه: ونعم.. ونعم وقال للرجال إن آبائهم - جعلهـم الله جميعا في نعيمه المقيم - كانوا من أعز أصدقائي وأنـه هو الذي زوج أمهاتهم، ونقل نظره إلى ياسر وحسان فجـأة، أظن أنتم أبناء الجديدة؟

فقالوا في نفس واحد: أيوه.

وعقب على إجابتهما الحازمة: كان جدكما لأمكمـا - الله يرحمه - من أجدع الرجال. ثم التفت إلى يسـري: ويعتبـر جدك أيضا.. أنتم أبناء خالة، على ما أظن.

واقترب يسري حتى صار على طرف الكنبة في مواجهته بالضبط: وأبناء عم.. الموضوع يا مولانا أني متـزوج مـن امرأة دامت عشرتي معها أكثر من عشر سنوات، ولا يعيش لي أبناء منها أبـدا، وأولاد الحـلال ينصـحون بتطليقهـا، والزواج بغيرها، فأنت كما ترى..

وقاطعه الشيخ: يا ابني الطلاق ليس بالكلمة السهلة.

وسحب يسري القسيمة من جيبه، وفردها أمام الشيخ: أنـا فكرت في الموضوع ألف مرة.. لا فائدة.

ومال بوجهه على الورقة يتصفحها، وهو يحرك أصـابعه النحيلة بين شعيرات لحيته الشهباء، وقال كمن يحادث نفسه: إنه أبغض الحلال.

ثم رفع عينه ليبحث عن ابنه بين الجالسين، وأشـار لـه برأسه: قل لهم يعملوا شاي.

وأمسكه يسري من ذراعه، وأقعده غصبا: لا داعي.

ونسي الحاج الأمر، وعاد يتفحص الورقة، ورفع وجهـه مرة أخرى، وأصابعه داخل فتحتي الأنـف تعبـث فيهمـا: يا ابني راجع نفسك.

وقال يسري وهو يسحب المنديل على جبهته: لا حياة لي معها بعد أن شتمت أهلي وعابت في أمي.

وهز الحاج رأسه: وصلت لهذا الحد!

وعلق يسري بقرف: وأكثر من هذا.

وفتح الحاج الدرج: وفرد ورقا أبـيض ودفتـرا بـدفتين طويلتين، وسحب قلما من بين الكتب : الأمر لله.

وساد الحجرة صمت عميق، فلم يسمع غير نقيق ضـفدع الترعة، وأصوات الرجال داخل المسجد، والحاج انغمس مـا بين الدفتر ينقل إليه بيانات القسيمة المعلقـة بـين أصـابعه

المرتعشة، ويسري يلتفت إلى رفقائه مفتعلا ابتسـامة علـى كرمشات وجهه المتوتر، ويده لم تكف عـن مسـح العـرق السائل بغزارة على خديه وعلى عنقه، ثم انتبه على صـوت الحاج يقول له: ردد ورائي.

فتحفز يسري واقترب حتى لامس المكتب، وبـدأ يـردد وراءه، بصوت مبحوح حاول بشدة أن يجعله مرحا، وحسان ترك المشهد، وانشغل، بالنظر من النافـذة مسـتطلعا القبـة البيضاء المحاطة بأغصان الشجر المرتفعة التي رقدت عليها عصافير، تحاول إحكام نومتها في الأعشاش الكثيرة المـدلاة بين الورق الأسود ولم يعد بنظره حتى طلـب منـه الحـاج بطاقته فسحبها كالمنوم من جيب البنطلون وألقاها إلى جـوار بطاقة ياسر التي برزت منها صورته المبتسـمة فـي نـور الأباجورة الكثيف.

ونقل الحاج بيانات البطاقتين، ثم تنهد بعمق قـائلا: لـو كانت تسير الآن على قناة أو في شـارع، أو نائمـة علـى سرير، لسقطت على وجهها دون أن تعلـم السـبب.. هـذا الطلاق تهتز له السماوات السبع.

وتقدم "ابن المأذون" من أبيه، وألقى أمامه الفلوس، جعلها الرجل بين أصابعه يقلب في أطرافها، ويحصى عددها، ثـم ركنها بهدوء فوق الدفتر، وقال ليسري: سبعة جنيهات!!

وتقدم إليه يسري يقبل كتفيه، ويقول مازحا: أنت بركتنا.

وانقلبت سحنة الحاج، وقال بتكشـيرة: والله مـا ينفـع.. أنا لا يدخل جيبي من هذه الفلـوس مليمـا، كلهـا رسـوم، وتمغات، ومشاوير تسجيل، وأنـتم والحمـد لله متعلمـون، وتعرفون كل هذه الأمور.

وعاد يسري إليه ليقول بجد: البركة فيك.

وأدار الحاج ظهره منشغلا بأمر ما: أبدا.. والله لا ينفع.

وتحدث ابنه إلى يسري مبرئا ذمته: قلت لـك مـن قبـل عشرة جنيهات.

وأخرج يسري من جيبه جنيها، فـرده فـوق الجنيهـات الأخرى، وشد يد الحاج من خلف: كدا تمام.. سلام عليكم.

وخرج مسرعا، وفي أعقابه ياسر وأخوه.

ثم لحقهم ابن المأذون على جسر الترعة، فنظر إليه يسري بغضب، ولكن الولد لم يهتم بنظرته، ووجه كلامه إلى حسان: نكمل سهرتنا.

وقال له يسري: لو وفقت مع أبيك كنت سهرتك في داري أحلى سهرة.

ورد عليه ابن المأذون ضاحكا: إحنا فيها.

- ٥ -

بعد منتصف الليل، ودع ياسر أخاه عند الباب، وقال لـه: أدخل أنت.. سأتمشى قليلا. وسار مع ابـن المـأذون الـذي سحب سجائره، وعزم عليه بواحدة، أشعلها ياسر وهو يقول: لم أضحك كما ضحكت هذه الليلة.

وعلق ابن المأذون وهو يطفئ عود الثقاب: حتة يسـري كانت عظيمة.

وقال ياسر: هو لا يدخن إلا حشيش الزيت، ويشتريه من بلده الأصلي.

وغمرهما نور شارع الزراعية القوي، ونظرا إلى امتداده، فلم يقع نظرهما على دركيين يعلقان سلاحهما على الـذراع، ويسيران جنبا إلى جنب بين الدكاكين المغلقة، ويدور بينهمـا حوار هامس، ولمحا الكلاب المتجمعة على طـاولات محـل الجزارة الذي يئن بداخله موتور ثلاجة كبيرة.

قطعا الشارع باتجاه الجامع الكبير، وهناك فارق ياسر ابن المأذون.

وقال له: سأتجول جهة المستشفى.. سلام.

وانطلق ابن المأذون يعدو متجمعا على نفسه، وهو يحني رأسه إلى الأرض في خطوات سريعة متلاحقة، بينما انحرف ياسر إلى الحارة الضيقة، فاشتم أنفه رائحة خبيز مقبلة مـن آخر الحارة السد المظلمة، وخفق قلبه حتى سـمع ضـرباته العنيفة بين جنبه وفركت يده المبللة "فلتر" السيجارة، وألقـاه بعيدا، وحاول أن يحبس حشرجة الكحة التي هيجت رئتيـه، وأقبل بحذر نحو البيت المبني بحجر قديم والـذي سـقطت دهاكته من الزوايا، وتآكلت حجارته الراشحة، نظـر بغتـة وراءه، فرأى الكلاب تمرق صفا تحت نور الشارع الكبيـر، وازداد وجيب قلبه، واقترب أكثر من عمود النـور المطفـأ، ووجد النافذة مواربة، ولا أحد يبين في ظلمتها القائمة، فطرق بظهر السبابة، ورأى الوجه يشرق بياضه بين الضلفتين.

وهزت له رأسها المحلول الشعر، وابتلعت الظلمة بيـاض الوجه، فاستوحش المكان وأنصت لمعالجتها ترباس البـاب، فاقترب، ليدخل بكتفه من الفتحة الضيقة، وأمسكته من يـده، وسار وراءها، وهو يرى – على نور لمبة سـهاري بـآخر الصالة – أبواب الحجرات المغلقة، واحتواه ظلام الحجـرة، وكان قد ارتاح على صدرها الممتلئ، وهـي التفـت عليـه

بذراعيها، تهصر عوده، وهو يسـتجيب للضـغط، ويقـتحم لحمها القوي، ويغور حتى ليكاد يتلاشى في مسامها، وهـي تهمس له في أذنه: تأخرت. وهو ظل يدور براحتيـه علـى الكتف، وعلى الجنبين، وفوق اكتنازة الفخذين حتى عثر على كفيها اللذين انزلقا إلى أسفل، وهما في انفلات حذر، وقـال: كنت في سهرة.

وقالت له بدلع: وهي تفـك جسـدها منـه: تسـهر مـع أصحابك، وتنسى نفسك. وجرته من يده، ليقعد على كرسـي الصالون العريض، واستطاع الآن رؤية أشياء الحجرة بالنور الشحيح المخنوق في فرجات الشيش، واقترب منهـا، لـيلم خصرها بين ذراعه، وليشم فوح عطرها الحبيب إلى قلبه.

وسألته: كنت مع يسري طبعا؟

- لم يعد لي صاحب غيره.. تصدقي بيسأل عن الـورق، وأنا خجلت منه.

- قل له الحقيقة.

- أترك الرجل على وهمه، فماذا يمكنني أن أقـول لـه، يكفي ما خسرت من أصحاب.

- لكن بصحيح، لم تعد تحضر معـك أوراقـا كالأيـام السابقة؟

وقال وهو يواري وجهه بعيدا عنها: خط الاتصال انقطـع لأنهم قبضوا على الصديق الذي كان يمدني به.

وأراد أن يغير الموضوع، فحدثها عن رحلته مـع أخيـه وابن المأذون ليخلصوا يسري من زوجته المتشـبثة بجلـده كالعلقة.

وقالت بحسرة: حرام عليكم.

وحدثها عن قلق يسري وتوتر أعصابه، وهو يـردد وراء المأذون بخوف، وقال لها إن حسان لم يطق هـذا المنظـر، وقام يتأمل الشارع من النافذة، وأنه مال عليه فـي طريـق العودة ليقول له: ارتكبت عملا حراما أخشى أن يجازيني الله عليه وختم كلامه قائلا: ما كنت أظـن – قبـل اليـوم – أن الطلاق شيء رهيب، وأن قلوب الرجال ترتج له بقوة.

وقالت وهي تعود لتمسك كفيه، وتستدير بكامـل وجههـا إليه: يكفينا الشر.

ثم أطرقت قليلا، وهي تعبث بأصابعه، ومد يـده ليرفـع ذقنها، ويميل عليها بشفتيه، وأنامت وجهها على كتفه: أقـول لك خبرا يزعلك.

وانتفضا على صوت نحنحة متقطعة تـرددت بالصـالة، وقامت واقفة، ووقف وراءها ينظر بترقب، وانفلتـت منـه متجهة إلى الباب: انتظر.

وفتحت الباب، وحاذرت ألا تزيق مفاصله، واختفت فـي الصالة، ونزل ليمدد جسمه على السجادة مائلا على المنضدة الرخامية، وسمع خطو قدميها الحافيتين فوق بلاط الصالة.

كم هي رائعة هذه البنت، ها هي تحاول مواجهة الخطر، كما واجهته من قبل، حين رآهما أخوها – ذات ليلة – فـوق سور النهر، يدفعان سيقانهما في لهو، مستمتعين بنسمة الليل، تحت الظلام الذي رمته أغصان شجرة كثيفة الـورق، مـر أخوها بين أصدقائه ملقيا بنظراته على الأرض، مدعيا أنه لم يرهما، ولكنه علم أن الأخ انتظـر عودتهـا وجرهـا مـن ضفائرها، ودفعها أرضا، وراح يركلها بقدميه، وينام عليها، ليعض لحمها، ويخمش بأصابعه الخشنة وجهها حتى سال منه الدم.

كم من سنوات انقضت منذ رآها على سكة الحديد، تلقـي إليه النظرة التي اهتز لها فؤاده، وقف مبهوتا. ومرت هـي مسرعة ضمن حلقة من رفيقات المدرسة، وكانت هـي فـي الزي، أفرعهن طولا، وأصحهن قواما، وصار يرقبها كلمـا عبرت، واعتاد طريق المدرسة، وبدأ يصحب زمـلاءه فـي رحلة صباحية، ليخط بقلم الفحم صورة الفتى الذي يقبل بنهم فتاة، سقط شعرها المهوش بين الزهر وأوراق الشجر، حتى استطاع يوما أن يدس لها الورقة في كفها، لم يكتـب شـيئا، رسم القلب كتفاحة ريانة وبه ثقب البـاب، وأنـام المفتـاح كعصفورة مغردة، في جانب من الورقة، وفهمـت الرسـم، وانفتح له القلب، واستطاعا أن يمهدا الطرق بينهما، بصـديق منه، وصديقة منها، وعرفا الموعد، واللقاء المختلس، وصار يكلمها عن القصص التي يقرؤها، وصارت تحدثه عن كتـب أبيها فتمده بها، وهو يقرأ. ويحكي لها عما يقرأ، ويشدو لهـا بالقصيدة التي بات الليل يصوغ أبياتها.

وانقضت أيام اللعب لتأتي أيام الجد، وعرف القلب الهـم، فراح يحادثها بكلام جديد بعد أن عرف العاصمة التي أطلعته على بعض أسرارها، وكان يعود إليها بأوراقه السرية يفـك

لها طلاسمها، وهي تتنهد بعمق: كلام جميل بصحيح، لكنـه يدفعني للخوف عليك وانفتح الباب مرة أخرى، ودخلت تجمع ثوبها الشفاف، وتعيد خصلات شعرها إلى الوراء، وجلسـت إلى جواره فاردة ذراعها على فخذه، وقالت: بابا كـان فـي الحمام، وانتظرت حتى جمعت أنفاسها المضطربة، ونظـرت إليه بوجه ضاحك، يضيء بهالته الفراغ القليل بينهما، وأدرك أنها تريد تذكيره بالأمر الذي قالت أنه مزعج، وسألها وهـو يعود إلى احتضانها، فقالت معابثة: جاني عريس إنما إيـه.. نكتة.

- مبروك.

وخبطته على صدره، وهي تفتح أزرار القميص لتسـعى أصابعها في براح الصدر: والنبي دمك تقيل، أنا أتكلم جد.

وقالت إن أباها أجبرها على الدخول إليه، فرأت المسكين يقعد غارقا في عرقه، وينظر إليها خلسة بارتباك وقلق، وأن أمها نصحتها بأن تخلع ياسر من دماغها، فهو لا يصلح لها، لأنه لا يملك أن يسعدها، كما يملك هذا الشاب الذي عاد مـن الخارج، فهدم بيت أبيه، وأقام عمارة مرتفعة، وملأ إحـدى

شققها بقطع الأثاث الحديثة، وفرشـها بالموكـت، ولصـق الأوراق الملونة على حوائطها .. و.. و.. و..

وتحدث ياسر مضطربا، أنا لا أقدر أن أتقدم إليك الآن.

وقال: كما تعلمين أنا لا أملك مسكنا خاصا، ولـم أرتـبط بوظيفة، ومصيري لا يزال غامضا، ولا أعرف شيئا سـوى أني أحبك.

وارتمت عليه لتجمعه في حضنها: وأنا باموت فيك.

والتقت يداها فوق عري لحمه، تحت القميص، وتشـابكت أصابعها وراء الظهر، وضمته بشدة حتى ضل أنفه في غابة شعرها المظلمة، ينشق عبيرها، فانتعشت روحه وانعدل ليأخذ وجهها بين راحتيه، ومال بطيئا، حتى التقت الشفاه الظمـأى وتهالكت في تقبيل حار، لم يفيقا منه حتـى سـمعا صـوت الجامع يهيئ الميكرفون لصلاة الفجـر، واقـتحم الصـوت الحجرة من الفرجة المضيئة، فقام ياسـر ليجمـع أطـراف القميص المبعثرة، وينسحب خارجا، قبـل أن يقـوم أبوهـا للصلاة.

- ٦ -

أخيرا اتضحت ضربات السقاطة القوية، وكانت جزءا من الرؤيا الآخذة بخناق يسري، إنها هنا، في هذه الدار، وعلـى بابها الكبير، وبرزت من ظلام العيون المغلقـة، الحـوائط، وعروق السقف، والواحة الممـدودة بـالطول، والـدولاب الصاج، والشماعة المدقوقة وراء الباب، والحصير، والكنبـة الملقى عليها خلقات كثيرة، ومرآة مشطوفة الجوانب، ومشط، وفرشاة، وطقم الأسنان الغارق في ماء الكـوب، وتـوارت سعدية وكأنما ابتعلها الماء الذي كانت تسبح فيه عارية، وسط لحم أجنة كثيرة مفقودة العين، تتخبط في تيار الماء بـأذرع صغيرة واهنة، كانت تنحل من جسدها، وتعوم من حولها مع باقي الأطراف المبتورة، وسعدية بين بقـع الـدم الحمـراء، تحاول ألا تفلت يدها من قدم يسري المتشبث بالبر، والأجنـة تتقافز حولها في البقع الحمراء، متوهجة في نـور لا يعلـم مصدره، تخبط وجهه، وتعاون المرأة التي تجر بعناد "ما هذا الذي أرى" وهرب من ظلام الحجرة، وفاجأه جسد الشـمس المفرود بطول الصالة "من؟ من؟ أيوه.." ولم يهتم أنه يخرج بملابس داخلية، وبدون طقم الأسنان، وانفتح زجاج الشراعة

عن وجه أسمر لفتى ينز عرقه تحت العينين القلقتـين فـي مواجهة خيوط الشمس القوية.

- الحاج فرج يقول اك تأخرت.

- رح يلعن أبوك لأب الحاج خرا.. مش شغال النهارده.

وانصفقت الضلفة، ولم يبق من الوجه غيـر شـبح فـي الزجاج، لا يريم، وعاود الطرق على السقاطة.

- أمشي يا ابن الكلب، واختفى الشبح.

"ما هذا الذي أرى؟ ما معناه؟"

الدار هامدة، يطن ذبابها الكثير المنتشر على بقع الشمس، يحوم بإلحاح كلما داس بقعة، ثم يعود مرة أخـرى ليفتـرش الضوء.

"هل يجزع القلب من وحشة الدار؟ لم يحدث هذا من قبل، لماذا لا أطيق الدخول في ظلمة الحجـرة؟ لمـاذا لا أطيـق صوت السكون في الدار؟ وكنت أعود من ضـجيج المـدن متلهفا لهدوئها!".

وغسل وجهه على عجل، ولاك لقمة من فطيرة متبقية من أمس، بعد أن ألقم فمه الطقم ودخل في جلبابه، متجهـا إلـى الخارج.

الحاج علي يمد بوزه بين صفحات الجريدة، متشاغلا بهـا وأنا لن أصبح عليه أبدا وشحته وأبوه عليوة على باب الفراكة بين نسوة منتظرات أن تدور الطاحونة في أوانهـا: صـباح الخير يا أولاد.

- صباح الفل يا أسطى.

- ناموسيتك كحلي.

ونطر يده لحسين الذي أطل من شباك الطاحونة، وقـف على آخر سور الحوش يتلفت في الشارع، مرة جهة اليمين، ومرة جهة اليسار، وقدمه تثاقلت علـى الأرض لا تريـد أن تتلحلح. إلى أين يذهب؟ لا طاقة لدخول الدار، لقـد طالـت زيارة زبيدة للحاجة، فهل يذهب ليعود بها، هل أخطـأ فـي تطليق سعدية؟

كان سعيدا البارحة، كمن أزاح الغمة عن عينيه "لماذا كل هذه المرارة في الحلق، كان الطريق معها مسـدودة. وأنـا كبرت.. كبرت، من العدل أن يكون لي ولد يبهج شيخوختي المقبلة، وسعدية جدباء.. جدباء."

- يا أسطى.. يا أسطى يسري.

"سيد الخياط، ماذا يريد هو الآخر؟ لا وقت لثرثرته التـي لا تنتهي، سيملأ دماغي بكلامه الفارغ."

- واقف ليه كدا؟ تعالى اشرب معي كرسي الدخان.

"لا بأس.. كرسي الدخان جاء في أوانه."

وقعد على "الكرويتة" المفككة الأوصال، وسيد قـام إلـى المنقد الصغير المركون تحت "البنك" وقطع من ورق الجريدة على الفحم المدفون في الرماد، وأشعل النار ليحيي خموده.

- إيه مالك؟

- ولا حاجة.

وظل مشغولا بمتابعة النسوة العائدات من السوق واللائي يرجعن بظهورهن إلى الوراء مع نزولهن انحدارة الشـارع، وسحب من الورقة الموضوعة تحـت رأس الماكينـة لقمـة بسكويت، لم يقدر على بلعها إلا بجرعة ماء من القلة المعلقة في مسمار الباب.

- مالكش مزاج في اصطباحة.

وترك سيد يعد الجوزة.

- عن إذنك.

وغادر الدكان إلى زحمـة شـارع الزراعيـة. النسـوة، بملابسهن السوداء غاديات رائحات، يرفعن السلال، وينحنين فوق أكوام الطماطم والباذنجان والبطاطس وبائعـة الكرشـة مدت ذراعها على آخره تقطع مصرانا طويلا، كومته علـى كفة الميزان وراحت تكور ورقة على هيئة قرطـاس "ربنـا يقرفكم.. من هذا؟ معقول!!..

بعد كل هذه السنين، هو.. هو بقفـاه السـمين، وبشـرته الحمراء التي أعرفها، ونظارته السميكة، وما الذي رماه إلى هذا البلد بعد السنين الطويلة؟".

- عدلي.. عدلي.

"ها هو يلتفت إلي.. هو.. هذا الأعمش الذي تنغلق عينـاه في الشمس، فلا يقدر على النظر، هو من كنا نسميه "عـدو الشمس" وسحبه إلى ظل السوق.

- من.. يسري؟!

وأحضان، وضربات على الأكتاف، وقبلات فرقعت على رءوس الشاريين والبائعين.

- إيه الصدف السعيدة دي.. تعال.. تعال.

- تعال أنت اشرب الشاي عندي.

- بس تعال..

وأزاح عدلي الورقة عن رأس زجاجـة مسـدودة بفلـين أحمر.

- إيه ده.. خمر؟

- تعال بس.. أخي اشتراها من المطار وأعطاها لي لمـا عرف أني جئت خصيصا لزيارته.

وسارا إلى نهاية الشارع بين زحام السوق، يجهدان فـي تفادي أجساد النسوة ويكتمان أنفيهما ليمنعا روائـح العـرق النتنة. وينزلقان بعيدا، لتمر من بينهما عربة "كارو" يجرهـا حمار هزيل، لم يفق من نومته بعد، ويشيران إلـى رجـال العزب النازلين إلى البلد بطواقي مبرومة، يرفعـون سـلالا قديمة على الأذرع الضامرة.

- فاكر أيام المولد لما كنا ننتش منهم الطواقي.

- جمعت مرة في داري أكثر من عشر طواقي.

وعبرا قنطرة النهر القديمة، وسارا بموازاة النادي الـذي تملأ الشمس ساحته الفارغة، وهبطا ارتفاع الجسـر، أمـام كشك المرور، ليسيرا بين صفي العبل المرتفع، واختارا مكانا معزولا بين ماء النهر الرائقة، وسـور المصـلى الـواطئ،

تنسدل عليهما صفصافة، تلامس أطرافها سطح الماء، وتصنع دوائر رقيقة، عند الحافة، ورفع عدلي الورق عن الزجاجة، وشد الفلينة بأسنانه ثم صب منها في الغطاء.

- اشرب.

وتشممت أنف يسري رائحة الخمر القوية "أين أيامك يا مصر؟ هل تعود مرة أخرى؟"

- كنت يا عدلي أعود بالتاكسي آخر الليل، وأمر على بار الحرية أشرب الكأس والكأسين، وأشتري زجاجة، تكفي ليلتي، وليلتين بعدها.. أنا يا عدلي منذ أن عدت إلى البلد لم تمس شفتاي طعم الخمر أبدا.. هنا أنا أتوه في الحشيش لأنه الكيف الوحيد المتاح.

- الخمر نعمة أم نقمة؟

- خلقها الله لحكمة عنده.

وانتعش جوف يسري للجرعة، وأحس بأن أمعاءه انتبهت لها، وبدأت تتمطى داخله، لتقوم من ركود طال أمده.

- أنا أحس يا عدلي بأن معدتي كان مغشيا عليها، وهذه الجرعة كأنها ماء الورد الذي نثر عليها فاستفاقت.

- اشرب.

- فاكر يا "عدلي" أيام مدرسة "الاتحاد الوطني"؟

- وكيف أنسى.. الناظر عبد السيد!

هذا الرجل كان يبث الرعب في قلوبنا الصغيرة.. أذكـر أني عدت يوما من المدرسة، تغديت غداء ثقـيلا، وقضـيت قيلولة طويلة، ولما استيقظت رأيت الشـمس اختفـت وراء الدور، ولم يتبق من أثرها غير ضوء خفيف، وظل باهـت، وهواء رطب، فظننت أنه الصـباح، وأنـي تـأخرت عـن موعدي، وقلت في نفسي أن حضرة الناظر لن ينجيني مـن عقاب الفلقة، فأسرعت إلى القميص و"الشـورت" ورفعـت الشنطة على كتفي وجريت، وأمي تصيح ورائي، يا ولد، يـا يسري ولم أجبها، كنت مرعوبا ووصـلت إلـى المدرسـة، فوجدت بوابتها مغلقة، ونوافذ الفصول فـي الـدور الثـاني مسددة، ولا حس ولا نأمه هناك، وأدركت أن الوقـت آخـر النهار، وعدت مكسوفا أجرجر ساقي.

- وأنا أذكر أن أمي أرسلتني يومـا بقفـة الحـب إلـى طاحونتكم، وأنا أنحرف من الشارع الضيق وراء الطاحونة، وجدتني – فجأة – في مواجهة حضرة الناظر، ولـيس فـي الشارع إلا أنا وهو، واحترت كيف أقدم له التحيـة، ويـداي

متشعلقتين في أذن القفة، رفعت اليمين فاهتزت القفة، رفعت الشمال فارتجت، رفعت الاثنين في لهوجة لأقدم تحية حازمة تليق بحضرة الناظر، فتشخلعت القفة، وسقطت على الأرض، وتناثر الحب، فبكيت، وحضرة الناظر اقترب منـي، يربـت على كتفي قائلا: يا جحش.

- كانت أيام رائعة يا عدلي.

- اشرب.

- كانت الآمال وردية، لا تكف عن الأحلام، لم أكن أتوقع أبدا أن أكون على حالي اليوم، مجرد سائق، يرهق أعصـابه على عربات الناس، ولا يقدر أن يمتلك عربة خاصة به.

- كل حي يحصل نصيبه.. اشرب.

- ألا تعلم يا عدلي أني طلقت امرأتي بالأمس.

- أعوذ بالله.

- عندكم كم عيل يا عدلي؟

- أربعة.

- أما أنا فلا شيء، كل أولادي يموتون بمجرد خروجهم من الرحم.

- ربنا يعوضك خيرا، اسـتأذنك لأن الجماعـة عنـدنا مجهزين غدوة، ولمين العيلة بمناسبة عودة أخي، كما تعلـم نحن قليلا ما نلتقي هذه الأيام.

اليوم خمر:

وعلى سور الكوبري: جعل يسري رأسه بين يديه، يتأمل ثعبان النهر الفضي يتلوى وسط وابورات الطوب، مغـادرا البلاد بانحناءة قاسية، ليختفي في البعيد وليترك النخل والشجر الملتف كتلة عالية تحجز الأفق الذي ينفث دخانه الحامي.

- هكذا يا عدلي تحيي الشوق ثم تتركني.. اشتاق لسـاني للخمر، ولا خمر في البلاد.

وتردد أكثر من مرة في الهبوط إلى جسـر النهـر مـن الضفة الأخرى.

- يلعن أبو الدنيا..

وتفادى التراب الذي هاج حول قدميه، وسار على رافـد الترعة الصغيرة التي تخرج من باطن النهر، وعبر الأرض الواسعة المحجوزة للمولد، ورأى قبة الحاجة "آمنة" يضـيء بياضها اخضرار الشجر النائم حولها ملقيا ظلا دسـما يـرد الروح، واستقبل "الخص" المقام تحت التوتة الكبيرة التي تفرد

أغصانها الكثيرة في دائرة واسعة فوق الساقية. ورأى هنـاك الحوزية، ينتشرون على القش، يراعون الأحصنة القلقة التي تنفض الذباب عن جلدها، وهي واقفة بين العـريش، تعلـك التبن من كيس معلق في بوزها.

- سلام عليكم.

- سلام ورحمة الله وبركاته.

وتوقفت الأفواه من مضغ لحم السمك المشوي، المفـرود في المناديل المحلاوي، وحملقت العيون الراشحة باندهاش، وثبتت الأيادي بأكواز البلاستيك، فلا هي ترفع إلى الأشداق، ولا هي تنزل إلى الأرض، واختار كومة قش بـالقرب مـن باب "الخص"، وصفق أحدهم: هات هنا واحد "دبل" للأسطى.

وخرج "الديدامونى" بظهره المحني، وبذراعيه المشمرتين، عن فانلة قطنية مخروقة في أكثر من مكان، نقل قدميه ببطء جهة يسري وهو يحاذر ألا تندلق البوظة الخامرة من حواف الكوز، تحرك نعله الممزوع، ليزيل الحصى، ونظف بقعـة دائرية صغيرة أمام يسري ثبت عليها الكوز، وقام يتأوه مـن عظام ظهره التي طقطقت بصوت مرتفع، وعاد ممسكًا جنبه إلى "الخص" ثم التفت: أجيب لك سمك؟

- لا.. عاوز حاجة خضرا.

ورفع الكوز إلى شفتيه، شفط من الرغاوي السابحة علـى الحافة.

"الفرق كبير بين لذعة البوظة ولذعة الويسكي، الطبقية في الخمر أيضا، صدقت يا ابن الخالـة، كلـه طبقـات، كـان الويسكي في قديم الزمان وقفا على النـاس "الهـاي" الآن.. الناس من أمثالنا عرفوا طريقه، منذ عرفوا طريق المطارات والأسواق الحرة، وعادت الخمور الجيدة مرة ثانية إلى البلد، بعد خمارة الخواجة "طناش" لم تر البلد الخمر في زجاجات، وراجت بوظة "الديدامونى".

....

....

أهؤلاء من يقصدهم حين يتحدث عن البؤساء والكادحين؟

أين هم من كلامه الصعب؟ كيف تقدر عقولهم على فـك ألغازه؟

ياه.. ولا مليون سنة، أنا نفسي أفهمه بالعافية.

ورقك يا ياسر في بر، وأصحاب المصلحة الحقيقية – كما تقول – في البر الآخر، ثم هل أنا خير من هـؤلاء؟ لمـاذا

اضطربوا لما رأوني، أنا مثلهم "عربجي" لكـن "عربجـي" تكنولوجيا.. هئ.. هئ.. هئ.. حصاني حديد وحصانهم من لحم ودم، أنا مثلهم أعمل بلا أجر عند الناس.

"وها أنا ذا أقعد وحيدا، يخشون الاقتراب مني، علي ظـن أني أفضلهم، وفيما أفضلهم الله وحده يعلم، ألأني ابن فـلان الفلاني؟ أم شكلي يوحي بأني لا أنتمي إليهم، لماذا لا يـأتي واحد منهم ويجالسني؟ وأنا إذا قمت وانضممت إلى حلقـتهم، سيقول الماشي في الطريق، رأينا الأسطى يسري من عائلـة كذا، يفرش الأرض مع العربجية كلامك بعيد جدا يـا ابـن خالتي.. بعيد.. ولن يتحقق أبدا".

- وحدوووه.

- هات يا "ديدموني" كوز آخر.

"تقصد يا ياسر أن تجعل من هؤلاء ناسا حقيقيـين؟ هـذا يتطلب منهم أن يرتدوا الملابس النظيفة، ويحلقـوا لحـاهم، ويرفعوا عن رءوسهم المناديل المتسخة، ليمشطوا شعورهم، ويدهنوها بالشامبو، ثم يعملوا على قدر طاقتهم، ويأخذوا بقدر حاجاتهم تعال يا عم.. لأكلمك عن هذه الدنيا الجميلـة، عـن الجنة..".

وكيف ستكون الدنيا بدون عربجية؟ ربنا خلـق الحمـار ليجر العربة، وخلقني لأسوقه بعقلي.. قل كلاما آخر.

ولكن يا عم هذا في الإمكان، المساواة، إذا تجمعت قوتـك على قوة الآخر، وجمعكم الهدف الواحد، تسقطون الاستغلال، وتقيمون هذه الدنيا الجديدة، دنيا العدل. نسقط من؟ قبـل أن يفكر أحدنا في هذا سيأكل ضربا على وجهه، لا يأكله حرامي بلغ في جامع.. قل كلاما آخر.

هل رأيت يا ياسر أن أحلامك بعيدة..

هذا الرجل خير مني، على الأقل هو يمتلك هذه العربـة، وهذا الحصان، وله زوجة وعيال يؤنسون وحدته، أما أنـا، لا شيء، لا شيء البتة.

وهذا ما يجعلني أسلم لك رأسي، لتعبئهـا كلامـك، إنـك تغازل حرماني، كلامك مخدر آخـر، يؤخـذ مـع جرعـة الحشيش، أسبح معك، ومع ورقاتك طوال الليل ما إن يـأتي الصباح وأخرج لسيارتي، وأدخل بين الناس، أحمل أشياءهم، وأوصل بعضهم، هذا في زيارة، وهذا في طريقـه للعمـل، وهذا ذاهب لينهي صفقة وآخر في طريقـه إلـى بورسـعيد ليهرب البضائع، ويتجول بها في الشوارع ليغير قشرة الناس

القذرة، وتسيح زبدة كلامك في صهد الزحام، وأشـعر بـك بعيدا، وكنت بالليل بين ضلوعي".

- هات يا "ديداموني" كوز آخر.

"وهل يستطيع كلامك تزويجي من بنت الحلال، الجميلـة، التي تصون شرفها، وتنجب لي ولدا، وولدا، وولـدا؟ هـل يستطيع كلامك أن يملكني سيارة، ويمنعني من ذلة العمل مع رجال كان أبي يستخدمهم في أرضه؟ هل يستطيع كلامك أن يبتني لي بيتا بالحجر الأحمر، يصمد للأيام بدلا مـن هـذا المتداعي؟"

- هات يا "ديداموني".. هات.

إلى الأمام سر:

لما سقط ظل الجدار الوراني لحوش العدة، وأقبلت نسـمة العصاري تلهو فوق ترابه الناعم فتحت زبيدة أم محمد بـاب الحجرة العارية من البلاط، ونثرت المـاء علـى التـراب، ووضعت صينية القلل فوق صندوق الحب لتبردهـا النسـمة اللاهية، وافترشت الحصير بالقرب من عشة الفرن، وضعت كوبين من الشاي، غمست فيهما أوراق النعناع الريانة، وامتد ياسر بطوله على الحصير إلى جوارهـا، يرشـف الشـاي،

ويحادثها عن سفره في الصباح الباكر، ليلحق بعمله، وسألته عن لقائه بسامية.

وقالت له: من الخسارة أن تضـيع منـك هـذه البنـت، ووصفت له لهفتها حين مرت عليها لتخبرها بالموعد الليلي، وقال لها إنه لا يملك القرار في ذلك الآن، ثم إنه لا يسـتطيع حسم هذا الموضوع قبل الاطمئنان على مصير أخته، وأنـه يستطيع أن يقرر ارتباطه بالبنت بعد أن يرى زبيدة في بيت العدل.

وقالت له زبيدة: إن عليه أن يهتم بنفسه، ويدعها لمصيرها الغامض.

وقامت لتفتح الباب الذي ترددت طرقاته البعيدة من الباب الكبير.

ونادت عليه من الداخل قائلة إن شخصا لا تعرفه يسـأل عنه.

وجرع ياسر ثمالة الشاي، وعبر الصـالة الكبيـرة، ثـم الصالة الصغيرة، ورأى المعلم زهير – الذي يسهر معه على مقهى حمام – في ضوء الشارع بعمامته المزهرة، وقفطانـه اللامع تحت الجلباب الأبيض، شد ياسر على يـده: تفضـل.

والرجل خلع يده، ومال عليه بوجهه الجهم: الحق يا أستاذ قريبك لم عيال البلد وعامل مظاهرة من أول شارع البحر لغاية السويقة، وأنا مسكته بالعافية، وحبسته في دكاني، وقلت إنك الوحيد الذي يقدر عليه.

وارتدى ياسر هدومه بسرعة، وخرج مع الرجل متجها إلى السوق.

وهناك التقى بصديق له يقف تحت مظلة السوق المقامة على الأعمدة الإسمنتية رحب بياسر وأخذه من يده، وهمس في أذنه: إلحق لمه.. دا بيقول كلامك كله، وأنا حاولت منعه، وضربني بكوعه في جنبي، بعدين قلت أروح لك.. ولم يستمع ياسر إليه، اتخذ طريقه وسط أوراق الخضار المختلطة بطين الأرض وبين زحام العيال الواقفين على طوار الدكاكين المغلقة، يصفقون ويهللون جهة باب الدكان الموارب الذي يحرسه رجلان من حمالي السوق".

وانفتح الباب على يسري القابع في ظلمة الدكان، بين روائح خضاره المعبأة في أقفاص كثيرة تنتشر في أركانه.

وهتف يسري بعلو الصوت: ياسر.. ياسر.

وبدأ يتدفق في الكلام: كنت نائما في دارك، وأنا عملت الثورة وحدي.

- تعال.. تعال.

- قم يا ابن الحلال روح مع ابن خالتك.

- تحركت من هناك إلى المركز، وحدفته بالطوب، لم يخرج كلب منهم، الكل اختفى وراء حيطانه، قلت لهم اخرجوا لي، فخافوا، لأني كنت في حماية الجماهير.

- تعال بس نروح.

- لن أعود إلى الدار في يوم مجيد كهذا.. هل تدري كيف بدأ الأمر؟

بدأت الشرارة في بوظة "الديدموني" حاولت أن أنقل الوعي للعربجية الذين كانوا هناك، ولكنهم الأنذال أبدوا الخوف والحذر، أيدوني في البداية، ثم تراجعوا قائلين، كلامك مضبوط، ولكن من يضمن لنا الحماية؟ فانطلقت وحدي إلى معاف المعلم بسيوني هناك وجدت العمال يكدحون في رفع السباخ على الحمير، قلت لهم إن هذا يستغلكم، وينهب رزق عيالكم ليبني العمارات العالية، فثوروا، نظروا إليه، وقالوا لي يا عم نحن نخافه، وحاول الرجل الاقتراب

مني، ليستقبلني ومد لي يده ليسلم علي متخاذلا: فقال يا ابـن الناس الطيبين، وقلت له في وجهه أنت بورجـوازي عفـن. وكانت الجماهير قد التمت، وخرجت لي من دورها، واختفى الرجل، قلت يا يسري خذ حذرك ها هـو يختفـي بالـداخل ليتصل بشرطة المركز فيقبضوا عليك، وقلت علي أن أفسـد خطته، ها هي الجماهير حولي، فلننطلق إلى هناك لنفاجئهم، وحصل، رفعوني على الأكتاف، وسرت بهم ألقي الشعارات والهتافات، ومرة "يسقط" ومرة "يعيش" وهم ورائي يـرددون بحماس "يسقط، ويعيش" حتى التففنا حول أسـوار المركـز، وقلت لهم احدفوا الطوب داخل السور، فحدفنا، حتـى سـقط المركز بمن فيه، وقلت لهم علينا أن نحتفـل الآن بثورتنـا، فإلى البلد، ليعرف كل الناس بأن زمـن العـدل قـد جـاء، فتحرروا، لن تخسروا غير قيودكم، فأخذنا طريق الزراعيـة بطوله، وها هم الآن بين يديك، فافعل بهم كما تريد.. خـذهم الآن إلى الحكم.

- بس تعال.. بلاش فضايح.

- فضايح!! لا.. لا تأكل حقي.. أنا متفق معك من قبـل. تأكل حقي أنا لا أريد شيئا، أريد عربة، أشغلها أجرة، ألـف بها بين البلاد، وزوجة جميلة بيضاء تخلف لي الذرية الطيبة.

- تعال بس.. ونتفاهم في البيت.

- ماشي.. ولكن لا تأكل حقي.

وانخلعا من العيال المتهافتين عليهما، وزجـرهم المعلـم زهير.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. ربنا يهدي.

وتأبط ذراعه متجهين إلى الدار من الشـوارع الجانبيـة البعيدة عن عيون الناس، وسار يسري بخطـوات عسـكرية حازمة، وياسر يحاول ألا يفلت يده ذراعه الذي يتحرك إلـى أعلى وإلى أسفل بانتظام.

واختار شارعا ضيقا يتصل بشارع الطاحونة، فشد يسري ذراعه بشدة صارخا: لا أمر على الحاج "قرد" أبـدا.. هـذا بورجوازي آخر يأكل أموال اليتامى خذني إلى المقهى.

- حاضر.. بس اهدأ.. وبلاش زعيق.

وأخيرا وصلا إلى الدار خفية، وأدخلـه ياسـر الحجـرة الأخيرة، وعاونه في تغيير ملابسه، ومدده على السرير.

- أنا لا أريد النوم.. لازم أشارك في المهرجانات، لن تسهروا وحدكم، سأكون إلى جانبك.

- نام شوية.. سأعمل لك قهوة مضبوطة، بعدين نروح معا.

- لن تنسى نصيبي.. آ.. أنا قريبك، لا أريد شيئا لنفسي، أنا أريد للناس.. كل الناس، فقط أريد سيارة، أعمل بها بين المدن، وسأنقل الفقراء أسبوعا كاملا، هدية للثورة.

- ماشي.. ماشي.

وخرج ياسر إلى المطبخ، وضع الماء في الكنكة الصغيرة، وضع عليه قليلا من السكر وملعقة من البن، وقلب الماء فوق نار هادئة، ولما اقترب الوش من الحافة، صبه في كوب صغير، وحين عاد إلى الحجرة، وجد يسري تحت الغطاء، يردد غطيطا عاليا، والنفخة التي تخرج من جانب فمه، تملأ فراغ الحجرة المظلمة، فركن الكوب على "الكوميدينو" وجلس فوق الكنبة إلى جواره يتأمل وجهه المرهق الذي يسيل منه عرق غزير.

القسم الثالث

زوجي العزيز/ كمال

عدت من فترة قليلة إلى البيت، بعد أن قضيت عدة أيـام مع الحاجة أنيسة ابنة عمي، وقد استقبلتني اسـتقبالا حسـنا، وسألت عليك كثيرا، وتقول إنك لم تدخل بيتها من قبل سفرنا إلى ليبيا، ووعدتها بأن أكرر الزيارة بصحبتك حين تعود في إجازة آخر العام.

وكان سبب قضائي هذه الأيام معها حاجتي إلـى التـردد على عيادة الدكتور، ولكن صحتي تدهورت بشدة، والمسكينة لا تقوى على خدمتي، ففضلت العودة إلى البلد لأكـون بـين أهلي حيث سأجد أكثر من واحدة لتقوم على خـدمتي، فـلا تشغل بالك، وإن كان لي رجاء، أن ترفع المبلغ الذي ترسله قليلا، فقد كتب الدكتور أدوية جديدة وطـالبني بنظـام فـي الأكل، ألغى منه كل النشويات وخلافه، وأكد علـى تنـاول اللحم بشكل مستمر، وأنا لا أريد إرهاق أخي، وعلى العموم "كتر ألف خيره" فهو الآن يراعيني بأقصـى مـا يسـتطيع، ويضطر مرات كثيرة لترك عملـه، ليكـون إلـى جـانبي ولا يتركني وحيدة أبدا.

أرجو أن تمر الأيام القليلة القادمة بأقصى سرعة ممكنـة، حيث تأتي إلي، ونقضي بعض الأيام هنـا، فتخفـف حمـل أعصابك المرهقة بجو الريف الجميل، ثم نعود إلى شقتنا التي اشتقت إليها كثيرا، اهتم بنفسك، وراع صـحتك، ولا تشـغل بالك بمرضى، على أن ترسل المبلغ المـذكور فـي أقـرب فرصة.

زوجتك المخلصة

زبيدة

الجزيرة البيضاء – يونيه

سيد "تعال كلم":

سمع الطرقات بينما هو جالس على الكنبة أمام أخته يمسك كوب الماء بانتظار أن تنفض يدها المرتعشة الورقة عن علب الدواء، ولما كانت الطرقة القوية داخلة عليهما بعنـف مـن الضلفة المفتوحة، هيئ لهما أن الريح الصرصر انطلقت من مكامنها وزوبعت فجأة بين جدران الحجرة المرتفعة الجدران، وتناثرت علب الدواء فوق اللحاف المطـوي علـى سـيقان زبيدة، فتفلت في عبها مستعيذة بالله من الشـيطان الـرجيم، وقال يسري: حمار من هذا المستعفي على السقاطة.

وخرج من ظلام الحجرة منخلعا من سكونها ومن رائحـة الأدوية المنتشرة، إلى صخب النور في الممشى لتحوم حوله هذه التكتكات الأزلية المقبلة من وراء الباب الكبير، وتتلمس عيناه شبح الواقف وراء الشراعة، إنه لشخص لا يعرفه، لهذه الشراعة لغة معه، يفك طلاسمها منذ كان يحبو علـى أرض الصالة يعرف دون حاجة للعين السحرية ملامـح الشـخص الواقف، فيفتح له إن كان في حاجة إليه، أو يعود على أمشاط قدميه عائدا إلى دفء الغطاء كاتما أنفاسه فلا يعلن وجـوده، أو يرفع سبابته إلى أنفه بـ"هوووس" خافته، زاجرا سـعدية

أيام كانت تقبل من الحوش نصف عارية ومبتلة، ثم يشير إلى لحمها المندلق من مزق الثوب، ويشدها من ذراعها ليرجعها إلى مكانها: أخزي على دمك.

أدار المسمار النائم على ضلفة الشراعة في نصف الدائرة المحفور كمجرى له فبان وجه سيد أمـام خفيـر المـأمور، والمسئول عن جر الخلق إلى مكتب سيادته إذا كان الواحـد منهم طرفا في قضية أو مرفوعا عليه البلاغ من خصم.

وقف سيد بكتفيه العريضتين يتلمظ بفمه المختفـي تحـت كثافة الشارب المبروم من طرفيه، يرفـع يـده إلـى فتحـة الجلباب البلدي الذي أبرز اكتناز الصدر والكرش الكبير، فهو لا يرتدي – منذ عين في هذا المنصـب – البدلـة الميـري إلا حين يلجأ إلى الطابور الأسبوعي حيـث ينضـم لبـاقي الخفراء، يتمم عليهم الشاويش، ويدورون في خطوات منتظمة بين أسوار السوق، ويقضون نصف النهار في "سلام سـلاح" و"كتفا سلاح" وغيرها من التدريبات للحفـاظ علـى اللياقـة الواجبة.

وسيد ليس كالآخرين، يعود من طابوره ليراعي الأرض، أو يلتحق بفواعلية المعمار، وفي آخر الليـل يرفـع لبدتـه

وسلاحه إلى "النبطشجية" على المستشفى أو على المدرسة الثانوي أو على المحكمة وغيرها من الأماكن الواجب حراستها، فهو قد ترك الأرض لولده يرعاها، لأن عمله لا ينتهي أبدا، بالنهار أمام مكتب المأمور مهيأ لسماع الأمر باستدعاء من يشاء، وبالليل يأخذ مكانه في الخص بجوار البوابة الحديد الكبيرة التي تغلق على "فيللا" المأمور.

- نعم.

- تعال كلم.

سيد لا يقول أكثر من هذا، وعلى من سمع هاتين الكلمتين الاستجابة في الحال فهو لن يتعتع قدميه عن الأرض حتى يصحبه معه. وعلى يسري أن يعود بظهره ليرتدي القميص والبنطلون، أو يضع على بدنه الجلباب المكوي النظيف ليدرأ عن نفسه إهانة المأمور، فالهدوم تصنع من الرجال مظهرها، وفي مثل هذه الحال يمكنها أن ترفع إلى أعلى أو تسفل إلى أبعد درك.

رأته زبيدة يعود إلى الحجرة بوجه تكاثف عليه الظلام قبل حلوله، فسألته عن الطارق، فأخفى وجهه في ناحية بعيدة، وجاءها صوته تائها لا وضوح فيه: مشوار للمركز.

ضربت صدرها، وأزاحت علب الدواء بعيدا: خير!

وانحنى عليها يهدئ روعها، ويمد إليها يده بكوب الماء تبتلع الحبات.

- لا تقلقي خمس دقائق وأعود.

- عملت حادثة؟

- أبدا ثم إنني سليم قدامك.. كما ترين.

ورفعها إلى الوراء ليسند ظهرها على الوسادة، وعاد ليقف بين السرير والنملية ليدخل ساقيه في البنطلون من تحت الجلباب وليسحب حذاء المناسبات المركون بين النملية والحائط، نفخ فيه نفخة أطارت خيوط العنكبوت الواهنة المنسوجة بداخله فطار الغبار نحو السرير فسعلت أخته وسحبت المنديل من صدرها لتضعه تحت فمها وامتدت السعلة طويلا، وانقلبت سحنتها، وصارت حمراء كرأس الديك الرومي وخرج من الحجرة يتلوى بداخله ذنب فعلته، وشعور بالإشفاق على الأخت التي سيتركها وحيدة.

وقام سيد عن طاولة الميزان، وقطع حديثه مع الحاج علي ناصبا طوله ليسير مع يسري في الحواري الضيقة ليتفاديا السير في الشارع العمومي، فلا يتعرض يسري لكل من هب

ودب، يسأل عن السبب، وهو يجهله حتى هذه اللحظـة وإن كان لديه شك بعيد بأن الموضوع يتعلق بمخالفـات المـرور المتراكمة.

* * *

قال يسري لأخته وابن عمه: قبل أن أخـرج مـن داري ظننت أني مطلوب لسداد مخالفات مرور محسوبة علي مـن سنوات، ولما خطوت فوق العتبة ورأيـت الخفيـر يحـادث الحاج "قرد" حسبت أنها دسيسة من هذا اللعـين، وكـدت أن أبصق على وجهه قبل السير مع الخفير، وقلـت إن فعلتهـا ستحسب من الأخطاء، وسيشهد علي الخفير أمام المـأمور، فلأتماسك، وعلى طول المسافة من الدار إلى المركز حاولت أن أخلع شيئا من الرجل غير أنـه ظـل محتفظـا بالسـر، ولا يبغي البوح، قلت لنفسي فلأنحني على حجر كبيـر مـن هذه الحجارة الملقاة في الطريق وأهشم رأس هذا البغل الكتوم الذي يفضحني بمسيري معه، ومرة أخرى تمالكت أعصابي، وسرت متواريا، أدور حوله، مرة أسبقه فأكون أمامه، ومرة أتخلف عنه فأكون وراءه، ولا أكون بمحاذاته أبدا، ابتعت له علبة السجائر عله ينطق، ولكن المجرم أخفاها فـي جيـب

صداره وكأنما حصل على حق شرعي له، وطوى فمه تحت شاربه، ولم يبح، فقلت أسلم أمري إلى ربي، فركـة كعـب وأعرف كل شيء، كان قلقي من المفاجأة، لا غيـر، قلـت: يا سيد رسيني حتى لا أؤخذ على غفلة. ولم يزد عـن: والله ما في حاجة موضوع بسيط لا يستحق الدوشة، فقلت: يا سيد لا تحاول الخروج بي إلى شارع كبير مزدحم بالناس، اختـر معي الشوارع الصغيرة البعيدة عن الزحـام. قـال: أمـرك وسرنا نتشمم روائح البطيخ الفائحة من الدور المدفوسة فـي ظلمات الأزقة، نحاذر الدحرجة في فتحات الأبواب الهابطـة إلى أسفل، وأحمي حذائي النظيف من الماء المـدلوق ومـن "جلة" الماشية وفضلات العيال المرصوصة تحت الحـوائط، حتى خرجنا إلى الشارع المسفلت، ورأينا جـدران المركـز السميكة وقضبان نوافذه المرتفعة واسطبل الخيل المفتوح من خاف، ودرنا حول هذه الجدران لنصعد المرتفع الهابط علينا من جهة النهر، وتركنا الحديقة الصغيرة إلى يميننا، ودخلنـا من البوابة الواسعة التي يقف تحت مظلتها عسـكري بـزي خشن يرفع سلاحا في وجه الداخل عليه.

اضطرب قلبي، وانقلبت معدتي، فأنا لا أحب هذا المكان، وأعمل جهدي ألا أدخله أبدا، ولم تخط قدمي هذه البوابة منذ اليوم الذي عدت فيه من الصعيد بجرار "أبو عيشـة" يشـيل حولة العدس، قضيت في الرحلة ثلاث ليال في جـو الشـتاء الكافر، دخلت به شونة البلد، ورفع الحمالون الأجولـة إلـى الميزان، ورحت أترقب النهاية لأعود إلى داري، ألم عظامي في دفء الغطاء، وأستسلم لنوم عز على عيني لأيام، ولكـن هذا الأفندي عديم النظر ينظر إلي في الختام ليقول: الحمولة ناقصة عشرة كيلو.

قلت في نفسي: نهارك أسود. وقلت له: يا أفندي اعتبرها خطأ في الميزان.

قال: يدي تزن الذهب. قلت: اعتبرها فاقد طريق. قـال: لازم تحسب عليك فلم أع كيف رفعت يدي إليـه، وأمسـكت بياقة قميصه لأضرب رأسه في الحائط حتى سال منه الـدم، وسبقته إلى المركز لأقدم الشكوى، وكان المأمور ابن حـلال بحق، ضغط على الأفندي ليوقع بالاستلام اسـتجابة لرغبـة أبو عيشة وهو صديق له يقضي معه السهرة في داره.

ولكني خائف من هذا المأمور الجديد، و"أبو عيشة" بالتأكيد ليس طرفا في هذا الموضوع الذي طلبني من أجله.

واتجه بي سيد نحو الحجرة المكتوب على نحاسـة بابهـا المأمور، ارتقينا الدرجات الثلاث، وعبرنا بـين الـدرابزين الساقط عليه ثوب أصفر شفيف نشرته الشمس الغاربة.

ورأيتهما على الكرسي العريض فـي جانـب الحجـرة، والمأمور يميل على أوراقه مشغولا بهـا، فارتـاح قلبـي، انحرفا بوجهيهما بعيدا لا يريدان النظر إلي، بعد أن حدجاني بنظرة الاحتقار التي تليق بفعلتي مع ابنتهما، ضـرب سـيد بلغته على خشب الأرضية، ورفع كفه المفرطحة إلى أعلـى ذوائب عمامته "تمام يا أفندم" فانتفض المأمور المستغرق في أوراقه، وألقى نظرة موبخة لهذا الجلف الـذي دخـل عليـه كالقضاء المستعجل. وأشار إليه بظاهر كفه كمن يطرد عـن وجهه ذبابة ملحاحة، فعاد سيد بظهره، وتقدمت أنا لأقف في مواجهة سيادته، ولم يعزم علي بالجلوس، سألني عن اسـمي وسني ومهنتي، فأجبته بأحسن لسـان، وبمنطـوق واضـح لا خلل فيه، ولا اضطراب، بعد استعادتي ثقتي لنفسي، وبعد أن ألجمت القلب الخائف، وأدركت تفاهة الأمر، وانحرفـت

بدانة المأمور نحوهما وسألهما وهو يدفع قلمه الطويل جهتي، هو الشخص المذكور؟ وانحشر الرد في الـبلغم المخـزون، فتنحنحا في آن معا، وقالا في نفس واحد: أيوه هو يا أفندم.

فاستدارت البدانة المحشورة في الكرسـي العتيـق إلـي، وارتكز المأمور بوعيه على الورق المفرود أمامه. وانـدفع النسران المحبوسان على الكتفين ليبرقا في نور اللمبة المدلاة من السقف: يا أسطى يسري لهذين الرجلين حقوقـا عنـدك فلماذا لا تدفعها؟ قلت له: يا أفندم لم يأت أحد من قبل ليخبط على داري ويطالبني بها، ثم إنني لم أنكرها من قبل، وعليهما إثبات ذلك، ثم كان من الأولى أن يحضرا إلي قبل القدوم إلى هنا ويزعجا سيادتك.

فطافت بسمة على سمنة وجهه، وصر الكرسي تحته حين عدل ظهره إلى الوراء قائلا: يا سيدي لم نخسر شيئا، كانـت فرصة لنراك ونرى الرجلين الطيبين يعنـي أنـت معتـرف بحقهما؟ قلت: يا سيادة المأمور هذا ليس بحقهما إنه حـق الله ولا يجوز النكران، بيني وبينهما القسيمة ليأخذا كل ما هـو مسجل فيها. فزمجر الرجلان، وطرقت أذني كلمـات مثـل "المؤخر" و"النفقة" غطت عليها كلمة المأمور: عداك العيـب،

وأشار إلي بالجلوس، فأخرجت المحفظة من جيبي وسـحبت الورقة المطوية، وفردتها أمام عينيه، فقال للرجلين: هنا بيان بالأثاث والمصوغات، والجملة ١٥٠ جنيها.

فزاما مرة أخرى، وتحركا من موضعهما ليريحا جلستهما قليلا، وقال أحدهما: ما تراه سيادتك ولحقه الآخـر بقولـه: ولكنها "ولية" ولها مثل الأخريات مؤخر متفق عليه من قبل، فوجهت كلامي للمأمور: مؤخرها خمسون جنيها، وذلك مـن خمس عشرة سنة فأجعله مائة على خيرة الله.

فهز المأمور رأسه، وضرب بالقلم علـى شـفتيه وعلـى جبهته العريضة، وسأل: ومستعد للدفع؟

فقلت: يا سيادة المأمور أما عن العفش فهو شيء لا يذكر، بقايا خشب أتت عليه القراضة والسوس، فـلا يعـود ينفـع لشيء، وعندي أخت مريضة تنام عليه في الدار، فبدلا مـن رفعه من تحتها، فتخلو داري من كل أثـاث، أدفـع المبلـغ الموضح بالقسيمة وعليه المؤخر وبالزيادة علي.

فاندفع أحدهما ليقول بعصبية: عفـش بنتنـا ولا يـنقص خردلة.

فأشار إليه المأمور بالصمت، وعاد ليسألني: وهـل أنـت مستعد للدفع الآن قلت: معي مبلغ قليل أدفعـه مقـدما، أمـا الباقي فيأخذان به ورقة على ضمانة سيادتك. حاولا الرفض والامتناع غير المأمور حسم الأمر وكتـب الورقـة بيـده، ودفعت ما كان بجيبي، وقمت من عنده بوعد ألا يمر شهران بدون قضاء هذا الدين، وخرجت لأسير في هـواء الشـارع الذي مسح عن جبهتي عرق الحبسة في الحجـرة المغلقـة، ورأيتهما يندفعان إلى ليبصقا بغل وليرمي كل واحد منهمـا سبة تريح نار صدره الملتهبة "يا ندل يا قليل الأصل" "تأكلها لحما وترميها عظما" "هي بنت أصول وستتزوج سيد سيدك"، وأنا تفاديتهما، ودخلت الأزقـة الضـيقة التـي يجهلانهـا، وتركتهما وراء ظهري في الشارع المسفلت، لا يقدران على تجاوزه حتى لا يضلا طريقهما في البلاد الغريب.

وقال يسري: وبهذا تنتهي حياتي كلية مع سعدية وعلي أن أبدأ حياة جديدة.

قالت زبيدة: الحمد لله أنك تخلصت منها، ولا أعرف كيف كنت تحتملها، أنا نفسي كنت أقرف منها، ولا أستسيغ لقمتها، يكفي العمر الذي قضيته معها دون فائدة ليصـلح الله حالهـا

ويوفقها مع كهل لا يريد منها غير الخدمة.. أما أنت فعليـك تعويض ما فات، أبحث عن بنت شابة تملأ دارك بالذرية، أما عن خدمتي فلا تهتم. سيأخذ الله بيدي، وبقدر طاقتي سأعمل على خدمة نفسي فلا تشغل بالك، والبركة في الخالة سنضغط عليها لتبقى معنا هذين اليومين، ولا حاجة لابنة العـم التـي تتأفف حتى من التردد علي للسؤال عن صحتي، ولا حاجـة لأحد من القريبات فكلهن يتهربن مني كأني أحمل الطـاعون في صدري.

قال حسين: حاشا لله، أنت تأمري، كلنا تحت أمرك، فأنت أخت لنا ولكن كما تعلمين كلنا مشغولون، وزبيدة أختي كـان الله في عونها، لا يمكن لأحد منا تصور قدر معاناتها، وأنا – يا ولداه – أراها كلما دخلت حجرة "العدة" جالسة في الشباك ساندة رأسها على خدها أصبح عليها وأمسي فلا أكاد أسـمع لها ردا، وفي مرات كثيرة أرى الدمع يسيل علـى خـدها، وكلما رأتني تسرع إلى كفكفته، وفـي كـل مـرة أحـاول الاقتراب منها لأطبطب على كتفها وأسألها. مالك يا زبيـدة؟ فيه حاجة؟

وتكتفي برد أحس فيه العتاب وفقدان الأمل فينـا جميعـا كإخوة: متشكرة. فأرجوكي لا تلومينها، خالتك أولى النـاس بخدمتك، فهي لا ضرورة لها في دار أخيها، عنده زوجة تهد الجبال، وهنا – سينوبك من الله الثواب – ستجد اللقمة النظيفة والهدمة النظيفة والنومة النظيفة.

وقبل كل شيء على يسري التفكير بجدية في بنت حـلال لتحي هذه الدار، وأنا أعرف أن اليد الآن قصـيرة، ولكنـي أقول: البركة فيك، فكل شيء مرجوعه لشجرة أبيك، بيـدك أنت أحياؤها، ثم إني – لا مؤاخذة وهذا تطفل مني سمعت أن زوجك لا يدفع لك حقك كما ينبغي، ولم أره يهتم بزيارتـك منذ اليوم الذي تركك هنا، وكان الأولـى لـه أن يرعـاك، ويستطيع – والحمد لله – أن يكتري لك خادمة تهتم بشئونك.

فأنا أقول – والأعمار بيده وحده – بعـد عمـر طويـل لا يستحق أن يأتي لينافس أخاك في أرض أبيك ودار أمـك، ونصيبك من الطاحونة، فاسمحي لي بمزيد من التطفل لأقول: عليك من الآن تسجيل كل هذا في عقود رسمية باسم أخيـك، وأنت عاقلة ولله الحمد ولا ترضى أن يؤول خير أبيك إلـى غريب، أنا أعلم أني أتكلم في موضوع حساس، ولكني أعتقد

أني أقول الحق، والرأي رأيك في النهاية، وكلنا يتـردد فـي صدره النفس، والروح ملك صاحبها، ولا ندري ما مصـيرنا غدا "ولا تعلم نفس بأي أرض تموت..".

وعلى كل حال منظر هذه الدار لا يعجبنـي، وإذ كنـت تخشين يسري ليغدر بك بعد أن تكتبي له أنصبتك، بإمكاننـا كتابة ورقة مضادة نوضح بها أنه لا يجوز التصرف في هذه الملكية إلا بعد عمر طويل، وأنـا مسـتعد للتوقيـع عليهـا وأترككم الآن بعافية لأني جوعان وما زلت كما ترون بهدوم الشغل علي أن أزيلها عن بدني، وأشطف جسمي وآكل لقمة وأريح دماغي قليلا من دوشة الطاحونة، ولا تنسى يا يسري مشوار الغد، سأجمع كل البنات في الدار الكبيـرة، وسـأمر على الدار لأسأل عما إذا كان ياسر قد جاء سفره، والخـوف من أن "يطنش"، ويستهتر بهذا المشوار، فحضـوره واجـب وإن لم يأت سأضطر المرور علـى السـنترال لأشـد لـه "تلغراف"، ربنا يهد حيل حسن كما هد حيلنا.

وفكري يا زبيدة فيما قلت لك ستجدينه عين العقل.. والله.

الخروج الأول:

وقفت العربة "البيجو" الطويلة البيضاء في الجرن، فخرج على صوتها الصبية من ظلمات الدور الطينية وأحاطوا بها، كانوا يلبسون الهدوم المهلهلة، يقفون بأقدام صغيرة موحلـة على القش المتناثر، يهشون الذباب عن وجوههم، ويبحلقـون بشراهة في العربة.

انفتحت الأبواب من الجانبين، ونزل منها الأولاد والبنات، سار الأولاد جهة الجسر والبنات من خلفهم بجلابيبهن السود وطرحهن الخفيفة.

التفت حسين ليقول ليسري: ربع ساعة.

الدور الصغيرة الواطئة تفتح أبوابها المهشمة على الترعة الصغيرة، يسبح في مائها البط، وينام على طينها وز أبيض.

سألت زينب: حنمشي كتير؟

رد حسين: بابها المفتوح ده.

مروا على غرزة يجلس على مصطبتها رجـال يرتـدون الخلع الممزقة تدور بينهم الجوزة.

قال الأولاد للرجال: سلام عليكم.

فردوا جماعة: سلام ورحمة الله وبركاته.

ولم يعودوا إلى الجوزة حتى ساروا مسافة طويلـة، ودار بينهم الهمس.

قالت زينات: بيبصوا قوي.

قال زبيدة: زمانهم بيسألوا رايحين فين؟

قال حسين: فيه حاجة خافية.

قال حسان: أكيد عارفين.

دخل حسين من الباب المفتوح، ووقف حسان مع البنـات بالخارج، كن ينظرن من تحت الطرح إلى المكان، وشـاهدن الرجلين يجلسان على المكتب القديم المرتفع بخشب حبيبـي، فوقهما كانت صورة عبد الناصر والصورة الأخرى كانـت لفلاح مع امرأة يضحكان بابتهاج بينهما ولد صـغير يطفـر السرور من عينيه السعيدتين، وعلى يد المرأة رضيع تـرك الثدي الكبير الممتلئ لينظر إلى الأمام، وقرأ حسـان أسـفل الرسم "محصول وفير = حياة سعيدة".

سألت زينب: هو كدا بس؟

قال حسان: أنت فاكره إيه؟

قالت زبيدة: حرام والله.

قالت زينات: يتعلموا ويتعبوا والآخر يقعدوا على مكتب زي دا.

قال حسان: بيتعاملوا مع فلاحين.

سمعوا أخاهم الأكبر ينادي عليهم من الداخل: تعالوا.

فدخلوا المكان المظلم، لا تضيئه غير نافذة وحيدة بقضبان حديد، تكدس تحتها صناديق مرسوم عليها جمجمة وعظمتان متقاطعتان، قام لهم الرجلان فمدوا لهما الأيدي من فوق رأس حسين الذي جلس على الكرسي المواجه للمكتب، قال أحد الرجلين: تفضلوا ونادى الآخر بأعلى صوته: يا عبده.. هات كراسي.

ظهر وجه عبده وراء قضبان النافذة، وسأل: منين؟

قال له: تصرف.. من أي مكان، شوف في المخزن.

قالت زينب: ومفيش كراسي كمان؟

قال الرجل الذي يرتدي بدلة كاملة: معاش.. الناس هنا واخده على الحصير.

قال حسان: مش مهم.. نخلص على طول.

قال الرجل الذي يرتدي القميص الأبيض: لسه حناخد وندي.

قال حسين: معنا عربية، والسواق ليقلق.

قال الرجل الذي يرتدي البدلة الكاملة: الدنيا ما طرتش.

دخل "عبده" بكرسيين ضعيفين ثبتت مسـنديهما خشـبتان غليظتان، قام حسين عن كرسيه وقدمه لـ زبيدة، وظل هـو وحسان واقفين، ثم اكتشف حسان أنه بالإمكان الجلوس على طرف المكتب المترب المركون في الركن، واكتشف حسـين الصناديق فجلس على واحد منها، وسأل: خير؟

قال الرجل الذي يرتدي البدلة الكاملة: أنا "عبد الواحد".

قال حسين: حضرتك المشرف. قال عبد الواحد: والمكلف بموضوعكم.

وطلب من زميله فتح الدفتر ليسجل الأقوال.

تهامست البنات بصوت مبهم، فنظر إلـيهن وقـال: مـا تخافوش.

قالت زينب: الله يجازيه.

وقالت زينات: مجرجرنا في كل حتة.

قال الرجل الذي فتح الدفتر: مفيش ميراث بالسهل.

قالت زبيدة: أنا شفت الرجل دا.

سألت زينات: فين؟

قالت زبيدة: الصبح كان على القهوة معاه.

سألت زينات: قهوة مين؟

قالت زبيدة: القهوة اللي قدام "السنترال" لما التاني لمحنـي زغده فدور وشه.

قالت زينب: ما تنسيش أن التاني عضـو فـي جمعيـة زراعية.

قال عبد الواحد: المساحة سبعة فدادين.

قال حسين: أيوه.. وبيدعي أنه له اتنين.

صرخت زبيدة: فدانين أمه.. لا مؤاخذة يا حسين.

قال عبد الواحد: يا ست حلمك شوية، ومعاه إثبات؟

قال حسان: سرق العقد المسجل من دولاب المرحوم.

همس عبد الواحد بكلمة في أذن زميلـه، وسـأل: وأنـتم معاكم ما يثبت؟

قال حسين: المرحوم كتب عقد ابتدائي بالفدانين مع أمـي بيع وشراء ولو كان ما يطلبه حق شرعي كنت من باب أولى أطالب به أنا راخر، ولأني أعرف أن الحـاج كتـب عقـد إجمالي بخمسة فدادين باسم أمي أيام شـرا الأرض، لأنهـم ماكانوش يسمحوا بأكتر من خمسة، كان له اتنين منها وتلاتة

للحاجة أختي، وهي سرعت بتسجيل نصيبها والحاج أهمل التسجيل واعتمد على العقد الابتدائي.. إنما تقول إيه في الطمع!

قال عبد الواحد: بدل الجري في المحاكم قعدة المصطبة أحسن.

قالت زينات: هو اللي عاصي.

قال عبد الواحد: احنا جهة غير تنفيذية، ولا نقدر نعمل حاجة إلا بموافقة الورثة.

وقال الآخر الذي يرتدي القميص الأبيض: علينا تثبيت الوضع على ما هو عليه في إعلام الوراثة، وأن رفض حد من الورثة القسمة منقدرش نقسم إلا بحكم محكمة.

قالت "زينب": محكمة إيه؟ يخبط راسه في الحيط.

ظهر رأس عبده من النافذة، تعلق بيده في القضبان، وظل ينقل نظره بين الجالسين، لمحه عبد الواحد فصاح: بدل وقفتك رح هات شاي للجماعة.

قال حسين: لا شاي ولا حاجة.. عايزين نخلص.

قالت زينب: شاي إيه!

سأل عبد الواحد: وأنتم كل الورثة؟

قال حسين: ينقصنا واحد بس مسـافر، والحاجـة طبعـا منحازة معه.

قال عبد الواحد: هو بس المدعي.

أمالت زبيدة رأسها في أذن أختها وهي تنظر إلى الجـدار أعلى رأس الرجل الذي يكتب، ابتسمت أختها، وسألت زينب: فيه إيه؟

قالت زينـات: أبـدا.. بتقـول لسـه معلقـين صـورة عبد الناصر؟

أدارت زينب رأسها إلى الجدار، ونظرت إلى الصـورة، قالت: آ.. والنبي.

قالت زبيدة: أنا شفته على القهوة.

سألت زبيدة: والتاني كان معاه؟

قالت زبيدة: بقولك زغده في جنبه.

قالت زينب: والنبي لأسأله.

قالت زينات: بلاش إحراج.

مشوار المدينة:

قالت له: أتذكر يا ياسر يوم كتبت لـي الرسـالة بـالقلم الرصاص؟ لكم كبرت.. لو كنت أنجبت لصار لي ولد فـي سنك، أو أصغر منك قليلا، ضحكنا للهجتك، وعلـى خطـك المنعكش، كان كل سطر نازلا من أول الصفحة إلى آخرها، وقال كمال يومها أن خطه عطشان جدا فهو ينـزل البحـر جريا، وطلبت أمي سماع الرسالة، كم كان سنك يومها؟

- كنت في السنة الرابعة الابتدائية؟

- وأنا يا أبلة أحبك جدا، وأنتظر زيارتك الصيفية بفـارغ الصبر، حصلت على إجازة آخر العام، ولا أجد ما أفعله، كل أصحابي هنا عندهم كرة من الجلد يلعبون بها، وأنا لا أمتلك كرة مثلهم، وأبي يرفض أن يشتري لي واحـدة، فـأرجو أن تشتري لي واحدة من الإسكندرية الحلـوة، وترسـلينها مـع خالتي، أو تحضرينها عند الزيارة.. وأرسـلت لـك واحـدة كبيرة.

- قضيت المدة انتظر عودة الخالة، وحين سـمعت أنهـا جاءت من زيارتكم، علمت أني أزور أبي الذي كان يقضـي مدته على ميزان الطاحونة، قعدت أمامه أرقب بابكم، رغـم

أنني في مثل هذه الزيارات أحاذر ألا تراني الخالـة، لأنهـا دوما تفتش جيوبي لترمي ما جمعت من مسـامير وأغطيـة الكازوزة وحبات النوى، وتطلق السباب لأمي لإهمالها لـي وعدم عنايتها بنظافتي، ولمحت الخالـة مـن بـين زجـاج الشراعة، وبقيت على قلقي حتى أشارت إلي، وذهبت إليهـا، وهي – رحمها الله – جعلتني أترقب فترة طويلـة، لترصـد ملامح وجهي حتى رفعت السلة التي كانت تشيل فيها الزيارة لتخرج كرة خضراء كبيرة، وأخي "حسـان" – جـزاه الله – طلب أن ألاعبه بها، ولكني رفضت، لأني ألعب مع زمـلاء المدرسة، وهو الكبير عليه بالبحث عن أصدقاء مـن سـنه: وحشر أبرة الخياطة في بوز حذائه، وعاد ليطلب أن يشـوط بها مرة واحدة، وكانت هذه الشوطة هي نهاية الكرة وصارت تحمل رقعة حمراء كبيرة من غير لونها. فشوهت، ولم تعـد كرة جديرة بالفخر أمام الزملاء.

- أنا أذكر زيارتك لنا مع أمك، كنت صغيرا، أعتقد أنك لم تكن قد دخلت المدرسة بعد.

- كنت في الأجازة ما بين السنة الأولى والثانية ابتدائي.

- وكنت تجيد تقليد الأشخاص، لقد قضينا حولك سـهرة ممتعة، ضحك فيها كمال كما لم يضحك أبـدا، نقلـت إلينـا شخصيات البلد بحذافيرها، قلدت الخالـة، وزوجـة أبيـك، وشحاته الخياط، وكامل القهوجي.. وغيرهم.

أتذكر يوم تشبثت بتلك البجعة الزجاجية الممتلئة بالصبغة الحمراء؟

- كانت أمنيتي الجميلة.

- تعلقت بها، وزجرتك أمك، غير أن أمي قالت سأشتريها أنا من مالي، وانحرفنا إلى الرجل الـذي يصـف البجعـات الرقيقة على صندوق فوق طاولة بشارع صفية وسألت أمي: بكم يا عم؟ فرد: بخمسة قروش للواحدة، ورفعت أمي واحدة من منقارها الرفيع لتقول: كم يا أخويـا؟ فأجابهـا الرجـل باشمئزاز: قلت بخمسة قروش، قالت: ولكنها غاليـة جـدا.. نأخذها بقرش؟ وهوووب، انقصفت رقبة البجعة، وسـقطت على الأخريات فحطمت خمسة منها، وسالت صبغتها كأنهـا الدم، وجرينا جميعا، أنا أجرك من يدك، وأنت مصر علـى النظر إلى البجعات باكيا مصمما على امتلاك واحدة، وأمـي وخالتي يهرعان بالجلابيب السود يجمعان الطرح التي نشرها

الهواء، والرجل من ورائنا: يا فلاحين يـا بهـايم.. حقـي يا أولاد الكلب ويقف زحام الشارع ليتفرج علينا، ولم ينقـذنا إلا الأتوبيس الذي انحشرنا فيه على عجل.

- ويوم زرنا صديقتك التي تسكن الشقة بالدور الرابع في عمارة تطل على البحر، دخلتم أنتم حجرة الصـالون التـي بهرتني نجفتها الكبيرة وأثاثها اللامع الذي يمـلأ مسـاحات الشقة الفخمة، كانت أفخم شقة دخلتها في حياتي، ولا أنسـى المرايا التي تمتد بطول السلم من الدور الأول حتـى آخـر العمارة، كل هذا بهرني، وأنتم أجبرتموني على الدخول مـع أطفال صديقتك لأتفرج على التليفزيون، وكنت حديث العهـد به، لم أره إلا في زيارة لأختي الحاجة، ورفضت مصـاحبة العيال لأني مرتبك وخائف من كشف لهجتي الفلاحي وتفاهة ملبسي الذي شكلته أمي، قميص من هنا وبنطلون من هنـاك وحذاء عثرت عليه عرضا، فكان لابد أن أصرخ حـين أرى البحر وأنا على هذا الارتفاع، كانت الشرفة مفتوحة، وأنوار الإسكندرية تتماوج مع ماء البحـر السـوداء، فصـرخت: الحقوني.. الحقوني.. الدار بتقع.

فضحك الأطفال للهجتي، وسخروا من رعبي، وواصلت الدق على الباب، وجاءت صديقتك لترفعني إليكم في الصالون، بوجهي الذي هرب منه الدم.

- كانت خالتي – الله يرحمها – تعزك جدا، مرة جاءتني في زيارة مع أمي، ونزلنا محطة "الرمل"، أبحث عن خالتي التي كانت تجلس خلفنا مع امرأة اشتبكت معها في حوار كأنما تعرفها من ألف سنة، ولم أجدها، ورحت أنا وأمي نبحث عنها ما بين محطة الرمل والمحطة السابقة، وأخيرا عثرنا عليها تخرج من محل يبيع الكتب وبيدها كتاب لتوفيق الحكيم، ما هذا يا خالة؟ وترد علي: يعني إسكندرية حتكلني.. ناسها عرب زينا. وما هذا الذي بيدك يا خالة؟ قالت: شفت الكتب في "الفاترينة" قلت لنفسي لابد من هدية لياسر وهو لا يحب شيئا في الدنيا حبه للكتب، وتاهت مني الأسماء التي يرددها أمامي ولكني تذكرت اسما منها فقلت للرجل: ما لقاش عندك يا أخويا كتاب لطه الحكيم، وطلع الرجل ابن حلال عرف أني...

ودخل يسري ليقطع سيل الذكريات، ويفرك يده، ويقول لياسر: خلصتم حكايات، بنا نقضي ساعتين "روقان" مزاج.

واستأذن ياسر من زبيدة ودخل مع أخيها الحجرة الأخرى، فوجد يسري قد أعد الجلسة على سنجة عشرة، النار مدفونة بالموقد، والحجارة مصفوفة مدعمة بالمعسل وقطع الحشيش الصغيرة، والجوزة نظيفة ينضح ماؤها البارد على ورقة الجريدة المفروشة، واختار ياسر الشلتة بين السرير والكنبة، وسحب اللفة التي كان قد أعطاها ليسري وفض عنها الورقة.

- من مصر؟ أكيد.

- أبدا من هنا.

- أعوذ بالله.. لا نصيب لي فيها.

- أنا لا أفهم في الخمر وأحضرتها خصيصا لك.

- لا يا عم توبة، لن أضع على لساني قطرة من خمر هذه المخروبة.. اشرب وحدك.

- أنا أعرف أنها كمية من السبرتو.

- توكل أنت على الله.. الكباية قدامك.

وبدأ يحرك النار المدفونة، ويسحب الجذوات المصهللة إلى المصفاة ليهشمها بيد الماشة وينفخها فتصحو حباتها

الياقوتية، وينقلها إلى الحجر تلو الحجر، متنقلا بالغابة بينه وبين ياسر الذي جرع من الزجاجة دون حاجة للكوب.

- عرفت أن المركز طلبني؟

- خير!

- الست سعدية بعثت رجالها ليطالبوا بحقوقها.

- وكيف تصرفت؟

- ولا حاجة، وقعت لهم على ورقة بالمبلغ المطلوب.. تصدق أن أخاك حسين ولد شهم.

- أول مرة تعترف.

- صحيح.. استطاع مواجهة زبيدة ليطلب منها كتابة الدار ونصيبها في الأرض والطاحونة باسمي.

- شجاعة يحسد عليها، وكيف كان جوابها؟

- نزل عليها سهم الله، وهو قال الكلمتين وجري.

- المهم التنفيذ.

- يتهيأ لي أنها ستفعل.. لكنها بحاجة لدفعة أخرى.

- تعرف أن علاقتي بسامية انتهت تماما.

- تقلبات عاطفية.

- لا.. هذه المرة بجد، بعثت لها زبيدة برسالة في الزيارة الماضية أقول لها أن ما بيننا انتهى إلى الأبد.

- واشتريت الزجاجة لتنسى؟

- أنسى هم الدنيا كلها، وهم العائلة التي دخلت دواماتها، وهم مشوار المحكمة في الغد.

- دعك من المحكمة.. أظن القطيعة تكررت بينكما؟

- هذه المرة هي النهاية، فهي تـرى الطريـق مفروشـا بالورود، وأنا أراه مسدودا تماما، هي ساذجة لا تعرف شيئا، وأسوأ من هذا تراني فارسا مغوارا سأصحبها إلى الفردوس الحقيقي، وهذه مسئولية، المستقبل الذي أراه لا موضع فيـه لأقدامنا لأنه سيدوس بوحشية على أحلامنا الخضراء.

- وأنا أؤكد أن هناك عودة.

- أنت لا تعرف شيئا.. هل أعيد عليك ما قلت ألف مرة، العدو في الدار.. العدو في الدار وخنجره مسلطا على الرقاب والذبيحة مشلولة اليد.

- قلت لي مرة إن أحدهما لا أذكر اسـمه قـد ضـرب الأرض بقدمه، وصاح في المحكمة بعد أن تظاهر بـالتراجع

عن أفكاره "لكنها تدور" وأنا أقول لك بعد هذا الكلام "ولكنك تحبها".. مساء الورد.

- اليوم نلبد في جحورنا، نعاني صراع الكـابوس الـذي نراه بوضوح ولا نملك الخروج منه بمجـرد حركـة مـن أجسادنا.

- معنى هذا أن أبحث لنفسي عن حفرة وأدفن..

- لا تسخر أرجوك، فاكر زمان لما كنت أشكي لك أنـي لا أقدر أقول لها "بحبك" فاكر لما كنت أكلمك عـن حلمـي بمصاحبتها في مشاويري بين الغيطـان، أقطـف لهـا وردة حمراء، أزرعها على صدرها، وأنام عليه أحرسها.

- مساء النور على البنور.

- خربشتنا الدنيا، زمان قدرت أقول لها بالعافية: عـاوز أشوفك، ولما حدث ذلك، قعدنا لا عارفين نبدأ، ولا عـارفين نتكلم، كل واحد منا ساكت يسمع صوت قلبه الخائف، وقلـت كلاما كثيرا لا صلة له بالموضوع، وكانت تنصت وتتبسـم، ولما أفكر أني أرفع يدي أحطها على يدها، كان جسمي كلـه يترجرج وأدوخ، كلمتها عما قرأت من كتب، ولمحـت مـن بعيد لقصة العاشق في الأم فرتر وابتسمت، وسألت: معقول!!

فيه عاشق ينتحر علشان حبيبته؟ وقلت لهـا: وفيـه أكثـر. وكلمتها عن جنون "قيس" وقرأت لها مـن أشـعار "جميـل" و"كثير".

- كنت "روميو" ولا أعرف.

- في قطيعة قبل هذه كتبت لها رسالة أنهي فيها العلاقة، لم يمر أسبوع وكنت أدور حول بيتها كالمجنون، وكنت أمر على شارعها المظلم، وأشوفها من شراعة الباب فـي نـور الصالة، تقص قماشة، أو قاعدة على الماكينة تخـيط هـدوم الصيف، وكل مرة كنت أمنع نفسي من الخبط على البـاب، وكنت أمنع نفسي من الكتابة إليها وأقول: سامحيني.

- وفي هذه المرة ستقول سامحيني.. اشرب.

- اسمع.. ولا تقاطعني.

- طيب.. أغير الجوزة.

- غيرها من ماء القلة، بعد ذلك تجرأت وحصلت علـى موعد في القاهرة، انتظرتها على المحطة. ولما القطار دخل بين الرصيفين، رأيتها نازلة في زحمة الركاب، ضحكت لي من بعيد، وقربت أنا منها، أمسـكت يـدها، وأخـذتها إلـى "الكافتيريا" كانت ممتلئة برائحة الدخان والقهوة، وقعدنا تحت

الشباك نبص على الميدان، ونتأمل رمسيس وهو يرش الماء من قدميه في الحوض الواسع، ولم أصدق أني أجلس معهـا على نفس الطاولة التي ألتقي عليها بالصديق الـذي يمـدني بالورق السري، ولما الشمس لسعتنا، قلت لها: نمشي.

قالت: نروح فين؟ قلت لها: الشـقة، ابتسـمت محرجـة، وقالت: نتمشى في الشوارع أحسن، قلت لها، الـدنيا حـر. وسألت: صاحبك في الشقة؟ قلت لها: في الشغل.

- تحت السواهي دواهي.

- ومشينا في الشارع الطويل الضيق، نخبط في أكتـاف الناس، وهم يخبطون في أكتافنا وأنا ممسك بيدها العرقانـة، مرة نمشي بجنب، ومرة تفلت اليد، وأرجع فأمسكها، كنـت أريد تحويط وسطها بيدي، لكني خجلت، وقلت لنفسي: هـي كمان حتكون مكسوفة، ووقفت أشتري سجائر مـن الـدكان، كانت هي سبقتني بكم خطوة، وشفتها من ظهرها في الجيـب الخفيف والقميص نصف الكم، وكان شعرها يلمع بالفـازلين وينزل على أكتافها التي ظهرت منها ملامح باهتـة لحمالـة "الستيان" وكان عرقوب رجلها ناشفا، ويضرب بشـدة مـع الجزمة على الأرض المبلطة بطوب أسود، وأشفقت عليهـا،

وساعتها ماتت الرغبة العنيدة، وساعتها تمنيت الفرار منهـا، لأدخل أول عطفة على يميني، ولكنهـا نظـرت وراءهـا، وركنت على جنب بانتظاري، ومدت يدها لتأخذ كفي، ومشينا في الحارة، مات بوجهي على الأرض، وقلت يا رب ما حـد ياخد باله، وتشجعت، وقلت: يا رب ما تاخـد بالهـا أننـي مهزوز ومتردد.

- خد نفسا.. الله يجازيك علقت أنفاسي.

- وفي الشقة.

- كفاية وقف.

كان نور الشمس القوي يتسرسب من الشبابيك، ومفروش على الحيطان، وفوق السرير على شكل خطوط، فخففت من هدومي، وقلت لها: أجيب لك بيجامة من بتوعي؟ ضـحكت، وقالت: كدا أحسن.

- كفاية خلصت الزجاجة.

- ارتعشت أصابعها وهي نائمة في كفي، ونفض عـرق في رقبتها لما مشى عليه إصبعي، وشـفايفها فلفصـت لمـا أردت لمها في قبلة.

- بووب.. بووب.. بووب.

- دفعتني بحنان على كتفي، وقالت: لا.. وانشغلت أنا بفك زراير قميصها وانفرط منها نهد صغير طـل مـن ظلمتـه ووصوص بخوف لمرآي، وعيناه بربشت كأنما لم ير نـورا في حياته، وقالت: لا.. ودفعتني بحنان على كتفي، ونزلـت بالراحة على ظهرها المحبوس في ذراعي.

- وتقول أقدر أنسى.. أقطع ذراعي أن ما رميت التماسي قبل ما تدخل دارك.

- أنا أدرى بنفسي.

- لو كنت تدري ما اشتريت خمـرة فاسـدة مـن هـذه المخروبة.

- حاجة تلطش الدماغ والسلام.

- ما حكيته هذا ليس شيئا، أنا أقص عليك حكايتين مـن تجربتي.. وأخذتها في أية شقة؟

- شقة شارع "الفلكي".

- فاكر أيامها.. في أول أيامك بالقاهرة جئت إلى مسكني، وذهبت معنا إلى المطار لنودع زبيدة حيث تلحـق بزوجهـا ويومها، كنت تنفخ من الغيظ، وتعاني الإحساس بالغربة، وأنا

قلت لك أصبر، غدا تقطعها ثلثا، ولا نقدر على لمـك فـي شوارعها.. وحصل.

- حصل بعد مجاهدة شديدة.

- بعد أن تركت السكن في هذه الحجرة الوحيـدة فـوق السطح، في شارع الفلكي كنت قريبا مني، أمر عليك مسـاء كل خميس لأجلس إلى جواري في التاكسي، ونقطع القـاهرة طولا وعرضا، وأعود بك إلى مسـكني، نتعشـى، ونـدخن الأنفاس، وتنزل أنت آخر الليل متسلطنا.

- وكانت سعدية تجلس في مواجهتنا، وأنت مـن حـين لآخر تقول لها: قومي من أمامنا يا امرأة. وهي ترد عليـك واللبانة تحت لسانها: إيه يا يسري أنا قاعدة. وأخيرا تقوم بعد أن تقول لها: سنتكلم في قلة الأدب.

- وذات صبح نزلت من الشقة لأجد عمال حلوان يسدون الشوارع من أول محطة باب اللوق حتى دخلوا علينا شارعنا بحي "الشقافة" وخفت عليك، وظننت أنك ستلحق بهم، وذهبت إلى شقتك لأجدك مستغرقا في النوم وقلت لك: اصحى يا عم أنت نائم هنا بينما الثورة هاجت في الشوارع. وصحت وأنت تدعك عينيك : فين؟ فين؟ وأخذتك من يدك إلى بوابة العمارة

وأشرت إلى زحام العمال الذي يملأ الشارع، وقلت لك: أليس هؤلاء هم الطبقة التي تتحدث عنها كتبك؟ وعـدت بظهـرك لترتدي هدومك على عجل، حاولت منعـك لأنـي أول مـن سيسأل عنك في البلد، ولكنك رميت بنفسك في الزحام، أيامها كان من السهل تصديق كتبك لأن الأمور كانت عيانا بيانا في الشوارع، كان لا يمر شهر دون مظاهرة أو إضراب، أنت لم تحضر مظاهرات الطلبة؟

- جئت إلى القاهرة على حسها، وكانت الجامعة تعـيش على ذكراها، ولكن ما الحكايتان اللتان تقصهما علي؟

- حكايتان داعرتان.. ولكنك أنت الذي بدأ.

- ماشي.

- السر طبعا في بئر.

- طبعا.

- أبدأ بحكاية البلد أم بحكاية القاهرة؟

- ابدأ بأية واحدة وخلصني.

- ابدأ من هنا الأول.. بعد وفـاة أبـي أجـرت الأرض لعبد الهادي ذلك الرجل الذي تراه يرعى الغنم الآن. وكـان المفروض أن أمر عليه قبل الفجر ليلحـق دورنـا فـي ري

الأرض، وقضيت ليلتي في غرزة "الجعان" وضيعت بعـض الوقت في دفء الدار، لا يغمض لي جفن حتى أفي بوعـدي فأوقظ الرجل، وسرت في جليطة الفجر تحوطني الشبورة من كل جانب، وأنفخ البخار من فمي، ولم تفلح الكوفية والطاقية والجاكتة في منحي الدفء، ووجدتني أعطس فـي دفعـات مفاجئة، وطرقت على الرجل داره، فهب الدفء من داخلها، وكانت زوجته قد قامت لتفتح وهي مبلولة الشـعر، وفهمـت أنها خارجة لتوها من الطشت، فما زالت بقع الماء مرشوشة على ثوبها، وسمعته في قاعة الفرن ينزح الماء إلى جسـده، كانت ليلة جمعة، لا أكتمك كانت المرأة شهية للغاية، ويبـدو أن أخانا لم يشبعها، وهي المرأة الشابة الريانة التـي يحـدد ثوبها فلقتي مؤخرتها الرجراجة، رمت لي النظرة فقلت فـي نفسي: أنا قتيلك هذا الصباح.

وخرج عبد الهادي خجلا، يلملم طاقيته على شعره المبلل ليجدني أعاني رعشة شديدة، تهز كل بدني، وضاعفت دفعات العطس، وشكلات وجهي بسحنة الإعياء، قلت: يا عبد الهادي يبدو أني لا أقدر على مصاحبتك. قال: أخذت برد يا حلـو.. أعملي له شايا يا فتحية واعصري ليمونة.

قلت له: أنا أروح أحسن، وقال الرجل: لم جسـدك فـي البطانية الصوف وخذ لك غفلة، ستقوم كالحصان.

وذهب هو، وتركني مع المرأة، وقمت فعلا كالحصـان، وكانت المرأة عطشى ومشتاقة، تصدق بالله، قالت لـي: أنـا ما شفت كدا في حياتي.

- والثانية؟

- طقطق النار والعة.

- أنا أعرف كيف أتعامل مع الجوزة.. والثانية؟

- عملت مرة على تاكسي لرجل قبطي من غمرة، كان – الله يقدس روحه – غنيا جدا، ومن نشاطه المتعدد في السوق سرح سبع تاكسيات في البلد، وكنت دون كل السائقين مقربا منه جدا، لأنه – الله يقدس روحه – ابن حظ، أنهي عملـي، وأذهب إليه للحساب، فأجد القعدة منصوبة، الخمر والحشيش وكل ما يحبه قلبك من أنواع الطعام.

وكان هذا الرجل معتادا على قضاء الصـيف فـي رأس البر، يأخذ الأسرة بكامل العدد إلى العشة الرائعة التي يمتلكها هناك، وفي هذه السنة كان له بنت تقضي امتحـان الثانويـة العامة، فتأخرت ريثما تنهي الامتحان، وأمرني بأن أصحبها

إلى الأسرة آخر يوم من الامتحان مباشرة، وبالفعل أخـذتها من مدرستها بزيها، وكانت – والحق يقال – في هذا الـزي تبدو ملكة جمال حقيقية، أفخاذ محشورة في سروال ضـيق، ومؤخرة – ما شاء الله – بارزة إلى أعلى تتفنن في تحريكها بإثارة، ونهدان كجملين عنيدين فـي حاجـة لجمـال يشـكم عنادهما، الحقيقة أنا لم أكن أهتم بها من قبل، مجرد تلميـذة، صحيح مشاكسة وشايفة نفسها شوية، وهي أمور كنت أحسبها على المراهقة فحسب.

وركبت التاكسي إلى جواري، في البداية بـدت مؤدبـة. ومتشاغلة عني بالنظر إلى الشوارع، ومرة تخـرج "لبانـة" لتعرض علي، ومرة "ساندوتش" ثم حينما انفردنا في الطريق الزراعي الطويل، طلبت مني أن أعلمها السياقة، قلت لهـا: في وقت آخر.. أو في رأس البر نبحث عن مكان خالي، أما في هذا الطريق الذي لا تنقطع عنه السيارات نعرض نفسينا للخطر، ولكنها أصرت، واقتربت مني جدا، ومدت يدها إلى عجلة القيادة، قلت لها: يا "ناني" تلخبطيني دعينـي أشـوف السكة. قالت: لا.. وركبها العناد، قلت لها: أقول لك شـوية

كلام نظري، قالت: عاوزه أتعلم عملي، ودلوقت، أنا عارفـة كل الكلام النظري، عاوزة أدخل على بابا وأنا سايقة العربية.

وأحتك الفخذ بالفخذ، وضرب النهد الكتف، وتناثر الشعر على الخد، وحومت الأنفاس المعطرة في الخيشـوم، وفجـأة وجدتها تقعد على حجري، قلت: الله يهديك يا شيطان، فركنت السيارة على مدار ساقية مهجورة، ووجدتني أطبع على خدها قبلة خاطفة فلم تمانع، ووجدت يدي تغور دون وعي مني في فتحة القميص وتتجول في قناة النهدين، فزفرت نـارا مـن فمها، ولم تمانع، بل أكثر من هذا، وجدتها تقول: نرجع فـي الكرسي الوراني أحسن.

وأخوك ما صدق خبرا، على مـا نزلـت لأفـتح البـاب الخلفي، وجدتها مهيأة تماما، زيها ملقي في الدواسة، وهـي مرفوعة الساقين على آخرهما، وقالت لي: أدخل الدار أمان.

وعليها يا عم، قضيت أسبوعا فـي رأس البـر أمضـى السهرة فوق سطح العشة مع أبيها وعمها وإخوتهـا الكبـار نكرع زجاجات البيرة المثلجة وندخن كراسي الحشيش مـن أغلى صنف، واخترت نومتي على السطح، قلت لهم: الهواء هنا منعش وجميل، هم ينزلون آخر السـهرة لينـاموا فـي

غرفتهم، وهي تصعد إلي بقميص النـوم الـذي لا أراك الله مثيله أبدا، وخذ عندك حتى نرى الخيط الأبيض من الخـيط الأسود.

الخروج الثاني:

عبروا بوابة السكة الحديد، واتجهوا نحو موقف السيارات، كان يسري هناك بانتظارهم، قالوا له: صباح الخير، ففتح لهم باب السيارة، ركبت البنات في الكراسي الخلفيـة، وركـب الأولاد بجوار يسري.

قال حسان: لسه بدري.

قال يسري: انتظرتكم كتير.

قال حسان: أبدا.. دا معادنا.

قال يسري: قعدت على القهوة وحسين كان هناك وطلـب لي "بوري".

سألت زبيدة: لسه ما رحش الطاحونة؟

قال يسري: سألته مفيش شغل ولا إيه؟ فقال لي واصـل مشوار اشترى غرابيل للفراكة.

سأل ياسر: انزل انده له؟

قالت زينب: يجي معنا.

قال حسان: لا.. دا مشاور ودا مشاور.

قالت زينات: والنبي تنزل تنده له.

فتح الأخ الصغير باب السيارة، وقال يسري: أركـن أنـا على جنب.

خرج يسري بعربته من تحت مظلة الموقف، عبر طريق الإسفلت، وحضن جنب الرصيف، أمـام محـل الكـاوتش المفتوح.

عاد ياسر ومال برأسه من نافذة السـيارة، قـال: مـش موجود.

قال يسري: يمكن مشي.

قال حسان: بينا يا عم نلحق مشوارنا.

لما دخلت السيارة المدينة من الطريق الخـارجي ظلـت تسير حتى عبرت المزلقان، والميدان الذي يقف تحت مظلته عسكري مرور، أشار لهم بيده المخططة، فـدخلوا الشـارع الكبير الذي يقسم المدينة نصفين، عبرت السـيارة المزلقـان الآخر، ولما انحدرت منه ظهر المبنى القديم للمديرية، كـان المبنى أصفر متهالكا، يقف على بوابته الواسعة جنديان بـين أيديهما سلاح، أشار واحد منهما للسيارة، وقال: ممنوع.

قال يسري: المحكمة.

أشار له الجندي: المدخل من الباب الصغير.

عادت السيارة لتتجه نحو الباب الصغير، قالت زبيدة: مش حسن اللي هناك ده؟

تلفت الأولاد حيث أشارت، قال ياسر: هو.

كان تحت ظلة الشجرة، يسند بيده على جـذعها، وباليـد الأخرى سيجارة.

قال حسان: والعمل؟

قالت زينب: نسلم عليه عادي.

قالت زينات: وكل واحد في حاله.

قالت زبيدة: واحنا عاوزينه في حاجة؟

نزل يسري وفتح لهم الأبواب، رآهم حسن فأدار للسـيارة ظهره، وراقب آخر الطريق كمن ينتظر أحدا.

اندفع ياسر إليه ومد له يده: أزيك.

فوجئ به فسلم عليه، وغمغم بكلام غامض، ثـم جـاءت البنات الواحدة بعد الأخرى ومددن له الأيدي، فسلم عابسـا، كأنه لا يعبأ، تراخت أياديهن إلى جنوبهن وتخبطن في حلقة، ثم نظرت كل واحدة في وجه الأخرى مأخوذة، حتى استفقن على صوت حسان يشير إلى الباب الصـغير، سـرن وراءه صفا، ولم ينظرن خلفهن أبدا، والبنت الكبيـرة حامـت فـي

عينيها دمعة، مسحتها بطرف الشاش لما دخلت فـي ظلمـة المدخل الضيق لمحها حسان فاقترب منهـا، أخـذها تحـت جناحه وضمها بحنان، قال: ولا يهمك.

انفجرت باكية: ما كنتش فاكرة قلبه جحود كدا.

قال حسان: كله عند الله.

عند الدرج التقوا بالمحامي واقفـا تحـت إبطـه حقيبتـه السوداء يحادث فلاحين عجوزين، اقترب منه "حسان" وقال: صباح الخير يا بيه.

بوغت المحامي: صباح النور.. جيت؟

قال: لسه واصل.

سأل المحامي: وباقي الورثة؟

قال: كلهم وصلوا. وأشار إليهم مكـومين تحـت الـدرج ينظرون إلى الصاعدين والنازلين بخوف.

قال المحامي: انتظروا شوية لأن الجلسة لسه.

عاد حسان إليهم ووقف يحملق في المدخل الطويل المظلم، كان جذع الشجرة ينتصب في منتصف الباب، وحسن ما زال ساندا يده عليه يدخن بقايا سيجارته، همس في نفسه: تاعـب نفسه على الفاضي.

قالت زبيدة: الله يرحمك يا آبا.

قال حسان: بلاط المحكمة أكل من رجله راقة.

قالت زبيدة: تعب كتير.

قال ياسر: واحنا ولا هنا.

أمال حسان رأسه إلى ياسر وهمس في أذنه: خد البنـات يستريحوا في "الكافتيريا" وأنا أطلع أنتظر لما تبتدي الجلسـة أنادي عليكم.

قال ياسر: تعالوا نقعد هنا شوية.

هتفت زينب: نقعد وسط الرجال!

قال حسان: وماله.. دي محكمة.

رأوه يقبل عليهم من جهة المدخل ومعه الحاجة أنيسة لما اقتربا من السلم، ارتبكت البنات، وصمتن بانتظـار تحيتهـا، لكنها خطت الدرجات دون كلام، مكـثن واقفـات يراقبنهـا بطرف خفي حتى برز رأسه ورأسها من سور الدور الثاني، قلن فيما بينهن: دا ماكنش عيش وملح.

وقالت زينب بصوت عال: مرة وسخة ماشية على هواه.

جلسن في ركن "الكافيتريا" بين العمود والباب، وانكمشـن على بعضهن وسحبن أغطية الرأس على وجوههن، ورحـن

يرقبن المكان بنظرات خفية بينما ياسر كان قد دخل الحجرة الصغيرة يطلب الجرسون.

لما جاءهم الجرسون يسأل عن طلباتهن سألنه: عندك إيه؟

قال: كل حاجة.. شاي وقهوة وحلبة وكاكـاو وحاجـات ساقعة.

قال ياسر: هات لهم بيبسي.

قالت زينب: أحسن.

قالت زينات: تلاقيه بيعمل طلبات أي كلام.

وقالت زبيدة: شكله أصفر الظاهر عنده سل.

فتح لهم الجرسون الزجاجات، ففرقعت وطارت سـداداتها بعيدا في الهواء، وسالت من حوافها رغاوي فوارة.

نظرن إلى الدور الثاني بحرص، وقالت زبيدة: تلاقـيهم واقفين يبصوا علينا.

قالت زينب: ربنا يعميهم.

قالت زينات: بصوا للترابيزة اللي جنبنا.

كان الجالس كهلا بوجه شاحب يرتـدي معطفـا واسـعا يخرج منه عنق نحيل معروق ينتفخ لأنفاسه الواهنة. وعلـى رأسه غطاء ثقيل من الفرو، كان يزحزحه إلى الوراء بيـده

المرتعشة ليهرش مقدم رأسه، بعد أن ضبط الغطاء مكانـه، عاد بنظرته التائهة إلى الأوراق المنشورة أمامه.

قالت زبيدة: يفكرني بأبويا.. الله يرحمه.

قالت زبيدة: يا عيني نفسه مقطوع.

قالت زينات: يمكن ما يروحش النهارده.

لما انتهين من الشراب، ركن الزجاجات الفارغـة تحـت كرسي الخشب الطويل.

قال ياسر: أطلع أشوفهم عملوا إيه حنده لكم من فوق.

قالت زبيدة: الرجل نام على الترابيزة.

قالت زينب: شفت رأسهم بتطل علينا من ورا العمود.

سألت زينات: فين؟

قالت زينب: فوق.

النبأ العظيم:

قالت الخالة لبنات الأخت: لم تكن مفاجـأة لمـا علمـت برحيله، كان يبين على وجهه أنه عمل عملة كبيـرة، لكنهـا المسكينة لم تصدق نفسها حين وجدته أمامها فجأة يسد فراغ حجرتها المفتوحة، على بدنه القميص الأبيض الخفيف، وبيده حقيبة السفر، وسمعت من مكاني أصوات الحياة تصخب في دمها، بل أحسست بسريانه الحار على وجهها، وكنت أظـن أن دمها قد فسد، وعروقها صارت ساوكًا مصمتة، لا شـيء فيها "أزيك يا زبيدة" ولم يقترب منها وقعد على الكنبـة إلـى جواري، وكنت مشغولة بعصر البرتقال فـي دورق كبيـر، أحرجت منه ولملمت بعثرة خلقـاتي: حمـد الله بالسـلامة يا أخوي. ونزلت أفترش الأرض، وهو ظل منكسا رأسه إلى الأرض يدوس سيجارته المطفأة، يفركها بعنف كأنما يتخلص من حشرة مؤذية، ولامته على قدومه المفاجئ: كنت ترسـل إلي لتعلمني بمجيئك لأهيئ لك المكـان فأنـت كمـا تـرى فوضى.

وكانت تريد أن تقول: لم يكن من المفـروض أن يرانـي على هذه الصورة.

ورأيت يدها تسبقها إلى بقايا المرآة المركونة على أرض النافذة، واعتقلت رغبتها فهي تدري أن شعرها منثـور، لـم تمرر عليه مشطا من وقت طويل، ولونهـا شـاحب يعلـوه الاصفرار، وفي هذه اللحظة صارت قوية، استطاعت النزول عن السرير لتكون إلى جواره، من أين واتتها هـذه القـوة؟ ورفعت الغطاء عن ساقها، ونهضت إليها: قولي عاوزه إيـه ولا تنزلي عن سريرك. وصرخت في وجهي: أنا مش عليلة، ليه مصرة تعامليني كأني قعيدة. وأردت الخروج بظهري إلى الصالة، فمالت علي لتقول بحنية: يـا خالـة أنـا لا أقصـد إهانتك، أنت تدلعينني زيادة عن اللزوم، بصـي.. خـذي.. أرسلي امرأة من الطاحونة لتشتري لنا جوز فراخ كمال يحب طبيخك ودائما يشكر فيه، مش كده يا كمال؟ وهز رأسه دون عناية، وقال كالهمس: لا تتعبي نفسك، ولا تتعبـي خالتـك معك.

ودخلت زبيدة حجرة الجلوس، فتحت النافذة لتدخل شمس الصباح التي تتراقص في الشـارع علـى إيقـاع الوابـور، ونفضت "الكليمات" المفروشة على الكنب وأزالـت الغبـار

المتراكم على حافة المساند البيضاء، وجعلت الطاولة وسط الحجرة تماما، ونظفت منضدة السجائر بذيل الروب.

قلت لها: لا تتعبي أنت نفسك، أقعدي مع جوزك وأنا أعمل كل حاجة.

وندهت على كمال: تيجي هنا أحسن؟

كانت تريد تخليصه من ظلمة الحجرة ومن روائحها المريضة، ولكنه لم يجب نداءها، فذهبت إليه، ردت الباب وراءها، وسمعتها تقول له: غير هدومك الأول: معك بيجامة والا أجيب لك جلابية من بتوع يسري؟ قال: معي بيجامة.

وسمعتها تتكلم بلهوجة: ما أخبار إسكندرية؟ عاملين إيه الجيران؟ أظنك تعبت شوية؟ معلش يا حبيبي، تصدق ممكن أرجع معك.

وهو لم يجب، ويبدو أنه ظل منشغلا بتغيير ملابسه، لأني سمعته يصيح فجأة: أعلق الهدوم دي فين؟

ورأيت سمرته تتضح معه بياض البيجامة، ولمعت هذه السمرة على ضوء الضلفة المفتوحة واستأذن في دخول الحمام، وانتهزت هي الفرصة لتبحث عن حقيبتها ومرآتها، وأخرجت صباع "الروج"، ودهنت منه خفيفا على شفتيها،

ومررته البودرة على وجنتيها، وعلى عجل شدت شعرها إلى الوراء، وعقدته بشريط أحمر، وسحبت الجلبـاب ذا الـورد الصغير المنقوش على الصدر، وارتدته بسرعة، وسألتني إيه رأيك يا خالة؟ قلت لها: وردة مفتحة، قالت: هذا لا ينفع لابد من حمام ساخن، وقالت: شكرا يا ربي على هذه القوة التـي بعثتها في بدني.

وسمعت كحته مقبلا من جهة الحمام، فخرجت من الحجرة لأعد وجبة الغداء المطلوبة وأعود إلى داري لأخلي للزوجين المكان.

* * *

وفي الصبح بعد أن غادر الدار قالت زبيدة لنفسها: لم أكن أدري أن هذا الخائن يحمل لي جرعة السم هذه فـي جيـب خفي، ويظل متآمرا طول النهار، ويتهـرب مـن أسـئلتي، ويواري وجهه عني منغلقا على سره، ويتركنـي أعـد لـه نفسي، وأفتح له أحضاني ليصب جرعته بلا رحمـة، وبيـد عمياء طائشة في قلبي مباشرة، ليخمد دمي، ويعود ليبوسـته الأولى، وكنت لما رأيته في بيجامته البيضاء يتحـرك فـوق "الخدوجة" الخفيفة في ردهات الدار، قلت: ها هو يعيد أيامـه

الماضية.. بعد المغرب سيجلس على إحدى الكنبات، تحت بريق المصباح واضعا منديله الأبيض المكوى على فخذه، يدخن السيجارة تلو السيجارة، ويستقبل القريب إثر القريب، هذا عمي، وهذا خالي، وهذه خالتي، ويحوط به الجميع، وبعد الزيارات يشعل النار في المنقد الصغير، يرص الحجارة، يدخن وحده خمسة، عشرة، عشرين، حتى يستكفي، وأنا وأمي حوله، نقشر البرتقال، أو نراعي القهوة على وابور السبرتو.

وندخل حجرتنا، وتدخل أمي حجرتها.

وحين يصادف وجود يسري يهلل لمرآه، ويجلسان حول النار، لا يكفان عن ترديد النكات، هذه نكتة قاهرية، وخذ عندك نكتة اسكندرانية، ويضحكان وأضحك معهما، وتبتسم أمي وتقول: والله ما أنا فاهمة حاجة.. ربنا يروق بالكم.

ويقول يسري: مش مهم تفهمي المهم تضحكي.

لكنه هذه المرة. وبعد ما عاد يسري من عمله، حاول أن يتفاداه، أكل لقمة سريعة، وادعى أنه يريد أن يمدد جسمه قليلا، قلت له: السرير معد فقد غيرت الملاءات وأكياس المخدات، قال إنه لا يريد النوم، مجرد فرد طوله قليلا ليريح

جسده المرهق، وعزم عليه يسري بأن يغلق عليـه حجرتـه الأخرانية، حيث لا حس ولا خبر، ولا شيء البتة يمكنـه أن يقلق منامه، وأصر على النوم في حجرة الكنب.

وفي الليل أعد له "يسري" الجوزة والنار، وعـزم عليـه بنفسين، وادعى أنه مقاطع الحشيش، ولم يعد يخطر له علـى بال، وأنا كنت عثرت على القطعة الملفوفة بورقة "السوليفان" في جيب البنطلون، ودفعني هذا للتفكير "ماذا جرى له؟ أنـه على غير عادته!".

وأرجعت هذه لقلقه علي، وللمدة الطويلة التـي قضـاها وحيدا وأنا بعيدة عنه، فلابد أن يكون مرهق الأعصاب جدا، وقلت ربما يعجل الاختلاء بي، وسعيت إلى السرير تتداعبني البهجة، وأنادي جسمي ليسعفني على احتمال هـذه المتعـة المنتظرة، وانغلق علينا الباب، وتمددت على حافة الفـراش، وهو ظل على طرف الكنبة يمتص دخان السيجارة، قلت له: أطفئ النور، وتعال لتسترح ويكفيك السجائر التـي دخنتهـا طول النهار.

وفوجئت بقوله: نامي أنت.. وأعطني مخدة من عندك.

وقلت مستهولة: إياك بتفكر أنك تنام وحدك على الكنبة.

ولم يجب، فعاجلته والدموع تطفر من عيني: قلها بصراحة أنت الآن تقرف مني. وأشعل سيجارة أخرى، وقال: يا زبيدة لا تهولي الأمر، أنا أعصابي متوترة. قلت له: أبدا الموضوع فيه سر، بح به وريح أعصابك.

- لا سر ولا يحزنون.. نامي.. نامي.

وغطست تحت اللحاف أنهنه، وجسمي كله ينتفض، والدمع ساح من عيني وغرق الوسادة، ولم يتحرك من مكانه، وبعد فترة سمعته يقوم ليطفئ النور وسمعت صرير الكنبة تحته، وهو يفرد جسمه عليها.

وكتمت أنفاسي مدعية الاستغراق في النوم، وكنت أسمع زفراته وهو ينقلب كأنما ينام على بصابيص نار مشتعلة، ثم سمعته يحك عود الثقاب، ويشعل سيجارة ينفخ دخانها مع تنهدات يجمعها من أعصابه المشدودة، وسمعته يدوسها تحت قدميه بحدة، وأخيرا شعرت بأصابعه ترفع شعري المبلل بالعرق، وينادي بصوت ضائع راشح بالدموع: زبيدة.. زبيدة.

وتصانعت النوم العميق، وهو أصر على ندائه، ولما وجدني لا أستجيب، أدار وجهي بيده القلقة نحو وجهه،

وفتحت عيني لأجده راكعا على بلاط الأرض مـائلا علـي. قلت: ها قد ندم واشتاق كما كان يفعل في الأيام الفائتة.

ولكن يا للهول وجدت دموعا تسح من عينيـه فانتفضـت جالسة، وأخذت رأسه إلى صدري: مالك يا كمال؟

- أرجوك تكوني شجاعة، وتقدري موقفي.

وصرخ قلبي في صدري، وسمعته يضرب بقـوة فـوق الضلوع، وانحلت عقدة يدي حول صدغيه.

- أنت عارفة إحساس الرجل منا لازم يكون له ابن يحمل اسمه.

ونكأ جرحي القديم، ذلك الجرح الذي دفناه معـا بعـد أن أعلن الطبيب أن قدرتي على الإنجاب منعدمة، وتحمل هـو ذلك، وقال:

إن حبنا لا دخل له بالإنجاب والعيال وخلافه، المهـم أن نكون معا، ولم يعد ينبش الجرح المدفون أبدا.

- صحيح اتفقنا زمان على...

- يعني عاوز تتجوز؟

- تجوزت فعلا.

- وجئت لتنعاني.. ومن سعيدة الحظ؟

- "توحة" البنت الوسطى لأم "توتو".

- أعز صديقاتي.

- لم تفعلها من باب الخيانـة وإنمـا دفعتهـا شـهامتها لإحياء...

- لا تقل شيئا آخر.. عد إلى مكانك، ومن الغد ترحـل، ولا تريني وجهك.

وعاد ذليلا، يتسلق الكنبة، ويتنهد كمن ألقى عـن كاهلـه الحجر الثقيل، وأنا عدت لأغطس في اللحاف، ولا قدرة لـي على دفع السد الذي انهار في عيني، فيضان مـن الـدموع، أردت إمساكها لأبدو شجاعة، ولم أقدر، وتلفت إليه بعد هنيهة لأسأله: وأنا ماذا قررت بشأني؟

- أنت الكل فـي الكـل، مازلـت زوجتـي.. و.. و.. وحبيبتي.

- وهل تريد للزوجتين العيش معا في الشقة، أم سـتؤجر لها واحدة؟

- ولماذا نؤجر يا حبيبتي؟ أنت هنا في بيتك وبين أهلك، وأنا أنزل إليك بين الحين والآخر.

وبصقت في وجهه بقرف، وصرخت وأنا أجهد ألا يصل صوتي لأخي في الحجرة المجاورة.

- أتخمد.. وكما قلت لك تعود من سكات دون أن تريني وجهك.

وفي الصباح الباكر لم أجده في مكانه، وأسرعت إلى الباب لأنادي على حسين الذي جاءني مهرولا من داخل "فراكة" الرز، وقلت له: هات الكاتب لأني سأنفذ ما طلبت مني تلك الليلة.

قال: حاضر بعد الغداء نتفق.

حان وقت الموت:

ترك حسين الطاحونة بعد أذان المغرب بقليل، واتجه إلى داره ليغير خلعة العمل ويزيل آثار الدقيق عن وجهه وشعره وقفاه، ورمى في جوفه بقايا طبيخ الغداء، وخرج مرة أخرى إلى الشارع، ولكن هذه المرة كان يرتدي الجلباب الصـوفي الفخيم، والبلغة اللامعة، والطاقية البيضاء المكوية، كان ذاهبا إلى هذا الحي الذي أنشئ حديثا على أطـراف البلـد بـين "الكبانية" والبنك، هناك كانـت الشـوارع الجديـدة تتقـاطع بانتظام، تقام عليها عمائر من عدة طوابق، تطـل شـرفاتها على شوارع رحبة، تسمح لهـذا الهـواء المنطلـق بـاللهو بالأوراق الكثيرة المتناثرة.

وانتظر طويلا على ناصية الشارع الفارغ الـذي أغلقـت أبوابه وانطلقت من نوافذه أصـوات التليفزيـون، ثـم مـل الوقوف، وقال لنفسه: ربما سبقني إلى هناك.

وطرق حسين على الباب الخشبي القصير المفتوح بوسط حائط منخفض يسور الحديقة الصغيرة في مقدمـة البيـت، وتتوزع على حوافه قطع الزجاج، وتنام على ظهره أغصان خضراء ارتفعت من الداخل، وانتبه حسـين إلـى الجـرس

المدقوق على جانب الباب، وداس على الزر بسبابته، فسمع الصوت الواهن ينادي عليه "أدخل" فدفع الباب بحذر وسار في الممشى قليلا حتى رأى النور ينبثق من فرجة باب لحجرة أقيمت وحدها في المساحة الفارغة أمام "الفراندة" تتسلق أعمدتها أغصان الليف واللبلاب، ورأى صلعة عبده داود تبرق تحت نور المصباح.

- مساء الخير يا عم "عبده".

- أهلا.. مساء النور.

وقام عبده داود من مكتبه يضبط معطفه الكالح الذي لا يرفعه من جسده أبدا ويعيد الطاقية إلى مقدم رأسه العاري.

- تفضل.

- لا مؤاخذة عاوزك في موضوع بسيط.

- تحت أمرك.. تفضل.

وانفرد حسين على كرسي "الأنتريه" الواطئ، وعاد عبده داود ليقعد على "الشلت" الكثيرة التي ترفعه إلى أعلى الكرسي فتسمع لطوله بالامتداد بعرض المكتب، وتجعله يرى الزبون قريبا إليه، وهو يطل بطرف من رأسه، ويكون جسمه

كله غاطسا في الكرسي المنخفض، ورأت عين حسين حـين استدارت إليه الخريطة المساحية الكبيرة المعلقة خلف "عبده"، ورأت - فوقها – صورة المسيح طفلا ترفعه العذراء علـى ذراع بضة بيضاء وعلى رأس كل منهما هالة من النور.

وأعاد "عبده" الطاقية إلى الخلف فبرقـت الصـلعة مـرة أخرى، وعقد ذراعيه الطويلتين أمام وجهه، وبدا ينصت لـ حسين.

- أنت تعرف أن عمي إبراهيم لم يترك وريثا له غير ولد وبنت.

- الله يرحمه.. كان حبيبي.

- البنت عادت من الإسكندرية بعد أن غدر بها زوجهـا، وهي الآن قعيدة الفراش، وأيامها على الدنيا معدودة، وتريـد كتابة كل ما تملك لأخيها الوحيد لترد على زوجها، الصـاع صاعين.

- عندها حق.. لكن لا يجوز الوصية إلا في الثلث.

- تريد كتابة أملاكها بيع وشراء.

- في هذه الحالة لابد وأن يعجل أخوهـا بتسـجيل هـذه الأملاك لأن حضورها واجب.

- بالتأكيد.. وعلى كل سوف تعرف الموضوع بالتفصيل.

- قبل كل شيء تشرب قهوة؟

- لا داعي لهذا.. تحيتك مردودة.

وظهر يسري فجأة في نور الحجرة، ولم يكونا قد انتبهـا لصوت أقدامه تدوس الورق الجاف في الممشى، سلم علـى "عبده" وقال لـ حسين: سمعت صوتك من الخارج، وقال له حسين معاتبا: انتظرتك طويلا ولكنك تأخرت.

- كنت أبحث عن العقود فهي مدفوسة من زمـان بـين أوراق كثيرة.

ووقف عبده داود ليدخل رأسه في النافذة الصغيرة المطلة على الحديقة وينادي: بت يا تريزة.. يا تريزة.

وسمعا صوتا أنثويا نحيلا يرد من بعيد: نعم يا بابا.

- اعملي قهوة يا بنت.

- كم فنجان يا بابا؟

- اعملي ثلاثة.

واستدار إليهما ليلعن التليفزيون الذي هرش أدمغة الصبايا اللائي صرن يتركن ما بأيـديهن ليفـرغن للفرجـة علـى المسلسلات.

وأجابه حسين: كل البيوت هكذا.

وقال يسري الشوارع الآن فارغة.. الكل يتفرج.

وجمع "عبده" أطراف معطفه مرة أخرى وقال ساخطا: آخر زمن.

وأشار حسين إلى يسري الذي يجلس على الكرسي المقابل ليخرج العقود حتى يطالعها الكاتب.

وفرد يسري الأوراق على المكتب، وراح "عبده" يرفعها إلى عينيه مستعينا بالنظارة التي وضعها على أطراف أنفه، وقال: يعني البيع سيكون في الدار والطاحونة، أرض الإصلاح الزراعي لا يجوز بيعها رسميا.

وقال حسين: سنكتب بها تنازلا حتى إذا وزعت الحكومة عقود الملكية تصير من نصيب يسري.

- لا أدري إن كان هذا ينفع أم لا؟

- سنكتبه من باب الحرص لا غير.

- الحكومة كل يوم في حال، مرة تقول أراضي الإصلاح ستوزع وفقا للتوريث الشرعي، ومرة تقرر بأنها ستكون للأفراد المذكورين في البحث.

وقال يسري: حسين باع من قبل، وأنا بعت نصيبي منها بعقد ابتدائي والحيازة ما زالت باسمي، فمقدار ما ستتنازل عنه "زبيدة" ١٦ قيراطا فقط.

قال حسين: لا تحاول أن تفهم عمك "عبده" هو يحفظها بالمتر.

وابتسم "عبده" وقال مفاخرا: كم مرة قستها بالقبضة أيام المرحوم. وصمت "عبده" قليلا، وبدأ يزحزح الطاقية إلى الوراء، ويمرر أصابعه الطويلة على الشعر الخفيف، واستغرقه النظر في الورقة التي ترتعش أمام عينيه، ثم سألهما: أظن يا يسري نصيبك في الطاحونة مؤجر لعمك الحاج؟

- أنا لا أحصل على شيء منه.

وقال حسين: حرام عليك لا تظلم الرجل.. ألم تحصل على ثلاثين جنيها آخر الشهر.

- هو يأكلها من جذورها.. أنت على نياتك ولا تعرف شيئا عن الإيراد.

- يا سيدي منه لله لن يأخذ شيئا معه إلى قبره.

ركن "عبده" الورقة على جنب، ورفع الأخرى أمام عينيه، وقال: أنا أذكر أني كتبت لك عقد بيع وشراء لأختك في هذه الدار من قبل.

- ستعيد إلي ما اشترت وفقا لعقد جديد.
- أنت لا تملك من الدار غير نصيبك من ثمنة أمك.
- بالضبط.. فمجمل الأمتار التي ستذكر في العقد الجديـد ١١٠ أمتار نصيب "زبيدة" من أبيها وأمها وما اشترته مني.

وبدأ "عبده" يفرد أوراقا بيضاء أمامه، وأمسك بالقلم وطفق يخط به ناظرا بين الحين والآخر إلى العقود المنشورة أمامه أو رافعا رأسه ليسأل يسري عن شيء غمض عليـه، حتـى دخلت البنت الصغيرة ترفع صينية القهوة بين يديها، كانـت ترتدي الجلباب المربوط بحزام إلى الوراء، وتدلت من رأسها ضفيرتان رفيعتان من تحت إشارب أصفر عمـق شـحوبه وجهها النحيل، وضعت الصينية على الترابيـزة القصـيرة، وقالت: عاوز حاجة يا بابا؟ ولم يرد عليها أبوها الذي انحنى رأسه بشدة على الأوراق، وتجمدت سحنة وجهـه المزمـوم الفم، واتخذ ملمح الوقار وكأنما ذهب إلى عالم آخر فـرض على الحضور قدسية الصمت، وعادت البنت بظهرهـا إلـى

الخارج، ولم تكرر سؤالها ومد حسين يـده إلـى الفنجـان، وأشار بعينه إلى يسري ليرفع فنجانه، ورشف يسري الـوش بصوت مسموع، وزغر له حسين لائما، والرجل سقط منهما تماما، ونسي وجودهما، وظلا على كرسيهما مـدة طويلـة، يتحرك الكلام بصدريهما ولا يقدران على التلفظ بـه علـى الألسنة، وبردت القهوة في فنجان "عبده"، ومنع يسري نفسـه أكثر من مرة، كانت رغبته لتنبيهه إلى القهوة قويـة جـدا، وأخيرا غامر بالقول: قهوتك بردت يا عم "عبده". فبحلق إليه الرجل من تحت عويناته، وعاد إلى أوراقه وكأنما لم يسـمع شيئا حتى انتهى تماما من الكتابـة، فوجـه الحـديث إلـى الرجلين: بص يا سيدي.. العقد جاهز على التوقيـع، طبعـا كتبت عقدا إجماليا.

وقال يسري: كنت أريد عقد لكل شيء على حده.

وقال "عبده" مكشرا: لا فرق.. المهم توقيعا على ما كتبت ثم الإسراع بالتسجيل.

وتدخل حسين لينبه الكاتب بالطلب الآخر: لـو تكرمـت تكتب لنا إقرارا بأنه لا يجوز لـ يسري التصرف في هـذه الأشياء إلا بعد وفاة أخته.

وقال يسري مؤيدا: طبعا لازم تضـمن حقهـا.. اشـرب قهوتك الأول.

ورفع الفنجان إلى الرجل الذي أخرج منديله الكبير مـن جيب المعطف، وراح يمسح به حبات العرق التي تجمعـت على الصلعة المضيئة.

رفع "عبده" الفنجان إلى فمه مرة واحدة، وسـحب ورقـة أخرى، واستعاد حالته الأولى، وساد الصمت فتـرة طويلـة حتى عاد "عبده" من استغراقه، ورفع الورقـة إلـى عينيـه ليقول: بص يا سيدي.. أنا تركت فراغا على يسري أن يملأه وفقا لبيانات بطاقته العائلية.

وطلب حسين أن يقرأ عليهما الرجـل صـيغة الإقـرار، فرجع "عبده" بظهره إلى الوراء، ونشق الهواء بطاقتي أنفـه، وسكت مدة يتأمل الورقة، ثم قال: بص يا سيدي..

وراح يقرأ الجمل باستمتاع، يتخلل القراءة وقفات لينشـق من الهواء نشقة طويلة ثم يعاود القراءة ناظرا إليهما من فوق الورقة ليتأمل وجهيهما، ويقاطعه حسين ليقـول: الله ينـور عليك.

ولما اختتم القراءة قال له يسري: تسلم يدك.

ومد يده خفية إلى حسين ليعطيه حق الرجل.

وسأل حسين: كم يا عم "عبده"؟

- من غير حاجة.

- خيرك سابق.

ومد يده بالفلوس المطوية، فردها "عبده" بين أصابعه، ثم ألقاها باستنكار جهة حسين: والمسيح الحي لا ينفع.. ناس غيركم آخذ منهم فوق المائة جنيه.

- أنت أخذت على عقود الطاحونة مع أخوتي نفس المبلغ.

- كل يوم الدنيا في حال.

وطلب حسين من يسري أن يضيف خمس جنيهات أخرى، وقاطعه "عبده" وهو يدفع الفلوس بيده المتوترة جهته: ورحمة أبيك الغالي لا ينفع.. أريد على هذه الفلوس ثلاثين أخرى.

وقام حسين وقام يسري معه، وقال "عبده": خذوا الورق والفلوس واعتبروها خدمة.

- كتر ألف خيرك.. هات يا يسري عشرة جنيهات.. ولا تطلب أكثر من هذا.

- الأمر لله..

ودفس المبلغ في جيب معطفه، وقام ليسلم عليهما، ومـال برأسه على يسري هامسا: اجعلها تمضـي هنـا فـي هـذه الفراغات، ومن الصبح تطلع على الشهر العقاري، لأنك لـو تأخرت وحصل المقدر كأنك يا أبو زيد ما غزيت.

- شكرا يا عم "عبده".

وغادرا نور الحجرة، وسبقهما ظلهما في مستطيل النـور الساقط على ممشى الحديقة، ولفهما ظلام المساحة الفارغـة المواجهة لمدخل البيت، وخرجا إلى الشارع النـائم يسـيران تحت مصابيحه التي توزع بقعا باهتة من الضوء.

حلم الأب:

رفع حسين ذيل جلبابه خوف النجاسة، وركل الحمار الواقف تحت الجدار قبل أن يدس وجهه بين قضبان النافذة المطلة على الحوش، نادى بصوت هلوع: يا حسان. ففزعت المرأة الجالسة خلف باب الحجرة، لمت ثديها الكابس على وجه الرضيعة، وقامت تحملها بذراع واحدة، وبالآخر فتحت الضلفة المغلقة. وردت: من؟

ولما تعرفت على شبح الوجه الغارق في ضوء المغرب: قالت: تعال. قال لها: حسان موجود؟ قالت: نائم.. افتح له الباب؟ فقال متسرعا: أيقظيه.. عاوزه في كلمة.

رجعت بظهرها لتفتح الباب العريض الذي احتك بالبلاط، فجعل حسان يتقلب على جنبه تحت الغطاء، ودخلت الحجرة المكدسة بالسرير والتسريحة والدولاب، انعكست صورتها على مرآة التسريحة المحوطة بصور عرسها، كان حموها – قبل وفاته – يجلس مبتسما بين أولاده، وهي في فستان الزفاف الأبيض بين ذراع حسان الذي غطى بكتفه مساحة كبيرة من صدر الأب العجوز.

رفعت اللحاف وملست على وجهـه العرقـان، ونـادت بصوت خافت: حسان.

فتح عينيه المحمرتين، وقام بشعره اللاصق بالجبهة، قال مرعوبا: إيه؟

وبهتت في عينيه ملامح الأب الذي كان يفر منـه فـوق سريره العالي فاردا كفيه على ضلفتي الدولاب المحفور فـي الحائط والذي يحفظ فيه ماله وأوراقه القديمة، كان يمنعه من فتحه، وهو يهجم على الأب بسكين عريض لامع، وكأن الأب يدفع في وجهه كفا نحيلة معروقة متصـلة بزنـد عظمـي ضعيف، شده منها فانكفأ الأب على وجهه، وطارت عمامتـه بعيدا على الأرض، وهو استطاع أن يتسلق السرير ويصـبح فوقه تماما، وصار الوجهان متقابلين يبثان حقدا وكراهية.

قالت: أخوك عاوزك.

فلم يهتم وتثاءب وهو يريد العودة إلى الغطاء، وتساءل في سره: معقول؟ أنا أفعل هذا في أبي!

وظل خفقان قلبه يهزه بعنف. وتساءل من جديـد: متـى تنزاح عني هذه الكوابيس المقلقة؟

قالت له تستحثه: حسين واقف على الشباك.

رمى الغطاء بعيدا وقام متكاسلا، دفع الباب العريض فظل يحتك بالبلاط حتى ارتاح على ضلفة الدولاب، وضـع يـده على عينيه حين واجهه النور، واقترب من النافذة ليستند على أرضيتها، وحسين دفع وجهه بين القضيبين، وبـدأ يحادثـه: صاحبك فتح المية على الأرض البور.

طار النور من عيني حسان وصرخ: نهاره أسود.

وسأله: ألم تكلمه؟

- عملها بالليل.

وازدادت الحمرة في عيني حسان وسأل متحيرا: والعمل؟

- يبقى الوضع على ما هو عليه.

وتطلع حسان بعينيه إلى بعيد، فلم ير غير الشعاع الأصفر الساقط على جدار الدار المقابلة، وقال: قتله حلا.

وقال حسين: تسكت أو نطلب حراسة على الأرض؟

وتركه حسان واقفا، ودخل حجرتـه، سـحب الجلبـاب المكوي من الشماعة، والتقط صورة أبيه بجانب عينه. فشعر بالخجل، وأراد أن يمنع كلاما يحوم في ضميره فلـم يقـدر، فقال بصوت سمعته زوجته الجالسة بالصالة: سابونا للغلـب. وكان قد نسي أن يغسل وجهه، فعاد إلى الصالة، واصـطدم

بساق زوجته التي أعادت فتح صدرها للبنت، وسألت: خير؟ فلم يرد عليها. وبدأ يرش الماء على وجهه، وكلمت الزوجة نفسها: يا رب.. الفرج.. دخلت هذه الدار لم أر يوما يسر قلبي.

وعاد ليدخل الحجرة واضعا الفوطة على وجهه يجفف بقايا الماء، فداس طرف ركبتها، وكاد أن يسقط على جنبه، فدفعته بذراعها صائحة: حاسب البنت. فركلها في ظهرها: وسعي.

فتزحزحت إلى الحائط، وواصلت الحديث في سرها: وكلما دخل علي الليل أنام خائفة من سقوط سقفها القديم، سيأتي علينا صبح يرفعوننا من تحت الأنقاض جثثا ممزقة، وهو يؤملني ببيع الأرض لنبني البيت الجديد الذي لن يبنى أبدا.

ودخل الحجرة يرتدي الجلباب: وقف ينظر في مرآة التسريحة متفاديا النظر إلى أبيه القاعد بين العروسين، وكلم نفسه: تعطيل جديد ربنا وحده يعلم مداه.

وخرج من الحجرة مندفعا إلى الباب الكبير، ولم يلتفت إلى نداء زوجته: ما ترحلوش، وشد الباب وراءه، فاهتزت

الحوائط، وتردد صوت السقاطة في خبطة وحيـدة زاعقـة، فصرخت البنت فأقعـدتها الأم علـى فخـذها، ولأن الثـدي الخارج من فتحة الصدر انسحب – فجأة – من فمها وظـل يقطر اللبن الدافئ على صدغها بكت البنـت، فراحـت الأم تربت عليها، وتهز فخذها في هدهدة رتيبة تسكت الصـراخ الذي ارتفع.

* * *

قال حسان لأخواته البنات حين اجتمعن عنده فـي الـدار الكبيرة: خرجت من حجرتي وأنا لا أرى شيئا أمامي، كل ما يهمني العثور عليه، وأمسك به لأزنق رأسه إلى حائط مـن الحجر، وأظل أدفع به، أدفع به، حتى أصفي دمه النجس، لقد طاش عقلي لما علمت أنه فتح الماء في نصيبنا من الأرض، وكنت من قبل لا أطيق أن أراكن تتجمعن في قاعات المحاكم خصوما لأخ مات قلبه، وكما ترون الدار انهالت حوائطهـا، وطقت عروق سقفها، ولا أقدر علـى بنائهـا حتـى أنهـي موضوعنا المعلق، خرجت إليه وأنا أخفـي السـكين الـذي اختطفته خلسة، وكنت أخشى أن يضطرني لاستعماله، ولكني قلت: الحرص واجب.. ولو تطاول معي أكثر مـن الـلازم،

ولو فلتت مني الأعصاب لا مانع عندي من ضربه فـي أي مكان من جسده.

ووجدته – بعد أذان العشاء – عند "الشامي" ظهـره إلـى الشارع، وينحني بكتلته الكبيرة فوق "البنك" يحادث صـاحب المحل. قلت: هذه فرصتي لآخذه على غفلة وألقي به من فوق الطوار.

وضبطت أعصابي، وقلت: سيلومونني الناس ويتهمـونني بالغدر.. فلأبدأ معه بالتفاهم الهادئ. واقتربت منه، وشـددته من ياقة جلبابه، فانتفض لمرآي وبلع ريقه، و"الشامي" وقـف متحفزا ومأخوذا، وسألته: لما فتحـت المـاء فـي الأرض يا حسن؟

وأجابني وهو يضغط بشدة على أسنانه ويحاول أن يبـدو متماسكا بينما الرعب يطل من حدقتيـه متحسـبا للضـربة المفاجئة تسقط على رأسه، وهو يعلم أني قادر على فعلهـا، وأجابني: هذه أرض أبي كما هي أرض أبيك.

وقلت له ولكننا يا حسن دعونا أكثر من مرة لتأخذ نصيبك وأنت كل مرة ترفض وتماطل.

وأجابني ببجاحة، وهو فـي الحقيقـة كـان يعبـر عـن اضطرابه وقلة حيلته في البحث عن رد مناسـب: لا تقسـيم إلا بعد أن أحصل على نصيبي من أمي.

وقلت له: وهل كان لأمك نصيب يا حسن؟

قال وهو يدير لي ظهره: مال حرام وأرضاه على نفسي.

ولم أدر ماذا فعلت بعد ذلك، حين انتبهت رأيته ملقيا على الأرض والدم يسيل من فوق حاجبه الأيسر، وأنا بركت عليه و"فين يوجعك" على رأسـه وعلـى فكـه، وفـوق عينيـه، ولا أدري ماذا كتف يديه، فانطرح بجسمه مفكوكا كله، يرفع يده فقط ليمسح قطرات الدم السائلة، و"الشامي" انحشر بيننـا بجرمه القصير يحاول دفعي بعيـدا عنـه، والـتم الرجـال الموزعون على كراسي المقهى القريب، وهرعت النسوة من الدور المجاورة، وأطلقن الصوات، وسمعت واحـدة تسـأل الأخرى عن هذين المتعـاركين، فتجيبهـا المـرأة: أخـوه يا ضنايا. ولا أدري ما الذي دفعني لمواصلة الشجار مع ابنه الذي جاء من آخر الشارع مصحوبا بأمه التي قدمت حسيرة الرأس تجرجر شاشها وراءها، وعيالـه الصـغار تجمعـوا حوله، بعد أن أجلسه الرجال على الكرسي الصـغير أمـام

المحل، حاول الولد الاقتتال معي، وأنا صرخت في وجهـه: لو رجل تقدم..

وشدني الرجال إلى الشارع العمومي، وشده الجيران إلى الخلاف ليعيدوا إلى داره، وبعد أن تركنـي الرجـال، عـدت وحدي، وجلست منفردا على المقهى المواجه لسكة الحديـد، أداري وجهي بكمي، وانفلت مني الدمع الذي تفجر بعنف في صدري لما برزت لي صورة الأخ المطروح علـى الأرض عاجزا عن مقاومتي.

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى العزبة لأعـاين المـاء الذي أطلقه في الأرض فرأيته هناك تحت التوتة التي يـزبط تحتها بهائمه، وكنت قد قصفت عودا من صفصافة قـابلتني في الطريق، لا لشيء إلا الرغبة في الإمساك بعصا بين يدي تؤنس وحدة الطريق.

وهو حين لمحني على رأس الغيط ظلل وجهه المربـوط بشاش أبيض ليتأكد من شخصي، فسخرت منه فـي سـري، وقلت لنفسي: وما الذي يدفعه لظلم إخوته طالما هو جبان إلى هذا الحد.

وسرت بطول القناة التي تفصل ما بين أرضنا وأرض "الحاجة" ولما اقتربت منه رأيته ينحني على المنجل ويقف بانتظاري مرتديا الصديري على القميص الأبيض الذي يبرز منه السروال الطويل، ولم يكن في نيتي أن أفعل شيئا على الإطلاق، وقفت أمامه وهو وقف على الجهة الأخرى مصدرا المنجل نحوي، وقال: والله إن اقتربت لأفصل رأسك عن جسمك وأدفنك هنا بالحياة.

فأطلقت ضحكة السخرية، وقلت له مستهزئا: ولماذا لم تظهر هذه الشجاعة بالأمس؟ وتأملت وجهه المربوط والبقع الحمراء الراشحة من الشاش، وأكلني قلبي، ولانت شجاعتي، واتضح لي أن الشخص الذي أمامي هو أخي، ابن أبي، وهو الآن يخشاني، والرعب ينفض بدنه مني بينما في صغري كان يستطيع أن يرفع يده الكبيرة هذه ويصفعني على وجهي، ولا أرد عليه، ولكني وجدته يصاعد شجاعته ويبدو أمامي متماسكا وقويا فسب أمي قائلا: يا ابن أم قملة. فوجدتني أرد عليه بسبة أقبح منها: لو كانت أمي بقملة ما تزوجها أبي على أمك.

وانتبهت إلى أني أسير وهو بمحاذاتي على الجهة الأخرى يتفادى عثرة الحجارة الكبيرة المنثورة بطول القناة، ووجدته يقول: ابقوا هكذا على عماكم يقودكم حسين وأنتم لا تدرون شيئا.

وسألته: لا ندري شيئا عن ماذا؟

فقال: إنكم لا تدرون أنه يأكل رزقكم أولا بأول.

وأجبته قائلا: طالما أنت تعرف ذلك لماذا لا تجيء من تلقاء نفسك وتنصحنا؟

- كيف أنصحكم وأنا أراكم مسوقين له مسلمين له عقولكم.

- إن لم يكن من أجلي من أجل ياسر أخوك الأصغر من أجل البنات مكسورات الجناح.

- عندي ما يثبت أنه يسرقكم عيني عينك وأنتم لا تدرون.

- وكيف أتأكد من كلامك هذا؟

ووجدتني أعبر القناة إليه. ولم يكن في الأرض البراح غيرنا وبعض الفلاحين الذين انحنوا بعيدا على أراضيهم يزرعون أو يقلعون، وانشغل حسن برفع الطوب الكبير من تحت التوتة، وقعد مربعا، وكان قد ألقى المنجل بعيدا فوق

كومة القش القريبة من البهائم التي تمـددت تحـت شـمس الضحى تجتر باستسلام وقعدت إلى جواره، وسحبت علبـة السجائر من جيبي وعزمت عليه بواحدة، وأخرج هو علبـة سجائره وعزم علي، وأخذ كل منا سيجارة الآخر، وأشار إلى الشريط المربوط على رأسه وقال: يعجبك هذا.. تفرج علينا "اللي يسوى واللي ما يسواش". قلت لـه: لأنـك تسـتاهل.. تتسبب في جرجرة أخواتك البنات إلى الجمعيات والمحـاكم وتعطل مصالحهن.

- أنا عملت هذا انتقاما من حسين.

- أنت تنتقم منا نحن لا من حسين.. ثم هل كفر حسـين حين أراد شراء نصيب أبيك من الطاحونة؟

- أنا لم أمانع في هذا، وعلى يدك بعت مثلكم: أنا أقصـد "الفصل" الذي دفعني للموافقة على البيع بـالقوة ويصـغرني أمام أهل البلد وأنا في نظرهم أهـم عضـو فـي جمعيـتهم الزراعية.

- ليست هذه بالحجة المقنعة، المهم أنـت تقـول عنـدك ما يثبت أنه يسرقنا.

- قابلني الليلة في دار الحاج "أبو سمكة" وأنا أثبت لك في حضوره لأنه شاهد على ما أقول.

وقمت على هذا الوعد حتى التقيته بعد العشاء في الـدار التي حددها، ووجدته جالسا على إحـدى الكنبـات فـي دار الحاج، ورحب الرجل مستبشرا بالصلح بين الأخوين، وأمـر جماعته بصنع الشاي ثم عاد ليقعد بيننا، وتحدث حسن قائلا: أنا لن أقول شيئا الحاج هو الذي سيتكلم، قل له يا حاج مـاذا يفعل بهم حسين.

- خلاص يا حسن انس ما فات خلينا في النهارده.

- وحياة اللي زرته لتتكلم.

- يا حسن يكفي أن أخاك هنا وابدأ معه صفحة جديدة.

- أنا عندي شروط سأعرضها عليه ولكن بعد ما يعـرف ما فعله بهم حسين.

- والله يا حسان يا ابني هذه شهادة تدخل معي قبري وقد سببت في قطع عيش الرجل الذي يعمل معي، حين علمت أنه يؤجر جملي في حمل محاصيل من أرضكم، سألته هل هـذه الأحمال يعلم بها باقي الورثة، قال إنها تتبع حسـين وحـده.

قلت له أنا لا أدخل داري لقمة حراما، وتحرم لقمتك عنـدي، وطردته.

- وهل ما حمله كثيرا؟

- كلام فارغ.. شوية ذرة، وشوية قمح، وكم غبيط تبن.

- ليس هذا كلاما فارغا يا حاج، أنا لي نصيب فيه لأنـي لم أحصل على شيء من الأرض من يوم وفـاة المرحـوم، وسأطالبهم بريع هذه الأرض من يومها حتى الآن.

وهذا أول شروطنا يا حسان.

- ماشي.. وبالنسبة للفدانين اللذين تدعي أنهما لأمك.

- هذا حق الله، ولا رجعة فيه، إذا كان هو لا يريد، وإذا كانت أخته لا تريد، أنا أريد، نخصمه من مجمل الأرض، ثم نبدأ التقسيم.

- عرضنا عليك هذا من قبل لماذا ألجأتنا لدخول المحكمة؟

- العند يولد الكفر.

وقال الحاج: لعب الشيطان بعقله فترة.. والمسامح كريم، يأخذ نصيبه من أمه ويتنازل عن القضية، وطالما يحلله على نفسه فهو حر أمام الله.

فوافقت على هذين الشرطين، فما قولكن في ذلك؟

- ٨ -

السماء السابعة:

قالت الخالة لبنات أختها فيما بعد: أنا لم أقصر فيها أبـدا، كنت معها لآخر نفس، سلمتها بيدي هاتين اللتين سلمتا للموت – من قبل – الأم والأب والأختين وهي لـم تقاومـه، بـل استقبلته بوداعة، وقد عرفت وجهه من أول الليل، وحـددت ساعتها بنفسها، وهيأت له روحها، وكان وجههـا – وهـذه شهادة تدخل معي قبري – مضيئا كالبدر في تمامه.

وكانت الخالة – والحق يقال – معها لحظة بلحظـة منـذ الساعة التي ذهب إليها يسري ليستدعيها من دارها لحاجـة أختها إليها، وقال لها: أرجوك يا خالة أن تراعيهـا فعملـي لا يسمح بالقعود إلى جوارها.

ولفت الخالة وجهها بالشاش الأسـود الكبيـر، وارتـدت جلبابها الحرير اللامع، وجرت لحمها الكثير في شوارع البلد متجهة إلى دار أختها، وقد رفعت يدها عـن عمـل الـدار وتركت زوجة أخيها قائلة لها: لا تعتمدي علي كثيـرا هـذه الأيام.

وكانت في قلبها تعرف أن هذا الرجل الذي حضر فجـأة من الإسكندرية لابد وأن يكون حاملا للنبأ الذي سيقضي على ابنة الأخت المسكينة، عرفت ذلـك مـن سـحنته الجهمـة، وعرفت أن في طيات نفسه سرا رهيبا، ولا يمكن أن يكـون حاملا للخير أبدا، وقد أوسعت له، ليبوح بسره.

وعلمت من زبيدة كل شيء، وطمأنت خاطرها.

وقالت لها: لا تهتمي بذلك أبدا.. فهذا لا يعني شيئا، كـل الرجال يخطئون ثم سرعان ما ينتبهوا لخطئهم، فهذا أبوك – كما تعلمين – قد غاب أمك في بداية حياتهما وتزوج عليهـا، وكلمت أمك طوب الأرض، كانت تقضي الليل تشد شعرها، وتمزع ثيابه المطوية في الدولاب حتى انتهت النزوة وعـاد إليها خاضعا، وأنت الحمد لله لا ينقصك شيء، غدا يشـفيك الله ويأتي هو على جدور رقبته ليسـتعطفك ويطلـب منـك العودة، وتكون الأخرى قد انتهت من حياته.

ولكن زبيدة لم تحتمل الصدمة، ولم تصدق كلام الخالـة، وشحب لون بشرتها وعـلا الاصـفرار وجههـا، وازدادت خطوط الشيخوخة عليه، وهـزل بـدنها، وأهملـت زينتهـا الحريصة على إتمامها كل صباح، ولم تقـرب المـاء ولـو

لتشطيف وجهها ولم تنظر في مرآة قط، ومن حين لآخر تلتفت إلى الخالة فجأة لتسألها: انظري يا خالة.. هل أنا قبيحة؟

وترد الخالة باستسلام، وتقول مجاملة: قبيحة! قطع لسان من ينطق بهذا.. أنت قمر.

وتروح زبيدة في سرحات طويلة ممتدة، ثم تتنهد وتفرغ زفرات صدرها العليل: ملعون أبو الدنيا.. غدارة.. تفووه.

أو تقول في وجه الهواء معاتبة: كدا يا كمال يهون عليك العيش والملح، ولا تجد الخالة ما تقول، ولكنها تعقب: يا أختي لا تتعبي نفسك، يكفي ما أنت فيه، بصي لنفسك، وانسي.

وتقول زبيدة بألم: أنسى.. أنسى عشرة العمر معه تهون عليه في لحظة ويرفسها برجله.

وعافت نفس زبيدة الطعام، والخالة تقترب منها بالطبق به قليل من الأرز أو بعض الخضار المسلوق أو بفخذ الدجاجة ولا تملك زبيدة إلا أن ترفع يدها لتزيح الطبق بعيدا: لا نفس للطعام.

- يا بنتي رمي عظمك بهذا الفخذ، لم يدخل جوفك طعام من يومين.

ولا تجيب زبيدة، تظل محملقة في النور المندفع إليها من فتحة الباب، وتظل على صمتها المهيب، تنصب لفورة نفسها التي تغلي بمشاعر الحقد على هذا الغادر الذي ألقى حجـره بصلافة في مائها العكر.

وتقول الخالة لبنات أختها: في اليوم الأخير ذبحـت لهـا الفرخ الشامورت وطبخت شربة الخضار الخالية من الملـح، وحاولت معها، ولكنها أصرت. قلت لها: ولو ملعقـة شـربة واحدة.

احتست من طرف الملعقة، ثم مجتها فـي بصـقة تنـاثر رذاذها على صدري، وأعقبته بـ "ملعون أبو الدنيا" "وأبو من يتعلق بها" وطلبت نفسها النوم فنامت، وكانت لا تشبع منـه، طالت ساعات نومها، وأجلس أمامها علـى الكنبـة أتسـمع لأنفاسها الممزقة وتنهداتها المحشرجة فأناديها باسمها: زبيدة زبيدة. فتلتفت إلي من تحت الغطاء ذاهلة، بعيون مضببة لـم تعد ترى الدنيا، فعرفت أنا الخبيرة بأحوال الموت وتحولاتـه بأن الساعة قد اقتربت، زبيدة دخلت الملكوت. هـذه ملامـح

أمي. وأختي، قد ركب على هيكلها، فعلـي أن أكـون إلـى جوارها، ولا أفارقها، وقامت لتبعد الغطـاء عـن سـاقيها، فتعرفت أفخاذها الشاحبة، ومدت يدا مرتعشة تلملم أطـراف الثوب عليها. وتداري عريها، وقالت: اسـنديني يـا خالـة. فسحبت الوسادة وجعلتها وراء ظهرها، ورفعتها من تحـت إبطها، وزحزحتها إلى الوراء، وراحت تبحلق في وجهـي، وكان شعرها الذي أهملت غسله قد تنـاثر علـى جبهتهـا، وسقطت خصله مبعثرة على الصدغين المبللـين، وانسـحب المنديل وسقط إلى الخلف وظل متشبثا بأطراف الشعر.

وقالت: يا خالة سأموت الليلة.

- بعد الشر.. لا موت ولا حاجـة أنـت أشـد منـي.. وسأموت قبلك وستحضري دفنتي إن شاء الله.

فشخطت في وجهي بقوة، وقالت: لا تأخذيني على قـدر عقلي.. سأموت الليلة.. الساعة الثالثة بالضبط، فانصتي إلي.

واقتربت منها، وجعلت ذراعي وراء ظهرهـا، ورحـت أدلك ساقيها باليد الأخرى، وقالت: معي مائة جنيه.. جعلتهم في صرة، وأخفيتها في هذه النملية، ويسري لا يعلـم عنهـا

شيئا، فاجعليها لخرجتي، وإذا لم تكف، معي هذا الخاتم، وهذه الدبلة، اسحبيها من أصابعي وكملي المبلغ المطلوب.

وأشارت إلى ضلفة النملية، وقالـت: هنـاك وراء هـذه الصناديق ستجدين حقيبة قديمة سوداء، هات منها الفلوس.

وقمت لأحضر لها الحقيبة، وجعلتها على بطنها، وفتحـت غلقها، ودست أصابعها تبحث بين الأوراق الكثيرة عن منديل قديم معقود على لفة من المال، عشـرات كبيـرة حمـراء، رفعتها بين أصابعها المهتزة، وبدأت تعد عشرة عشرة، وتمد يدها إلي لأكرر العد، وعيناها على ثباتهما وحملقتهمـا فـي دفقة النور، لا تنظر إلى ما بين يديها لأن الحدقتين جمـدتا، وانسحب منهما لونهما: وصارتا بيضاويتين.

وقالت: حطي الفلوس في صدرك، ولا تعلمي بهـا أحـدا حتى يتم المقدر.

وقلت لها: حاضر من عيني.

وأعدت الحقيبة فارغة إلى النملية، وكان يسري يقف وراء ضلفة الباب، وأشار إلي بيده، وقال همسا: أنـا يـا خالـة. فرفعت له السبابة إلى أنفي، وقلت له: هوووش.

وكانت لا ترى أخاها المختفي والذي سال ريقه للعشرات الكبيرة الحمراء.

وسألتني: هل أحد معنا في الحجرة؟

وكذبت عليها: لا يا أختي.. لا أحد.

وأشرت لـ "يسري بظاهر كفي ليتحرك من مكانه ويدخل إلى حجرته بآخر الدار، فمر من أمام الباب، وخفقت جفونها لظله.

على العموم هذه الفلوس أمانة وستسألي عنها أمام الله.

وقالت: أنت تكذبين.. يسري كان يرقبنا من وراء الباب.. وقلت لها مطمئنة: في الحفظ والصون.

في أول الليل دخل يسري حجرته ومعه النار والجـوزة، وقعد وحيدا بين السرير والدولاب يرص الحجـارة، ويشـد الأنفاس، ويسعل، ويتردد سعاله بعيدا وخافتا بـين الجـدران السميكة فيصل إليهما في الحجرة الأخرى باهتا وضالا، كأنه قادم من عابر يعود وحيدا. إلى داره بعد انقضاء سهرة الليل وبعد أن عمر رأسه بالدخان، طرق يسـري بـاب الحجـرة ليسأل الخالة إن كانت تريد شيئا، وردت عليه زبيدة: اذهـب

أنت ونم وإن احتجنا إليك سنستدعيك. وعاد بظهـره دون أن يفتح الباب.

وظلت زبيدة على رقدتها بين الغطاء المنشور على بدنها الواهن، تحت شحوبة المصباح الذي يفرش جدران الحجـرة بنور أصفر، وكان الذباب قد صنع من سلكه عنقودا أسـود يتدلى من السقف، وحام بعضه بين حوائط الحجرة المغلقـة، والخالة قابعة أمامها على الكنبة ساندة رأسها الكبير على يدها تتأمل زبيدة التي تقاوم النوم، تستسلم له مرة، ثم تنتفض فجأة لتقعد مربعة، ظهرها نحو الدولاب المفتـوح فـي الحـائط المكدسة على أرضيته علب الدواء تبحث بعينها التائهة عـن الخالة، فتقوم إليها لتأخذها بين يديها: عاوزة حاجة؟

- نمتي؟

- أنا صاحية.

- عاوزة أقول لك حاجة.

- نعم

- خصيمك النبي لا تدخل علي امرأة غريبة في غسـلي، أنت فقط، وإن كانت واحدة من بنات خـالتي تجـرؤ علـى الدخول معك فاسمحي لها، فأنا أخجل أن تراني غريبة.

- حاضر.. من عيني.

- والكفن يكون من الحرير الأخضر.. الستان.. وتشتري زجاجة عطر غالية، وتدلقينها كلها على جسدي.

- حاضر يا زبيدة لكن لا تقولي على نفسك، أنت ستعيشين حتى تعودي إلى شقتك، فأنا لم أتصور نفسي أبدا أن أرى موتك، لأنني سأموت وحيدة وأنت التي ستحضرين غسلي، لأني لا أرضى أن تحضره زوجة أخي، فأنا لا أرتاح إليها، وليس لي غيرك.

- وتقولي لـ يسري أن يفتح تربة أمي ليدفنني معها.. وأرسلي تلغرافا لـ "كمال" على سبيل الواجب، ولكن لا تأخري جنازتي حتى يحضر.

- حاضر.. بس ارتاحي شوية.

- أنا مرتاحة كدا.. اللقا يوم اللقا.

وتظل على حالها بشعرها المنكوش تدير بصرها في أنحاء الحجرة كأنما تبحث عن شيء تاه منها، وحين تجهد تمد طولها وتجعل وجهها جهة الحائط لتقوم مرة أخرى فتسحب المنبه من أرضية الدولاب وتبحلق في أرقامه، وتقول: الساعة الواحدة.. لسه ساعتين. وتنام، وتظل الخالة

متكومة على نفسها في جانب من الكنبة حتى رأتهـا تقـوم منتفضة لتحادث شخصا وهميا دخل عليها الحجرة: أهلا يـا أمه.. تعالي.. تعالي اقعدي جنبي.. ازيك.. مالـك مكشـرة! أنت زعلانة؟ أبوي معاك؟.. تعال يا آبا.. دي خالتي محدش غريب.

وقالت الخالة لنفسها: أهلا.. هم وصلوا.

وتفر الدمعة الساخنة من عين الخالة، وتدرك أنها النهاية، هكذا رأت أختها حين حضرتها المنية خيال الأب الراحـل، واحتضنت هذا الخيال بين ذراعيها بشوق، وقبلت الهواء أمام وجهها، وحادثته وحادثها، ولم يذهب حتى أخذها معه، وهكذا رأت أباها وهو يحادث أصحابه الـراحلين، يـدخلون عليـه ممتطين أحصنتهم المزخرفة السرج، ويرفع ساقه من تحـت الغطاء ليتشبث بظهر أحدهم، ويصرخ فيه: انتظر حتى ألملم شال العمامة فقد أطارها الهواء مني.

وسألتها الخالة وهي تكفكف الدمعة: من هذا الذي تحادثينه يا زبيدة؟

وأجابتها بجدية وكأنها تستنكف سـؤالها: هـذه أمـي ألا ترينها؟

وتعود إلى الحديث مع خيال الأم: هذه خالتي يا أمي لماذا لا تحادثينها؟

وتعود فتنكمش تحت الغطاء متجمعة على نفسها.

وقالت الخالة لبنات أختها: وصحت مرة أخـرى لتمسـك المنبه بين يديها، وتقربه من عينيها، وقالت: الساعة الثالثة.

فصحت فيها مهللة: ها قد مرت الساعة الثالثة ولم تصدق نبوءتك، ودعتني لأنام إلى جوارها، وقمـت لأفـرد سـاقي المنعقدتين ولأتمدد إلى جوارها.

وقالت: احضنيني يا خالة.

فجمعتها بين ذراعي، وقالت متنهدة: بـالقوي يـا خالـة بالقوي.

فشددت عليها الذراع حتى كادت تنعصر. وقالت مرتاحة: الله.. خليك كدا، ومكثنا على هذا الوضع حتى أخذتني الغفوة عنوة، وانتبهت على البرودة تسري على أطراف أصـابعي، فصحوت لأرى يدي المهملة ساقطة على كفها التي جمـدها البرد ونز منها العرق، فصحت وأنا أهزها من كتفها: زبيـدة زبيدة! ومددت إصبعي لأسبل الجفنين، وحمـدت الله علـى

أنهما طاوعاني وانسدلا، وعرفت أنها انسحبت مني غفلة، في هذه الغفوة اللعينة.

وندهت على يسري بأعلى صوت، وجاء يلملم ياقة جلبابه الذي يرتديه على اللحم: مالك يا خالة.. مالك.

قلت له: ارفع معي أختك لنجعلها على القبلة.

وكنت ألوم نفسي حتى لا أرتكب خطأ يعاقبني عليه ربي، فيكفي أنها سرقت مني دون أن أرى صراعها الأخير، فـلا أقل من أن أجعل رأسها على القبلة، ورفع يسري أخته مـن ساقيها، وانفرطت دموعه على صدره، ماتـت يـا خالـة.. ماتت.

قلت له: لا داعي لهذا الآن.. ابق معها حتى أنـده علـى البنات.

وخرجت إلى الصالة وصوت بكائه يتـردد فـي نهنهـة منقطعة ويملأ سكون الدار. وخرجت إلى الشـارع تخفينـي شبورة الصبح الساقطة على هيكل الطاحونـة والتـي تمـلأ الساحة الفارغة حولها، وشققت طريقي إلى حوش الحميـر، وأنا لا أرى ما أمامي حتى صدمت في حائط حجرة الميزان المنخفض، وأصوات المآذن تأتيني من بعيد تتـف للصـبح

الوليد، وانتبهت أني خرجت عارية الرأس، لم التفت للشـاش المفكوك على الكنبة أمامي، وطرقت نافذة حسان فأجـابتني زوجته الغارقة في النوم بصوت بعيد وخائف: من؟

قلت لها: صحي حسان.. زبيدة ماتت.

وسمعتها وهي تحاول إيقاظه وهو مستغرق في أحلامـه، لا يريد الانتباه ويحادث رجالا مجهولين ويسب آباءهم لأنهم لا يكفون عن إزعاجه حتى استيقظ أخيرا، وكنت قد انتقلـت على النافذة الأخرى لأوقظ زبيدة أم محمد التي قامت تـبص من النافذة محاولة الشعر: فيه إيه يا خالة؟

قلت لها: بنت خالتك تعيشي أنت.

واختفى وجهها في ظلام الحجرة.

ولما عادت مرة أخرى وجـدتها وحيـدة فـي فراشـها، والغطاء انكشف قليلا عن وجهها حتى بانت منابت شـعرها، وجزء من الجبهة وحافة الغطاء تدور فوق الجفنين المنغلقين، ويداها بررزتا من تحت الغطاء وحينما اقتربت منهـا لتعيـد ضبطه عليها، وجدت إصبعها خالية من الدبلة، وسحبت يدها الأخرى، فوجدت الخاتم قد نزعه منها، فقالت الخالة لنفسها: هكذا يا يسري لم تصبر.

وعاد يسيري ليقف على الباب بعد أن غيـر جلبـاب النـوم وارتدى جلبابا نظيفا يستقبل به الناس، ونظرت إليه بلوم، وهـو توارى بوجهه في المنديل ليمسح الدموع التي تسح من عينيه.

*　　*　　*

البدايات

بعد الدفن وقف رجال العائلة صفا، ومر عليهم المشيعون يسلمون عليهم ويقولون "عظم الله أجركم" فيرد الـواد مـنهم بصوت مخنوق بالحزن "شكر الله سعيكم".

ورفع النعش فارغا، بعـد أن طـوى بداخلـه اللحـاف والملاءة، ونزع الخوص الأخضر عن رأسه، ونثره أحـدهم فوق المصطبة التي دفنت تحتها زبيدة ومكث الرجـال أمـام العين المسدودة بالحجارة بعد أن رشوا الماء على التـراب. وانتشروا – جميعا – بين المصاطب ليقفوا لحظة أمام المقبرة التي تضم الراحلين من الأقرباء بينما تركـوا أهـل الميتـة وحدهم.

وقف حسين وحسان ويسري على رأس المصطبة، ووقف حسن إلى جوار عمه الحاج علي بين سور الحوش القصير، أمام الفتحة المبتلة، وبنات الحـاج محمـد قطعـن الجبانـة

بالعرض حيث مررن على مقبرة أمهن الواقعـة بـالطرف الغربي ليقرأن لها الفاتحة، واتخذن طريقهن من هناك حيـث عدن معا إلى البلد.

ويسري سار بين ولدي عمه متجهين إلى الطريق المسفلت ليعبروا من هناك شريط القطار، ويهبطوا منه إلى دورهـم، وقبل أن يهبطوا ودع الأولاد يسري على مزلقان المحطـة، على وعد باللقاء في المضيفة بعد آذان العصر.

وفي الطريق قال حسين لأخيه: مسكين لقد أضاع فرصته بيده.

وأجابه حسان: ونحن أيضا علينا ألا نضيع فرصتنا.. كان ينبغي أن أرد عليه اليوم وقال "حسين": ليس هـذا بالوقـت المناسب.. الأيام أمامنا طويلة.

والحاج علي ترك حسن على أول المقبرة لأنه عثر هناك على جار له، وسار معه متأبطا ذراعه، وعلى حين غفلة كاد الحاج أن يزغد جاره ويقول له كلاما انتبه على آخر لحظة، وآثر أن يقوله لنفسه بعد أن تلفت أمامـه ووراءه: يبـدو أن الوقت قد حان لنوسع الدار، لنعيد بناءها بعـد عـودة ابننـا

الغائب فأنا أظن أن يسري لن يلبث أن يتصرف في نصيب أخته ويرحل كلية عن البلد.

وحسن فضل العودة من جسر الترعة التي تدور حول البلد لأنه أقرب الطرق للوصول إلى داره.

صار الآن وحيدا بين الزرع يمشي على جسر الترعة التي طفح ماؤها على بعض الطريق، وانشغل عقله بفكره أن حسان لم يقترب منه، ولم ينتهز الفرصة ليرد على الشرطين اللذين اقترحهما عليه، وبات يظن أن باقي الإخوة رفضوا شروطه وفي هذه الحالة، تظل القضية مطروحة على المحكمة، ونظر يده كمن يرجم إبليس بحجر قائلا لنفسه: هو حر. لكن نصيبي في أمي لن أفرط فيه.

وأعاد التفكير في الأمر، وقال: ربما الوقت غير مناسب، ولدينا ليلة طويلة في المضيفة، وحين لم يجبني هذا اليوم سأعتبر ذلك ردا في حد ذاته.

وفي نفس اللحظة كان يسري قد وصل إلى داره، فتح الباب، واحتوته جدرانها العتيقة، وفاجأته وحدته المباغتة، لم يكن يهتم في الأيام السابقة بوجوده وحيدا في هذه الدار، ولكنه هذه المرة يحس بمشاعر لم يكن يعرفها، فتح باب

الحجرة الوسطانية، فوجد السرير لم يزل مفكوكـا وأخشـابه مركونة في ناحية، والبلاط لم يزل مبلـولا بمـاء الغسـل، والكنبة مشبوحة على جنبها، وفرشتها مكومة فوقها، وعلـى النملية طويت المرتبة والوسائد "من سيعيد كل هذه الأشـياء إلى وضعها؟".

وفزع من دخول الحجرة، فعاد بظهره، هل يخرج ليجلس على المقهى؟

فتح الباب الكبير، فانتبه لصمت الشارع، الطاحونة مغلقة الأبواب، وهدير وابورها سقط في العدم، هل يستدعي أحـدا ليقضي معه الوقت حتى يحين موعد المضيفة؟ وماذا يفعـل مع الليل الطويل؟ بل الليالي الطويلة المقبلة؟

إنه مرهق جدا وبحاجة شديدة للنوم، وأغلق الباب، وعـاد بظهره ليدخل حجرته بآخر الدار: وتمـدد بملابسـه فـوق السرير ساندا ظهره إلى الوسائد عاقدا ذراعيه من خلف. هل سيحضر كمال؟ أصـرت الخالـة علـى إرسـال البرقيـة، ولا أدري لماذا فعلت ذلك؟ سيأتي أكيد، فقـد حـان وقـت المطالبة بحقه.. نجوم السماء أقرب له".

"ليتك يا حسين كنت فاتحتها في الموضوع من زمن، كنـا وجدنا الفرصة للتسجيل، ولم تكن حصيلتنا من الـدنيا هـذه الأوراق التي لا فائدة منها.. كتبت بعـد فـوات الأوان، لـم أجرؤ أبدا على الضغط عليها لتصحبني إلى الشهر العقاري.. كانت المسكينة قد سقطت تماما، ولم تسعفها صحتها لتقضـي هذا المشوار، ومن الظلم إجبارها على ذلك، كنت أؤمل نفسي بأنها ستشفى يوما ما وتتمكن من الذهاب معي، ولكن الأجـل كان أسرع".

"ألم يكن من الواجب يا خالة البقاء في هذه الـدار، ولـو ليومين تؤنس وحشتي؟ عندك حق.. امتلأت الدار بالأشباح.. فكم شبح سأواجهه في أيامي المقبلة؟".

وكانت الظلمة الشفيفة للحجرة، والسـكون العميـق فـي المكان، وحاجة جسمه المجهد للراحة قد جلب الغفـوة التـي جاءت إليه حانية ولطيفة. فكر في القيـام ليـرص كرسـي الدخان ليمنحه مزيدا من الخدر، ولكنه استجاب للغفوة التـي سرت في دمه الهادئ، فسقط في حضنها مستسلما.